الدكتور: غلام حسين صديقي

الحركات الدينية المعارضة للإسلام في إيران

في القرنين الثاني والثالث الهجريين



ترجمة الدكتور
مازن إسماعيل النعيمي

الحركات الدينية المعارضة

للإسلام في إيران

في القرنين الثاني والثالث الهجريين

الحركات الدينية المعارضة للإسلام في إيران

في القرنين الثاني والثالث الهجريين

تأليف

الدكتور غلام حسين صديقيّ

ترجمة

الدكتور مازن إسماعيل النعيمي

دار الزمان



الحركات الدينية المعارضة للإسلام في إيران

في القرنين الثاني والثالث الهجريين

تأليف: د غلام حسين صديقيّ

ترجمة: د مازن إسماعيل النعيمي

الطبعة الأولى: 2010

الناشر: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ سوريا : ص.ب 5292

تلفاكس: 00963 11 5626009

موبايل: 00963 932 806808

E.mail: zeman005@yahoo.com

E.mail: zeman005@hotmial.com

الإخراج الداخلي: دار الزمان

تصميم الغلاف: م . جمال الأبطح

الفهرس

المقدمة

كان أهورا مزدا الرب الأكبر للقبائل الإيرانية في بداية تاريخهم، ويتفق أغلب المحققين على أن زرادشت أصلح الدين المزدائي شرق إيران في القرن السابع قبل الميلاد، لكن دينه لم ينتشر بسرعة وبقي الدين المزدائي غير المصلح معمولاً به في الأراضي الإيرانيه لقرون متمادية. وصل الدين الزرادشتي رويداً رويداً من الشرق إلى بقية المناطق الإيرانية، بحيث أن هذا الدين المنسوب إلى زرادشت كان يشاهد بين المغان (المُغان: جمع مغ وهو رجل الدين الزرادشتي وهي رتبة أقل من رتبة الموبد.... المترجم) في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد غير بمرور الزمن المعتقدات الدينية لدى عامة الناس إلى حد ما وحصلت فيه بعض التغييرات والتطورات بدون أن تلغى تلك التقسيمات الجزئية. كان الإشكانيون على المذهب الزرادشتي رغم أنهم يعتبرون أنفسهم أصدقاء اليونانيين وأسماء ملوك هذه الدولة شاهد على ارتباطهم بالطبقة المالكة الوطنية.

من الخصائص المهمة للملوك الهاخمنشيين والإشكانيين والإيرانيين الذين كانــوا يعيشون في عصرهم، امتلاك روح التسامح الديني، وعدم المساس بحرية أتباع مختلف الديانات واحترام عادات وآراء الشعوب، (لقد كان الملوك بحكم الضرورة قساة رغم أنهم كانوا أتقياء بصدق وصفاء. يجب القول إن أوامرهم دليل على التساهل الواسع ازاء المعتقدات والشعائر الدينية لشعوب الدول التابعة لهم. كان في الامبراطورية الإيرانية كمثيلتها الرومانية ديانات متنوعة للغاية، وفي أكثر عصورها ازدهاراً، وكان يعيش جميع أتباع هذه الإمبراطورية من الهنود والآشوريين والبابليين واليهود والمصريين براحة وطمأنينة تامتين في كنف القوانين العقلانية والأبوية).

كانت نسبة رجال الدين محدودة في العصور التي كانت تحكم فيها الدولة الهخمنشية والإشكانية في إيران، ولم تكن طبقة رجال الدين تشكل الطبقة الحاكمة.

في عام (244) انتصر الإيرانيون الجنوبيون على الإشكانيين وهم الإيرانيون

الشماليون الذين كانوا يحكمون ايران، وقد نُصّب أردشير ابن بابك ملكاً وهو من طبقة رجال الدين، (Caste Sacrdotal)، واحتل الولايات الإيرانية، وخضعت كلها لحكمه. لم يكن تفكير أردشير محصوراً بالوحدة السياسية، بل كان يؤمن أن الوحدة السياسية توأم مع الوحدة الدينية، (أذكى نيران المعابد)، واستحدث منصب رئيس الموابدة، ومنحه صلاحيات واسعة في الأمور النظرية والعملية للدين وكل ما يتعلق بالمعبد الزرادشتي.

يقول أردشير في وصيته لإبنه شابور(سابور): (اعلم أن الدين والملك شقيقان لا يمكن فصلهما عن بعض، إن الدين أساس الملوكية، والملوكية هي المدافعة عن الدين، واعلم أن كل شيء ليس له أساس محكوم عليه بالفشل ويضيع كل ما ليس له حافظ). (لقد كان أردشير يتعامل معاملة سيئة مع اليهود في عهد الإشكانيين، لذلك كانوا يدعمون بكل قوة الملك الإشكاني في تصديه للأعداء، وساعدوا الجيش أيضاً في الحرب ضد أردشير، ولكن هذه المعاملة تُركت فيما بعد وعاش اليهود بسعادة وفراغ بال تحت حماية الساسانيين).

لقد كان لرجال الدين الزرادشتيين سطوة في الدولة الساسانية، وكانوا أحياناً ينافسون الأشراف ضد المَلك، وكان تأثيرهم كبيراً في المجتمع وخاصة بين العامة من الناس ووصل ذلك التأثير إلى مفاصل حياة كل واحد من الناس، ولا يتم أي شيء إلا بقرار منهم، (لم ينحصر نفوذ رجال الدين في قدرتهم على الاعتراف بالمواليد والزواج وغيرها بل تعداه إلى التدخل في امتلاك الأراضي ومصادر الثروة الطائلة التي تتأتى من الجبايات الدينية والعشر والهبات، وقد وصل استقلالهم إلى حد أصبحوا فيه دولة داخل دولة).

كان للموابدة رأيهم في أسلوب حياة الناس وأعمالهم، وكانت تخضع لسيطرتهم الإدارة الأخلاقية والمعنوية للأمة إلى النصف الأول من القرن السادس الميلادي، لذلك كان انتشار الاستبداد لدى الموابدة أحد نتائج هذه الصلاحيات الواسعة، ومن نتائجه كذلك غلبة الظواهر والرسوم الدينية وانتشار التزوير والتقديس الكاذب، ومما زاد من الاستبداد ظهور الفُرَق المعادية للسّنة. لقد كان رجال الدين الزرادشتيون يتصورون أن واجب الدولة دعمهم في القضاء على أتباع هذه الفرق وكانت الدولة تتعامل وفق هذا النوع من التفكير دون أن تنتبه إلى العواقب الوخيمة لهذا التعصب الديني.

كانت في أنحاء مختلفة من إيران فرقاً انشقت عن الدين المزدائي قبل أن يصبح هذا الدين رسمياً ودين دولة، وتقبلت بعض هذه الفرق الدين الرسمي، لكن هذا لم يكن يعني إلغاء فرق المزدكية المختلفة. لقد كانت الزرادشتية الشكل الاعتيادي للدين الساساني، لكن الإيرانيين تركوا هذا الدين بعد الفتح العربي وعملوا على القضاء على الأفكار الزرادشتية.

لم تكن الديانة الرسمية كما أسلفنا القول دليلاً على الوحدة الدينية للإيرانيين إضافة إلى أن التعاليم الدينية الأخرى التي ظهرت داخل إيران وخارجها بعد تأسيس الدولة الساسانية قضت على الوحدة الصورية (الشكلية).

كان الدين المانوي والمزدكي داخل إيران والمسيحي والبوذي خارجها من أشد الديانات المعروفة بعدائها للدين الزرادشتي. إننا لا نعرف إلى أي حد يرتبط ظهور الدين المانوي والمزدكى في إيران بالنهج الاستبدادي لرجال الدين الزرادشتيين وفقر وحرمان الفرد تجاه التقاليد السائدة.

كان ماني إيرانياً والده من همدان وأمه من أعقاب البارتين، توجه والده واسمه فاتك من همدان إلى بابل التي كانت جزء من الدولة الإيرانية واعتنق دين المغتسلة (batiseuvs)، ولد ماني في عام (215 أو 216 م) قرب بغداد الحالية، وكان على مذهب أبيه، لكنه عندما كبر تعرّف إلى الأديان المنتشرة في هذه المنطقة يعني الزرادشتيه والمسيحية والطرق العرفانية ثم ترك دين والده وسافر إلى الهند في عهد أردشير وتعرّف عن كثب على أفكار الهنود، واقتبس منهم بعض أفكارهم ثم دعا إلى دين خاص به. عاد ماني إلى إيران بعد وفاة أردشير، وفي (20 آذار 242م) التقى مع شابور الأول خلال تتويجه ملكاً، ودعاه لدينه، كان شابور متعاطفاً معه وأجاز له نشر معتقداته. شرع ماني بالسفر خارج إيران وبالتحديد إلى الأصقاع الشمالية الشرقية واستمرت رحلته أكثر من عشرين عاماً، وعندما تسلّم الملك هرمز الأول (272- 273 م) الحُكم عاد ماني إلى إيران، توفي هرمز وخلفه بهرام الذي عامل ماني معاملة سيئة وأودعه السجن بتحريك من الموابدة لكن ماني مات في السجن عام (276 م) بعد ستة وعشرين يوماً من التعذيب. انتشر مذهبه عندما كان على قيد الحياة في تيسفون وبابل ومسن ادس (أورفه الحالية) والشوش وأرمينية والهند وبقية مناطق إيران، وفرض على أتباعه إخفاء دينهم نتيجة قسوة رجال الدين الزرادشتيين وتعسفهم. لم ينته الدين المانوي داخل

إيران كما سنرى، لكن انتشاره صار بطيئاً وخاصة خارج إيران لوجود أسباب انتشاره.

ظهر مزدك في عهد كواذ (487. 498 و 501 ـ 531م)، ولم يكن هناك اختلاف كبير في المسائل النظرية بين تعاليمه وآراء ماني، لقد كانت معتقداته الاجتماعية سبّباً في شهرة وإدانة مزدك. اعتنق كواذ دينه مما أدى إلى زيادة عدد اتباعه، في المقابل تحالف رجال الدين الزرادشتيين الذين كانوا يعادون أي نوع من الآراء التي تعارض سنّتهم والذين انزعجوا من ازدياد نفوذ مزدك في بلاط الملك تحالفوا مع مجموعة من كبار القوم وثاروا على الملك وسجنوه وانتخبوا شقيقه زاماسب، لكن سياوش أحد مؤيدي وأتباع كواذ وأحد المؤمنين بمزدك حرر كواذ من السجن وهرب على أثرها إلى الخاقان هيطل الذي استقبله بحرارة وقدم له جيشاً ومكّنه من العودة إلى إيران واستعادة العرش (498 أو499 م) لكنه ترك هذه المرة دعم مزدك والمزدكيين.

في عام (519 م) طُرحت قضية من يخلفه، كان لكواذ ثلاثة أبناء، كاووس الأكبر سناً و زام الذي كان كريم العين وهذا سبب كاف لمنعه من تسلم الحكم، وخسرو الذي كان يميل كواذ إلى جعله خليفة له، كان كاووس على دين مزدك لذلك ناصره المزدكيون. تمرّدَ اتباع مزدك في الولايات، ودبّ على أثر ذلك الخلاف في العائلة المالكة (لقد أدت تبليغات مزدك إلى إثارة الخوف لدى الملك، وشعر بالضيق من أعمالهم وسلوكهم بعد أن كان متسامحاً مع أقرانه في الدين مما جعله يتوجه إلى رجال الدين الزرادشتيين).

تزامنت مساعي خسرو مع حقد الموابدة بعد أن وجد الخطر يمحق به وبأساس بناء المجتمع وأدانوا المزدكيين وقضوا على رئيسهم وجنده (لا نعلم كم كان عدد المزدكية الذين قتلوا في هذه المؤامرة، وإن الأرقام التي ذكرها المؤرخون المسلمون والإيرانيون غالباً لا أساس لها من الصحة ويبدو أن أغلب كبار المزدكية قد قتلوا، وسنّ قانون يدين اتباع الدين الجديد وبدأت عملية القتل الجماعي ولم يستطع أصحاب الدين الصمود أمام معارضيهم بدون رئيس وصادروا أملاكهم وحرقوا كتبهم)، لكن أتباع هذا الدين وكان عددهم كثيراً عاشوا سراً في إيران إضافة إلي الدينين المذكورين لاختلافهما بشكل واسع مع الدين الزرادشتي. كان هناك أديان أخرى لها اتباع ولكنها لم تكن بتلك الأهمية، ويقال إن بعضها كان منتشراً بين

الإيرانيين قبل الدولة الساسانية ولكن ليس لدينا معلومات وافيّة عنها وعن مؤسسيها وتلك الأديان هي: الكيومرثيّه والكيّنويّه والماهانيّه والمسخيّه والتناسخيّه والصياميّه. يقول المسعودي إن من بين المجوس فئة تؤمن بعدم وجود بداية ونهاية للعالم وفئة كانت تقول إن للعالم بداية ولكن ليس له نهاية، يبدو أن مثل هذه الآراء تعود إلى بعض فرق الدين المزدائي. يقول حمزة الأصفهاني إن الإيرانيين يعتبرون كيخسرو رسولاً، وروى المقدسي أن بعض الإيرانيين يعتبرون جمشاد رسولاً وكيومرث وفريدون كذلك. يعتبر بعض المؤلفين المسلمين أن فرقتي الديصانيّه والمرقونيّه وهما من الفرق العرفانيّه والتي ترتبط أكثر ما ترتبط بالدين المسيحي من الفرق المزدكية للمعتقدات والآراء التي أخذها مؤسسوها من الدين المزدكي.

إن من بين الأخطار الجسيمة التي كانت تهدد الدين المزدكي من الخارج انتشار الدين المسيحي بين الملوك الساسانيين وبين شرائح الشعب الإيراني وخاصة بداية ظهور الدولة الساسانية. كانت في ما بين النهرين فرَق عرفانية اقتبست تعاليم الدين المسيحي مثل المندائية واتباع ابن ديصان والمرقيين والمغتسلة ومثلما رأينا أن والد ماني كان من اتباع فرقة المغتسلة لكن نفوذ الدين النصراني لم يكن عميقاً في تلك الفترة. لقد كان بعض النصارى من بين الأسرى الذين جلبهم الملوك الساسانيون من الشام إلى إيران خلال الحروب مع دولة الروم وقام أولئك بنشر الدين المسيحي، وفي القرن الرابع نصّب أحد الخلفاء بعض النصرانيين على بعض المدن التابعة لإيران، وكان اللطف سمة التعامل مع المسيحيين في ذلك الوقت، ولكن عندما أصبح الدين المسيحي الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية تغيرت الأوضاع وتقاطعت الملاحظات السياسة مع مصالح الموابدة وبدأت القسوة مع اتباع الدين المسيحي وبدء الجدل والخلاف يسودان العلاقة بين النصارى والزرادشتيين، وتغيّر سلوك الملوك الساسانيين انسجاماً مع الحدث رغم انهم لم يعملوا على قتل وسجن اتباع الديانات الأخرى انطلاقاً من حبهّم للدين القوميّ.

لقد كان لحرب شابور الثاني مع الروم جانباً دينياً، واستمرت حرب إيران مع الروم تزامناً مع الحرب ضد النصارى فيها. في ذلك الوقت لا زال المجتمع الديني في إيران غير منفصل عن المجتمع الديني في بيزنطة لأن الإيرانيين الزرادشتيه كانوا يتهمون النصارى بالتعاون مع الروم والميل إليهم (يجب القول إن هذا الشك له أساس

لأن الإيرانيين كانوا يمارسون الضغط على نصرانيي كلدة وبين النهرين ويعتبروهم طبقة خُلقت للعبودية ويحق عليهم القتل، في المقابل كان النصارى يكنّونّ الحسد لجيرانهم الذين كانوا يعيشون بحماية الروم الخالية من الاستبداد والميول).

في عام (339 – 340 م) أصدر شابور الثاني أمراً يجيز ملاحقة المسيحيين واستمرت عمليات تعذيب النصارى وسجنهم وقتلهم في الولايات الشمالية الغربية والمناطق المتاخمة لأراضي الروم، استمر الوضع على ما هو عليه حتى عام (379م) عندما كان شابور حياً، لكن صمودهم وأسلوبهم المقدس كان السبب في انتشار دين عيسى في الأراضي الإيرانية أكثر فأكثر- ولكن بعد شابور-، فقد كانت سياسته الدينية أحياناً تُنفذ بنفس القسوة وأحياناً كان يكتنفها التسامح، إلى أن اعتلى العرش يزدجرد الأول الذي كان يناشد بالصلح الداخلي والخارجي ولم يكن يجيز تعذيب رعيته ممن كانوا على مذاهب وأديان أخرى ومنحهم الحرية الدينية وسمح للنصارى بتأسيس (جمعية رجال الدين) في العاصمة عام (410 م). لذلك وجد دين عيسى أتباعاً له في الولايات الإيرانية الشرقية، لكن هذا الوضع لم يدم لأن الموابدة الزرادشتيين والأشراف كانوا ينظرون بعين الحقد ليزدجرد وأعماله، (كان النصارى يستغلون اتباع دينهم الجدد الذين ازداد عددهم خاصة بعد عام (410م)، ولم يتعرّض المسيحيين بعد ذلك للقتل لذلك ازداد عددهم بشكل كبير مما أضطر قادتهم الدينيون إلى إيجاد مدن جديدة وربما حوزات أخرى لهم. إن الذي أثار غضب المزدائيين أكثر من غيرهم هو اعتناق مجموعه كبيرة من قادة المملكة الكبار الدين المسيحي وقام أحد الرهبان بتخريب معبد نار قرب الكنيسة عام (420 م) مما أدى إلى إثارة غضب الزرادشتيين وعندما امتنع المسيحيون عن ترميم المعبد حسب توجيهات الملك اضطر هذا الأخير إلى التشدد معهم، لكن يزدجرد توفي في الوقت الذي عزم فيه معاقبة النصارى بتحريك من رئيس الموابدة). بعد أن توفي يزدجرد بدأت في عهد ابنه بهرام عمليات قتل وتعذيب النصارى الذين هربوا بدورهم إلى مناطق بيزنطة المجاورة، في الوقت الذي بدأت الحرب مع الدولة الرومانية. في عام (422م) نال نصارى إيران الحرية الدينية في إطار الاتفاقية المعقودة مع دولة بيزنطة، لكن أمر ملاحقة المسيحيين لم يُترك كلياً. وقع في ذلك الوقت حدث مهم للنصارى عندما عقد مجمع رجال الدين اجتماعاً له في أحد المدن العربية، ونتيجة لمساعي دادي يشوع تم إعلان استقلال الجمعية الدينية

الإيرانية عن رجال الدين الغربيين، وخفف هذا الأمر من سوء ظن الإيرانيين بالنصارى وتبعيتهم لدولة بيزنطة. لذلك كان دعاة دين عيسى ينتشرون في أنحاء إيران وكثر بناء المعابد.

انتشر الدين المسيحي في أرمينيا في بداية الدولة الساسانية وأصبح في بداية القرن الرابع الميلادي الدين الرسمي فيها. كانت السياسة الإيرانية تعارض انتشار هذا الدين وكان قادة هذا البلد يعذبون اتباعه ويضطهدونهم مما جعل أهل أرمينيا يميلون إلى الروم ويظهرون الحقد الدفين للإيرانيين الزرادشتيين ويتحينون الفرص لتدمير المعابد، أما في عهد يزدجرد الثاني (438–457 م) الذي كان يلاحق المسيحيين مثلما فعل ذلك اليهود، تم الحد من نشر الدين المسيحي في هذه الولاية من خلال إصدار أوامر جديدة وفرض الضرائب على الكنائس، لكن مساعيهم كان لها نتائج عكسية وبدأ أهل أرمينيا بالتفكير بالاستقلال، وأعلن أتباع عيسى الجهاد ضد الإيرانيين مما حدا بيزدجرد إلى المجيء إلى آرمينيا شخصياً وانتصر على المتمردين عام (451 م) وقتل جمعاً منهم وأسر قادتهم الدينيين واستمرت عمليات القتل حتى وفاة يزدجرد الثاني (457 م).

حثّ فيروز (459–484 م) المسيحيين على قبول معتقدات نستوريوس الذي كان مرفوضاً عند الروم لمساعدته في استعادة أرضه من أتباع دينهم الأجانب، في ذات الوقت شَرَعَ قساوسة ورهبان رها (أدس، اورفة الحالية)، الذين عطلت مدرستهم في نصيبين بسبب نفوذ آراء نستوريوس بتأسيس مدرسة هناك، أدى هذان الحدثان إلى فصل نصارى إيران عن نصارى الروم، لكن نصارى أرمينية رفضوا هذا المذهب، وبقوا على مذهب (الطبيعة الواحدة) وثاروا مرة أخرى وتسببوا في إحراج ومضايقة الدولة الإيرانية، فُسِخ في عهد بلاش (484–488 م) بشكل كامل دين إيران الرسمي في (أرمينية) وقطعت العلاقات الدينيّة بين الإيرانيين والأرمن.

كان المسيحيون يتمتعون بالحرية في عهد كواذ (488م) خاصة في بداية حكمه عندما كان بعيداً عن نفوذ وتأثير الموابدة الزرادشتيين، وينشرون دينهم، ولهم مدارسهم وجمعياتهم.

تسامح أنو شيروان في بداية حكمه مع النصارى، وأصبح ظهيراً لهم، خاصة فرقة نستوريوس، وعندما بدأ الحرب ضد دولة بيزنطة، استأنف الموابدة الزرادشتيون تعذيب وقتل النصارى من الإيرانيين والقوميات الأخرى، وفي عام

(488م) نفوا جاثليق مارابا إلى أذربيجان كونه كان زرادشتياً ثم أصبح نصرانياً.

في عام (604م) بدأت حرب العشرين عاماً بين خسرو ودولة الروم، وفي عام(641م) دخلت قوات خسرو بقيادة (شهر براز) مدينة القدس ونهبوها، وأسروا كبار رجال الدين النصارى واحرقوا الكنائس الكبيرة، وتم إرسال الأسرى النصارى اليعقوبيين إلى ولايات إيران الشرقية مثل خراسان وسيستان، عامل خسرو النصارى معاملة سيئة عندما هاجم هراكليوس إيران واحتل مقرّ خسرو الثاني وغنم منه الكثير، واستأنف المذابح والتعذيب ضدهم، عندها رفض خسرو مشروع هراكليوس للصلح، وقد ثار عليه كبار قادة الجيش الإيراني وألقوه في السجن ثم قتلوه بعد ذلك، خلفه على العرش شيرويه الذي توفي بعد عدة أشهر من الحكم بعد أن قتل سبعة عشر من الأمراء المرشحين للحكم وعلى أثر ذلك دبت الفوضى في الدولة بحيث حكم إيران عشرة ملوك خلال أربع سنوات. تعرّض الدين الزرادشتي في الشرق إلى الخطر أيضاً لان الدين البوذي كان ينتشر في تلك المناطق، جاء هذا الدين من الهند إلى بلخ قبل ميلاد المسيح وكانت له معابد هناك ومنها معبد نوبهار، وكان عدد البوذيين كبيراً في أواخر عهد الدولة الساسانية في شرق إيران وخاصة في بلخ التي كانت تعتبر من المراكز المهمة للدين البوذي. قام أحد الصينيين ويدعى هوان تسنج (Huan Tsang) بزيارة لإيران كسائح من عام (629 إلى 645م) وكتب تقريراً عن بلخ يقول فيه: (هناك مائة دير بوذي يعمل فيه ثلاثة آلاف رجل دين وطلاب وزهاد ورهبان، وأضاف أنه نزل في معبد نوبهار وشاهد فيه وعاءاً كبيراً (طست) يستعمله بوذا للاغتسال وشاهد كذلك ضرساً وجاروباً له).

لقد كان الموابدة الزرادشتيون، أصحاب النفوذ الكبير في الدولة الساسانية، بعيدين عن المناطق الشرقية ولم يكن لهم خطراً سياسياً على الدولة الإيرانية، وكان في شمال خراسان نوعٌ خاصٌ من الحكم كانت فيه حرية للبوذيين أكثر من النصارى وهذا لايعني إغفال خطر توسع الدين البوذي على حساب الدين الزرادشتي الذي يختلف عنه كلياً. إن التطور الواسع للدين البوذي شرق إيران دليل وشاهد على عدم التنسيق بين الزرادشتيين الإيرانيين، وخلق النفاق الديني لدى الإيرانيين وإبعاد المانويين الذين جهروا بدينهم ومذابح المزدكيين والمعاملة السيئة للنصارى وضعاً غير مشجعٍ للمجتمع الإيراني. لقد كان اتحاد الدين والدولة الخاصيّة الأساسية للدولة الساسانية، ومن سلبيات هذه الخصوصية عدم وجود

سياسة دينية متعقلة مقابل نشر دين عيسى، ويُستنتج من السطور أعلاه أن عدداً من الملوك الساسانيين يفتقرون إلى المنهج الصريح والقاطع والثابت إضافة إلى افتقارهم جميعاً إلى سياسة دينية واحدة موافقة أو معارضة. لقد أوصل الموابدة الزرادشتيون دين زردشت الأخلاقي والمتعالي إلى مرحلة محفوفة بالصعاب والمتاهات التي لاطائل منها مما قلل من نفوذهم لدى الناس، ونتيجة لذلك تناقصت قوتهم المعنوية وآلت إلى الضعف، والدليل على ذلك إعتناق أرمينية والحيرة الدين النصراني ووصل الأمر إلى أبعد نقاط إيران. لقد كان عدد المسيحيين كبيراً وخاصة في بابل، والسؤال المطروح هنا لو لم يظهر الدين الإسلامي فماذا كان سيحل بالدين الزرادشتي؟.

إن الحركة الثقافية آلتي ظهرت في إيران أواخر القرن الخامس وبعد تأسيس مدرسة نصيبين وخاصة في عهد أنو شيروان زادت من القدرة الانتقادية والاستدلالية لدى الشعب وقللت من قيمة وأهمية الدين الزرادشتي الحافل بالخرافات والخزعبلات، وكان الشك وعدم الإيمان في تزايد وسادت العالم فكرة عدم الوفاء وسوء الخُلق والقسوة. إن النظرة الطيبة البسيطة والقوية والمؤثرة التي هي أساس الدين الزرادشتي تبلورت ونمت في كنف الأفكار البسيطة، وتغلغل مفهوم الزهد إلى الزرادشتيين بعد أن كان سائداً عند عدد من الفُرَق الدينية المعارضة للسّنة في إيران وأدى ذلك إلى تخريب أُسس الدين. لقد أفرزت العقيدة الزروانية التي كانت مسيطرة في العهد الساساني مسلك الجبر، وكانت كالسم القاتل للروح القديمة للدين المزدائي، زروان هو الرب الابتدائي وأبو هرمز والأهريمن (وهو نوع من الجن الخرافي لدى الإيرانيين... المترجم) لم يكن له نهاية للزمن وإنما تقدير.

إن تأسيس الدولة الساسانية في القرن الثالث الميلادي كان نتيجة رد الفعل الطبقي والديني ونتيجة منطقية لنفوذ الثقافة الأجنبية. لقد كان وراء انتصار العرب على الإيرانيين وانقراض الدولة الساسانية العديد من الأسباب من بعيد وقريب وخاصة التخبّط السياسي والاجتماعي والديني لخسرو الثاني الذي كان ملكاً مستبداً أنانياً طماعاً جباناً وعشرياً، كبد الأمة الإيرانية خسائر كبيرة، لكن أحد أقوى تلك الأسباب هو ذات السبب الديني الذي مرّ ذكره، إضافة إلى ذلك هناك عامل آخر وهو عدم شعور النصارى بالأمان إطلاقاً (لقد كان النصارى دائماً على الحياد في حال أي عدوان يقع. يقول اليعقوبي إن البطريرك يشوع

يهب (Isa Yahib) سعى لكسب مشاعر المسئولين الجدد.

إن الفقرة أدناه التي ربما فيها بعض الشيء من المبالغة لكنها لسوء الحظ قريبة من الواقع تعلل امتناع النصارى عن تقديم الدعم للإيرانيين ضد أعدائهم (كان الآراميون منذ اثنا عشر قرناً معتادين على تحمل الأقوى منهم وقد ساعدوا الهاخمنشيين والسلوكيديين والإشكانيين والساسانيين تباعاً وبكل ما يستطيعون، واتبعوا ذات النهج مع العرب أيضاً، إذن فما الفرق بالنسبة للعبد أن يخدم ذلك السيد أو هذا).

الفقرة التالية تتحدث عن وضع النصارى الإيرانيين: (كان من المستغرب في مثل هذه الأوضاع لو كان النصارى الإيرانيون محبين للوطن بشكل حقيقي فما كانوا ليميلوا إلى الساسانيين لخشيتهم من السيطرة الأجنبية، ولكن عندما اقترب خطر العرب كان أول ما فعلوه تأمين مستقبلهم لدى القادة المهاجمين الذين توقعوا انتصارهم فعلاً. إن هذا الوضع لم ينحصر بالنصارى أو الفرَق المعارضة للسّنة فقط، ومن النتائج السلبية لهذا التعصب الديني إعراض مجموعة عن الدين الزرادشتي واعتناقهم دين الفاتحين وخاصة في بداية الأمر لأن أسلوب الفاتحين أكثر ملائمة وأنسب من أسلوب رؤساء الدين الزرادشتي.

اختبر العرب قوّة الإيرانيين (رمضان عام 13هـ الشهر الثاني من الخريف) في معركة البويب (قرب الكوفة)، وسقطت أرض العراق بيد العرب بعد معركة القادسية (رمضان 14 هـ)، وفي معركة نهاوند انفرط عقد الدولة الساسانية وفُتح الطريق أمام العرب لاحتلال المدن الإيرانية، وأُنيطت مهمة إدارة أمور كل ولاية بالمرازبة (المرازبة جمع مرزبان وتعني لفظاً حامي الثغور واصطلاحاً سيد القوم... المترجم)، كان بعضهم يحارب العرب في المدن التي تحت سيطرتهم وكانت نتيجة المعركة تحدد مصيرهم، والبعض الآخر سلك طريق الصلح ودفع الخراج والجزية، لكن الشعب الإيراني لم يخضع مرة واحدة، واستمرت الانتفاضات والثورات بالتناوب لسنوات في الولايات الإيرانية.

كان تعامل ولاة العرب مع الإيرانيين يكتنفه الغموض وخاصة ما يتعلق منه بالأمور الدينية، ولكن ظاهرياً كانت معاملة الفاتحين مع المغلوبين تختلف حسب مقتضيات الزمان والمكان. ففي زمن رسول الإسلام (ص) وعندما احتُلت اليمن،

بعث الرسول (ص) أشخاصاً إلى هناك يدعون الناس إلى الإسلام، ويأخذوا الزكاة منهم، والجزية ممن بقي منهم على دين عيسى أو موسى ومزدا ورفض الإسلام، أما فيما يخص عُمُان فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا زيد بعد فتحها بأخذ الزكاة من المسلمين والجزية من المزدائيين، أما في البحرين فقد أسلم مرزبانها الإيراني ومجموعة من مواطنيه، واستمر البقية على دينهم الزرادشتي ودفع كل بالغ ديناراً كجزية.

كان المزدائيون واليهود ينفرون من الدين الإسلامي، وكانوا يفضلون دفع الجزية، وقد تسبب أخذ الجزية من الزرادشتية في البحرين وعمان واليمن في نوع من الجدل بين المسلمين، فقد اعتبر بعضهم هذا العمل منافياً لمبادئ الإسلام وقالوا كيف يأخذ الرسول الجزية من المجوس علماً أن اليهود والنصارى من أهل الكتاب، لذلك نزلت الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون). صارت هذه الحادثة سابقة ولذلك عُدَّ أصحاب الدين الزرادشتي من أهل الكتاب في الوقت الذي كان فيه عمر بن الخطاب متردداً في تعامله مع الزرادشتيين الإيرانيين، عندها نهض عبد الرحمن بن عوف وقال سمعت رسول الله يقول، عليكم بمعاملة المجوس كما تعاملون أهل الكتاب.

عموماً يمكن تحديد ثلاثة عصور تختلف واحدة عن الأخرى من خلال الاستشهاد بالوقائع :

أولاً: عصر الخلفاء الراشدين الذي بدأ من الفتح العربي واستمر حتى نهاية خلافة علي (ع).

ثانياً: العصر الأموي وسيطرة معاوية إلى نهاية السلالة الأموية.

ثالثاً: العصر العباسي من تأسيس دولة بني هاشم إلى وفاة المعتصم (227هـ).

كان الولاة العرب عامة في الفترة الأولى متدينين وصادقين وقنوعين، فإذ احتُلت ناحية، أو مدينة بالحرب يتم التعامل بقسوة مع الأشخاص الذين كانوا يقاومون، وقتلوا كل من يستطيعون قتله وصادروا أموالهم ولم يكن للمغلوب أي حقوق. كانت غنائم الحرب تقسم إلى خمسة أقسام: قسم إلى بيت المال وكان يُرسل إلى مركز الخلافة والأقسام الأربعة المتبقية كانت تقسم بين الأشخاص الذين شاركوا في هذه

الحرب، وإذا ثار أهل ناحية يتم القضاء على ثورتهم بالعنف والقوة، ويُقتل ويأسر أهلها، وإذا فتحت المدن عنوة فإن العرب يُنصبون أحد كبارها والياً عليها، وإذا استسلم أهل المدينة بلا حرب وقبلوا الجزية لحماية أنفسهم حُفظت لهم أرواحهم وحريتهم وأموالهم، ويبقى المرزبان المحلي في منصبه مادام لا يضايق العرب.

نأتي الآن إلى ترجمة نص المعاهدة التي عقدها حبيب بن مسلمة مع أهل دبيل في أرمينية: (بسم الله الرحمن الرحيم هذه رسالة من حبيب بن سلمة إلى أهل دبيل من المسيحيين واليهود والمزدائيين حاضرهم وغائبهم، أضمن لكم أرواحكم وأموالكم وكنائسكم ومعابدكم، أنتم في أمان ونحن نحترم هذه المعاهدة مادمتم تحترموننا وتدفعون الجزية والخراج والله شاهد وهو كافٍ لهذه الشهادة).

كانت هناك حرية في ممارسة الشعائر الدينية خاصة في المناطق التي كان المرازبة يبقون فيها، ولم يكن للعرب نفوذ مباشر عليها، وبقيت المعابد على حالها، وقد خُيّر الإيرانيون على قبول الإسلام، أو دفع الجزية والخراج، ولم يكن هناك إجحاف في دفعهما، ويدفع كل شخص ما استطاع مقابل حماية ماله ودينه، أما الدعوة إلى الإسلام فكانت حرة في جميع المدن والبلاد.

كانت الأوضاع عادية في المناطق التي كان يحكمها العرب حتى إن تعامل هؤلاء الأجانب كان أفضل من الحكام الإيرانيين قبلهم. هناك حقيقة مهمة وهي أن الفتح العربي لم يكن مقروناً بالمذابح والإكراه على تغيير الدين وقبول الإسلام في كل الأوقات ولم يتعامل مع المغلوبين في هذا العصر بالعنف والقوة، وكان الخليفة يصدر أحكاماً صريحةً في مراعاة أحوالهم، ومن البديهي أن هذه الأحكام لم تنفذ كما يجب ولكن حكمنا على الأغلب.

* * *

كان للإيرانيين في هذا العصر الأمل الكبير في استعادة حريتهم وخاصة في عام (32هـ) عندما كان الملك يزدجر حياً، وقد انعكست الوقائع التي كانت تحدث في مركز دولة العرب على إيران، وأعلنت بعض المدن والنواحي المفتوحة العصيان لذلك أُضطر الفاتحون لفتحها مرة ثانية، وتعامل العرب بشدة مع المنتفضين والعصاة وكانوا يأسرونهم ويغنمون أموالهم، ولكن هذا التعرّض لم يكن مستمراً

دائماً فكانت الأمور تعود إلى مجاريها بعد أن تهدأ المدن. بعد هذا العصر وبالتحديد في خلافة معاوية والذي يعتبر بداية العصر الثاني نرى أن العمال العرب شرعوا بالتعرّض لأتباع بقية الأديان ومنها ما ذكره الجاحظ في باب مقتل هريدان فارس وإطفاء نار معبد كاريان المهم ونيران معابد أخرى على يد عبيد الله بن أبي بكره في عهد ولاية زياد ابن أبيه. وكذلك تخريب معبد نوبهار في بلخ على يد قيس بن الهيثم السُلمي والي خراسان عام (42هـ) في عهد خلافة زياد في أعقاب قيام أهل المدينة بنقض العهد وكذلك قتل بطارقة ارّان عام (42هـ). يقول مؤلف تاريخ سيستان عن ولاية ربيع الحارثي على سيستان عام (46هـ): (جاء ربيع إلى سيستان وكان يسلك سلوكاً حسناً، واستأجر بعضهم لتدريس الناس علوم القرآن والتفسير، وأشاع العدل بينهم...). صحيح أن المؤلف يقول إن جمعاً من الإيرانيين قد استسلموا بسبب حسن سلوك الوالي، لكن القوة والقسوة كان لهما الأثر في ذلك ويضيف المؤلف نفسه أن عبيد الله أبو بكره والذي شاهدنا ما فعله قبل ذلك لمعبد الكاريين وقتله لرئيس الهرابدة، جاء إلى سيستان بأمر من زياد بن أبيه عام (52هـ): (أمَرَه زياد أن يقتل شابور كبير الهرابدة عندما يصل إلى هناك ويحطم معابد النار واستقر في سيستان لأن دهاقنتها ومجوسها حاولوا العصيان، فقال مسلمو سيستان إذا فعل الرسول (ص) أو الخلفاء الراشدون ذلك مع مجموعة عقدنا الصلح معها فيجب علينا أن نتم ذلك وإلا فإننا لن نفعل ما يخالف شريعة الإسلام، وكتبوا رسالة بالصلح إلى الحضرة "يعني الشام" وجاء الجواب بمحاربتهم لأنهم أهل عهد والمعبد هو مكانهم وهم يقولون إننا نعبد الله ولا نعبد النار والشمس ولدينا المحراب عوضاً عن ذلك وكذلك الكعبة ولليهود الكنيست وللمسيحيين الكنيسة وللمجوس معبد النار، فإذا تعاهدنا لا فرق لدينا).

كلما مر زمن على دين الإسلام، كان يتناقص عند العرب خلوص النية والدافع الديني والبساطة، وكان يسيطر عليهم العُجب والنخوة وحب الجاه والطمع والشهوات الأخرى، حتى في الوقت الذي كان فيه عدد كثير من أصحاب الرسول (ص) على قيد الحياة فقد ترك الخليفة طريق أسلافه وعاداتهم وانحرف جمع كثير عن العدل والمساواة، وكان لفتح الممالك والاستيلاء على ثروات طائلة وظهور النسل الجديد أثر في ذلك أيضاً. بدأ أثر سلطة العرب على الإيرانيين يزداد شيئاً

فشيئاً وكان الهدف الديني للعرب يختلط مع الأطماع الشخصية وحكومة القوم الغالب على المغلوب وتحقير الأقوام غير العربية. كانت توجد في ذلك الوقت ثلاثة مجاميع من الإيرانيين، مجموعة استسلمت واعتنقت الإسلام بإيمان كامل وقلب سليم بينما أعلنت مجموعة أخرى الإسلام تهرباً من الجزية والخراج والحصول على المنصب والجاه، والحقيقة أن هؤلاء ظلوا متأرجحين بين الدين القديم والجديد، ومجموعة ثالثة تمسكوا بدين أجدادهم وهم مجموعة كبيرة.

المجموعة الأولى، كانت غير راضية وغير مرتاحة عن عدم تنفيذ الشرائع والتعاليم الإسلامية، ولم يتم التعامل معها بالشكل الذي كانوا يريدونه، كان العرب يتعاملون معهم بغرور وتكبر، ولم يمنحوهم امتيازاتهم الاجتماعية التي كانوا يتمتعون بها، مما أدى إلى انزعاجهم وغضبهم. أما المجموعة الثانية، فكانت دائماً ما تنتهز الفرصة للتخلص من حكم الغالبين. بعد موت يزيد توسعت دائرة الفوضى التي حدثت في العراق أواخر خلافته ونتيجة لصراعات القبائل ونفرتها من الخلفاء الأمويين ومقتل الحسين بن علي (61 هـ - 680 م) ونهب المدينة (63 هـ - 682 م) وإحراق الكعبة. لم يتمكن الإيرانيون الكثر في العراق من استيعاب ما فعلوه بهم ولذلك مدّوا يد العون لكل من هبّ ودبّ لمعارضة الدولة الأموية. كان الإيرانيون يمثلون أغلبية جيش العشرين ألف مقاتل للمختار بن أبي عبيد الذي دَحَر عام (66هـ) جيش الشاميين التابع لعبد الملك بن مروان، ومن ثم احتلوا العراق. أما عُمير أحد قادة عبد الملك الذي قدم للتفاوض مع إبراهيم بن الاشتر قائد المختار فقد قال له: (عندما دخلت جيشك ازداد حزني لأنني لم أسمع كلمة عربية واحدة إلى أن وصلت إليك، لقد جاء لحربك أربعون ألف من كبار أهل الشام وأبطالهم، فكيف ستحاربهم بهؤلاء الإيرانيين الذين معك، قال إبراهيم، والله حتى لو لم أجد سوى نملة لكنت حاربت بهم، لا يوجد قوم أبصر منهم في الحرب مع أهل الشام، هم أبناء الأساورة ومرازبة إيران).

تحولت إيران في هذا الوقت إلى ملاذ لمعارضي الدولة وكان أهل الأراضي الإيرانية التي تشرف على العراق يعانون من العذاب والأذى نتيجة حرب هؤلاء الطغاة مع عمال الدولة. سكن عرب قبائل البادية الذين أُرسلوا لقتال جيش إيران البصرة والكوفة اللتان بنيتا بأمر من الخليفة الثاني. تَقبّل بعضُ العرب أفكار فرقة الخوارج بعد ظهورها نتيجة عدم إيمانهم بأفضلية قريش، وكان عددهم في تزايد

مستمر وأصبحوا عاملاً مقلقاً للدولة، كان معاوية وهو على قيد الحياة يشكل سداً وعائقاً إلى حدٍ ما أمام توسع هذه الفرقة. استغلت الفرقة المذكورة وفاته وأعلنت العصيان ثم التحق بهم جمعٌ من أهل خوزستان وفارس وكرمان لاعتقادهم أن الخوارج أتباع أهل المساواة بين المسلمين وكذلك للتهرّب من دفع الخراج، لذلك فقد كان عدد الخوارج كثيراً في الولايات البعيدة عن إيران حتى أواخر القرن الثالث الهجري. كان زياد بن أبيه من أهل البصرة ثم جاء إلى فارس وكان في بداية الأمر إباضياً وكان يؤمن أن الله سيبعث رسولاً من الإيرانيين، ويُنزل عليهم كتاباً من السماء يشتمل على كل ما يجب أن يكون دفعة واحدة وينسخ شرعه شرع محمد (ص)، وكان يقول إن أتباع هذه النبوة يجب أن يكونوا من الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن، وإن الناس من أهل حرّان و واسط الذين يسمّون الصابئين ليسوا الذين ورد ذكرهم في القرآن. وكان يقول أيضاً إن موالاة الأشخاص الذين يشهدون بنبوة محمد (ص) يجب أن يكونوا من أهل الكتاب حتى لو لم يسلموا ولن يعملوا بشريعته، وكان يعتقد أن مثل هؤلاء الأشخاص يعتبرون من المؤمنين إذا فعلوا هذا الأمر خاصة أن الخوارج قد ازدادوا قوة في عام (65هـ) واقتربوا من البصرة قادمين من خوزستان، لذلك أمر المهلب بن أبي صفرة لمحاربتهم وتمكن من إبعادهم عن خوزستان ثم تفرّق شملُ الخوارج في كرمان وأصفهان، ولكنهم عادوا إلى العراق مرة ثانية عام (68هـ) ودخلوا المدائن وتوجهوا من هناك إلى إيران، واحتلوا الري ودمروها وارتكبوا المذابح فيها وساندهم الخواص والعوام وسيطروا على سيستان. بقي الخوارج دائماً في حال كرٍ وفرٍ، إلى أن دبّ الخلاف بينهم عام (77هـ) وانقسموا إلى فرقتين متناحرتين، توجهت فرقة صغيرة منهم برئاسة قطري بن الفجائة إلى طبرستان، أما الفرقة الأخرى التي كانت يرأسها الرب الكبير تبعت المُهلّب، ثم قُتل بعد ذلك رئيسها مع عدد كبير من أتباعه، وقُتل كذلك قطري في طبرستان على يد جيش الشاميين الذين بعثهم الحجاج لمحاربته.

فرّق الحكام والعمال العرب في هذا العصر بين العرب من بقية الممالك، وقدموا الامتيازات للبعض منهم، هذا من جانب، وشرعوا بتخطي وتجاوز العهود التي كانت تضمن حقوق أتباع الديانات الأخرى من جانب آخر، وزادوا من ضغطهم واحتقارهم لهم إلى حد كبير فترك عدد كبير من أتباع الديانات الأخرى معتقداتهم الدينية مكرهين ودخلوا الإسلام، كان هذا السلوك السيئ سبباً إلى حد ما في عدم وجود خليفة ثابت للممالك الإسلامية. كان أهل إيران بعد وفاة يزيد ولأعوام

طويلة وتزامناً مع اضطراب مركز الخلافة يعدُون ذلك الأمر فرجاً لهم وأعلنوا التمرّد على العرب في أغلب المدن والنواحي، وحدث هذا الأمر في خوزستان وفارس وكرمان وسيستان أيضاً لأن أهلها كانوا من الخوارج، وكانت خراسان في حالة ثورة أيضاً، وخير دليل على ذلك الخلاف الذي نشب بين القبائل العربية حيث كان كل رئيس يطمح في تولي الحكم ويسعى كل قوم منهم لاستغلال السكان المحليين لتنفيذ مآربه مثلما حدث عام (77هـ) فقد ثار تكبير بن وشامي الذي كانت أمه أصفهانية بتحريك من أصدقائه ضد أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الذي كان من قبيلة قريش وأراد فرض الخراج على أهل خراسان وإجبارهم على الإسلام. حقيقة كان طغيان العرب ضد حاكمهم أو عصيان الحاكم على الخليفة بالنسبة للإيرانيين الذين كانوا يفكرون بالاستقلال قدوةً ودستوراً، ولم يكن الحكام الذين نُصبّوا في هذه الفترة على الولايات الإيرانية كأسلافهم متدينين بل العكس كانوا قُساة مع الناس، فمثلاً أمية الذي مرّ ذكره كان طماعاً مُتكبراً صاحب نخوة شديدة، وكان دائماً يردد أن عائدات خراسان وسجستان لا تكفي لنفقات مطبخي. وهكذا ازدادت مظالم العمال العرب في إيران في وقت سيطر فيه الحجّاج بشكل كامل على العراق وكان عبد الملك قد ولاهُ على خراسان وسجستان (78هـ). وكان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (81هـ) يعامل أهل سيستان بالحسنى وكان الجميع يُطيعه مما شجعه على الخروج على الحجاج وكذلك بسبب المظالم التي لمسها منه والدماء التي سُفكت بلا حق، لذلك دعمه أعوانه من أهل العلم وناصره أهل سيستان وفارس الذين عانوا الأمرين من الحجّاج. كتب عمال الخراج قُبيل هذه الثورة إلى الحجاج يخبرونه أن أهل الذمّة قد دخلوا الإسلام ونزحوا من القرى إلى المدن وتناقص الخراج، أجابهم الحجاج بإخراج كل من جاء إلى البصرة والمدن الأخرى وإعادته إلى قريته، وتم فعلاً إخراج الناس من المدن عنوة وكانوا يبكون ويقولون وامحمداه وكان أهل البصرة يبكون معهم، مما حدا بابن الأشعث للثورة ضد الحجّاج وانضم إليه الناس، وعندما دخل ابن الأشعث البصرة بايعه الشيوخ على حرب الحجّاج وخَلع عبد الملك.

في عام (86هـ) وبالتحديد في بداية ولاية الوليد بن عبد الملك، نصَّب الحجاج قتُيبة بن مُسلم الباهلي على ولاية خراسان، وفاق من سبقه من العمال العرب بالمظالم والعدوان والجور ونقض للمواثيق، ووصل تعديه على أصحاب الأديان الأخرى وتدمير المعابد وإجبار الناس على اعتناق الإسلام إلى حدٍ ليس له نظير من

قبله ولا بعده. هاجم قتيبة عام (87هـ) مدينة بيكند وهي من مدن بخارى وترك فيها عدداً كبيراً من القتلى والجرحى، ثم نقض أهل المدينة بعد ذلك العهد مرة ثانية، مما اضطره إلى احتلال المدينة بالقوة واستولى على الأصنام وخزائن الذهب والفضة وأمر بصهرها، ثم أمر الحجّاج قتيبة بالتوجه لحرب أهل كش ونخشب وتدميرهما، وعندما دخل المدينة لم يتعامل بشروط الصلح وأسكن المسلمين عنوة فيها، ودمرّ المعابد واستولى على الحليّ فيها، وأحرق ما تبقى منها. كان الإيرانيون يُكيلون له الشتائم لأنه غدر بأهل خوارزم وسمرقند. وصل نفوذ العرب في عهد قتيبة إلى ما وراء النهر وأصبحت الطرق آمنه واستقر المهاجرون العرب في بلاد ما وراء النهر وانخرط الإيرانيون في مختلف الأعمال، وكان قُتيبة مديناً للإيرانيين في ما حقق من انتصارات، ثم شكل جيشاً منهم بلغ عديده سبعة آلاف مقاتل بقيادة حيّان الإيراني، وارتفع في هذا العهد مبلغ الخراج في الولايات الإيرانية، وكان الحَجّاج يعزل العمال دائماً لأن أموال الخراج كانت غير كافية بالنسبة له، وكان الولاة الإيرانيون يجمعون له كل ما استطاعوا من خراج، وقد شاهدنا وسمعنا بالعديد من العمال الذين أصبحوا أثرياء، وأحياناً كان الوالي الجديد يعذب سلفهُ ويأخذ منه كل ما يستطيع أخذه. إن الأموال التي حصل عليها عبيد الله بن زياد من خراسان وما وراء النهر، وما جمعه سعيد بن عثمان خلال عدة أشهر في هذه الولاية يُجسد لنا كيفية تعامل العمال الأوائل في ذلك العصر. استولى محمد بن قاسم عامل الحجاج بن يوسف في مولتان على أربعين قطعة ذهب من أحد المعابد، وعندما منح قتيبة الأمان لأهل بيكند، ولى عليهم ورقاء بن النصر الباهلي (في مدينة بيكند كان هناك رجلٌ لديه ابنتان جميلتان، أخرجهما ورقاء بن نصر من دار الرجل، قال له الرجل إن مدينة بيكند كبيره، فلماذا تأخذ ابنتيّ فقط، لم يجبه ورقاء، لكن الرجل استل سكيناً وغرسها في بطنه، لكنه لم يمت، وعندما وصل الخبر إلى قتيبة عاد وقتل كل شخص يستطيع حمل السلاح في بيكند، واستبعد من تبقى وتم تدمير المدينة... وعندما فتحها قتيبة عثر في أحد المعابد على صنم من الفضة وزنه أربعة آلاف درهم، واستولى عليه...).

يقول محمد بن جعفر مؤلف تأريخ بخارى: (في كل مرة يستسلم أهل بخارى، ولكن عند خروج العرب كانوا يرتدون، وأدخلهم قتيبة إلى الإسلام ثلاث مرات، ولكنهم ارتدوا إلى الكفر، في المرة الرابعة حاربهم قتيبة واحتل المدينة وبعد التعذيب أعلنوا الإسلام وقبلوه بشتى الطرق، ولكن ظاهرياً لأنهم في الباطن يعبدون

الأصنام. وجد قتيبة من الصواب أن يأمر أهل بخارى كي يعطوا نصف منازلهم للعرب ليسكنوا معهم، ويعرفوا أخبارهم، ويكون إسلامهم علناً وتُفرض عليهم أحكام الشريعة ثم شيّد المساجد، وأزال آثار الكفر وكان يعاقب كل من يقصّر في أحكام الشريعة، وأمر الناس بأداء صلاة الجمعة. بنى قتيبة بن مسلم المسجد الجامع داخل أسوار بخارى عام (94هـ) على أطلال أحد المعابد، وأمر أهل بخارى بالتجمّع فيه يوم الجمعة، وأمر المنادي ليعلن أن كل شخص يأتي إلى صلاة الجمعة يُعطي له درهمين. كان أهل بخارى في بداية الأمر يقرأون القرآن بالفارسية، لأنهم لم يتعلموا العربية، وكان الفقراء يذهبون إلى المسجد للحصول على الدرهمين عكس الأغنياء، في أحد أيام الجمع ذهب المسلمون إلى المحلات لدعوة الناس لصلاة الجمعة، لكنهم تعرضوا للرجم بالحجر من فوق المحلات، ووقعت معركة تمكن المسلمون فيها من كسر أبواب المحلات وجلبوا أهلها وعلقوهم على الأبواب كالأصنام).

رغم ما ورد في الفقرات أعلاه حول رغبة قتيبة في إدخال الناس إلى الإسلام لكننا نعتقد أن هذا الوالي ومعاصريه كانوا يفتقرون للرغبة الحقيقية في نشر الإسلام، بل كان همهم الوحيد جمع المال والحروب والغنائم، ولو كان تفكيرهم ازدهار الإسلام فعلاً، لكانوا قد هيئوا السبيل لذلك ومنها اكتفائهم بالخراج لأننا سنشاهد أنهم كرروا الأمر، ولكنهم تراجعوا بسرعة عنه، نلاحظ هنا أمراً عجيباً لدى العمال العرب ومنهم قتيبة وهو أنهم كانوا يريدون من الناس أن يدخلوا الإسلام وفي المقابل يستعملون مال الجزية الذي يدفعه الناس لتخريب معابدهم وبناء المساجد فوقها. يقول أبو الريحان البيروني عن أعمال قتيبة بن مسلم في مدينة خوارزم: (فتح قتيبة بن مسلم خوارزم مرة ثانية بعد أن ارتد أهلها، وولى عليهم ﴿اسكيجموك﴾، وكان قتيبة يقتل كل شخص يعرف الخط الخوارزمي ويعرف ماضيه وأحواله وعلومه، وفرّقهم في أقطار الأرض لذلك بقيت أخبارهم غير معروفة إلى حد ما ولا يُعرف شيء عنهم بعد الإسلام). ويضيف: (عندما قَتَل قتيبه بن مسلم كُتّابهم ﴿يعني كتّاب خوارزم﴾ وكذلك قادتهم الدينيين وحرق كتبهم، بقي أهل خوارزم أميين، واعتمدوا على ذاكرتهم فيما كانوا يحتاجون إليه، ونسوا بمرور الوقت جزئيات لغتهم وبقي في أذهانهم ما اتُفق عليه). وفعلوا ذات الشيء في عصر عبد الملك وقائده الحجّاج، ومحوا آثار نفوذ الأجانب.

سك عبد الملك العملة العربية الخالصة، وأوقف العمل بالعملة الرومية والإيرانية في العراق، علماً أن الديوان في العراق وخاصة ديوان العائدات كان يُكتب بالفارسية، وفي الشام باليونانية، وعندما تولى الحجّاج أمر العراق، كان كاتبه أبا الوليد صالح بن عبد الرحمن السجستاني مولى بني تميم وكان يرتب الديوان الفارسي زادان فروخ الأعور، وكان بدوره كاتباً للحجاج أيضاً، ولجأ إلى البصرة في فتنة ابن الأشعث، ولكنه قُتل على يد أحد أصحاب ابن الأشعث، ونصّب الحجّاج مردانشاه ابن زادان خلفاً له. طلب الحجّاج من صالح أن ينقل الديوان إلى العربية، لكن الإيرانيين منحوه 100 ألف درهم كي لا يفعل ذلك، لكنه رفض ونقله إلى العربية، وتم ذلك عام (78هـ). كان سرجون بن منصور النصراني صاحب ديوان الشام في عهد عبد الملك بن مروان، وقد نقله إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد الخشني. كان لتغيير الديوان من الفارسية إلى العربية نتيجة وخيمة على مستقبل اللغة الفارسية ونفوذ الفرس في الإدارات، والنتيجة الأخرى والتي لا ترقى إلى الأولى كانت حرمان الإيرانيين باعتبارهم كتاباً من العمل في الولايات في دواوين الحساب والخراج التي كانت مرتّبة بالفارسية، لكن نقل الحسابات ودفاتر الدولة إلى العربية في العراق، لم ينتشر إلى بقية المناطق بسرعة، أما في عهد نصر بن يسار فقد كان أغلب الكتاب في خراسان من الزرادشتيين ويرتبون الدواوين بالفارسية في الوقت الذي يفتقر فيه العرب للدراية الكافية في ترتيب الدواوين. بعث يوسف بن عمرعامل العراق في عام (124هـ) رسالة إلى نصر بن سيار وأمره فيها أن لا يستعين بأيّ من المشركين في الأعمال الإدارية والكتابية. يُذكر أن أول من نقل الكتابة من الفارسية إلى العربية في خراسان كان اسحق بن طُليق من بني نهشل ومن خواص نصر بن سيار، خفّت وطأة الضغط على الإيرانيين بعد وفاة الحجّاج وقتيبة ولكنها لم تنته نهائياً.

ولى سليمان بن عبد الملك في عام (97هـ) يزيد بن المهلب على خراسان والذي وجد مصدراً جديداً للحصول على الأموال بعد أن كانت هناك مشكلة في الحصول عليها في العراق وخراسان بعد مظالم الحجّاج وقتيبة، وقصد جرجان وطبرستان لفتحهما. وصل إلى جرجان عام (98هـ) على رأس جيش كبير، وسبق لهذه الولاية أن أعلنت الصلح مع سعيد بن العاص، ولكنهم كانوا يدفعون الخراج ويمتنعون تارة أخرى، ولم يتمكن أي شخص حتى زمن قتيبة من سلوك طريق جرجان إلى خراسان. فتح يزيد أول قرية واستولى على كنوزها وأسر وقتل عدداً كبيراً ثم دخل

بعد ذلك طبرستان، مَدَّ الاصبهبد فرُخان يدّ الصلح وقبل أن يدفع أكثر مما أخذوه منه، ولكن يزيد رفض ذلك. وعاد وقبل الصلح معه لأن أهل جرجان قد ثاروا وخشى يزيد من أن يغلقوا المضايق والطرق بوجهه، وكان ثمن الصلح 700 الف درهم ومتاع كثير، بعد ذلك ثار أهل جرجان على عامل يزيد وقتلوه غُفلةً مع أربعة آلاف من أعوانه، عاهد يزيد الله إذا انتصر على جرجان سيسفك دماء أهلها بحيث تدور الطواحين به، ويستخرج منها الخبز ويأكله، بعد ذلك حاصر الثوار هناك ثمانية أشهر وانتصر عليهم ونفذ وعده، يقال إنه جمع من هذه الحرب 20 مليوناً أو30 مليون درهم.

في صفر عام (99هـ) تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز واستمر فيها حتى رجب عام (101هـ)، صحيح أنه كان يفتقر إلى صواب الرأي في السياسة، لكنه استطاع بالورع والتقوى ومراعاة الشريعة الإسلامية وبمدة قصيرة جمع شتات المدن والنواحي الإيرانية التي كانت يديرها العرب ونشر العدل والاستقرار فيها، عندما عرف عمر أن عدة آلاف من أهل الذِّمة قد دخلوا الإسلام في خراسان وأُجبروا على دفع الجزية، كتب إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمي بعدم أخذ الجزية من كل شخص يُصلي، وفعل الجراح ذلك وأسلم العديد نتيجة ذلك. قال بعض الأشخاص الذين كانوا منتفعين من هذه الأموال للجراح، إن الناس صاروا مسلمين للتخلص من الجزية، وعليك أن تراهم هل ختنوا أم لا، كتب الجراح بذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فأجابه الخليفة: (إن الله أرسل محمداً للدعوة وليس للختان)، وعزل على أثر ذلك الجراح وكان العامل الوحيد الذي لم يكن لديه ثروة ولا مال، لكنه كان يتعامل بعصبية في خراسان، وكان يكاتب عمر دائماً ويقول له إن أهل خراسان لن يستقروا إلا بالسيف والسوط، لكن عمر وبَّخهُ على ذلك وأوصاه بالمعاملة الحسنة، وكتب إلى عبد الرحمن بن نعُيم الذي تولى خراسان بعد الجراح وأوصاه أن لا يُخرب كنيسة، أو معبداً، أو بيعة عقدنا الصلح عليها، وفي المقابل لا تُبنى كنيسة، أو معبداً جديداً. سعى عمال خراسان بعد وفاة عمر لسد النقص في الميزانية السابقة ومضاعفة الخراج، لكن نوايا عمر لم تترجم عملياً لقصر مدة خلافته وعدم رغبة أعوانه بذلك، لكنه أزال موانع نشر الإسلام وإقرار المساواة بين المسلمين العرب وغير العرب ومصلحة السلالة الأموية والحاجة إلى الإصلاح، ولكن الفرصة لم تُتح له، وكان لخلافته القصيرة نتائج كثيرة وخاصة على الأحداث التي وقعت بعد وفاته، ويُشار إلى أن تسامحه وحسن سلوكه وميله

للعمل وفق التعاليم الإسلامية جعل الناس ينتبهون إلى عيوب وتخطيات عدد من أسلافه الخلفاء، كما أن تعامله مع العلويين جعلهم يفكرون بالخلافة وعلى هذا فقد دوّن المؤرخون شروع الدعوة العباسية منذ السنة الثانية لتوليه الخلافة. يُستنتج من إحدى فقرات كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (المتوفى عام 270هـ)، أنَ عمر بن عبد العزيز لم يكن مجبراً على اختيار خليفة من بني أمية، لكنه كان يريد أن ينتخب خليفة من أفضل الناس سواء كان من العائلة الأموية، أو من عائلة بني مناف، أو من عائلة هاشم، أو من تيم وعدي، ويُثبت هذا الأمر عدم تصلبه مع الأسرة العلوية، مثلما منع لعنهم ومنحهم الفرصة للدعوة، وكان أغلب الناس يقولون إنه المهدي. في عام (109هـ) ولى هشامُ بن عبد الملك (105-125هـ) الأشرسَ بن عبد الله السُلمي على خراسان، وكان الناس فيها يُكبِّرون لقدومه. دعا في عام (110هـ) أهل الذمة في سمرقند وما وراء النهر إلى الإسلام بشرط إعفائهم من الجزية، وجعل على هذا الأمر أبا الصيداء مع عدد من المترجمين الفرس. توجهوا إلى سمرقند و دعوا الناس هناك إلى الإسلام. كتب غورك إخشيد السُغدي والدهاقنة (الذين كانوا يميلون إلى المحافظة على شرفيتهم ورفض دخول أتباعهم الدين الإسلامي والمساواة بين الجميع)، كتبوا إلى الأشرس طالبين منه تخفيف الجزية وإبلاغه أن الناس أظهروا إسلامهم للتخلص من دفعها، كتب الأشرس بدوره بذلك إلى عامله في سمرقند وأمره أن لا يأخذ الجزية من كل من ختن نفسه ويؤدي الفرائض ويقرأ سورة من القرآن، فأجابه عامله قائلاً إن الناس أسلموا وعمروا المساجد ويجب ألا تؤخذ الجزية منهم، ولكن الأشرس كتب لعامله نتيجة إصرار الدهاقين. مؤكداً أخذ الجزية من حديثي الإسلام. امتنع أهل السغد من دفع الجزية، وثاروا عليه. رفَضَ أبو الصيداء الذي كُلف بنشر الدعوة الإسلامية أسلوب الأشرس والتحق بالرافضين، لكن العمال تعاملوا بقسوة معهم لأخذ الجزية، وضيقوا الخناق على الإيرانيين، لذلك عمّت الفوضىّ وطلب السغديون العون من التركان الذين هبوا لنجدتهم يقودهم خسرو ابن فيروز بن يزدجرد، وفي عام (110هـ) بقيت سمرقند ودبوسيه فقط بيد العرب. في عام (111هـ) عاد العرب واحتلوا بخارى وتم عزل الأشرس من ولاية خراسان وخلفة جنيد بن عبد الرحمن المَرنيّ. وفي عام (112هـ) وقعت معارك عنيفة بين العرب وخاقان الترك. أنضم غورك إخشيد السغُدي إلى الخاقان وهزم مجموعة من جيش والي العرب وبقيت كل بلاد السغد بيد التركان

سوى بعض مدن سمرقند وبخارى، لكن الأوضاع عادت إلى طبيعتها بعد عام. في عام (115هـ) أعلن حارث بن سريج العصيان ودعى لكتاب الله وسنة رسوله ووعد باحترام المواثيق مع أهل الذّمة ولم يأخذ الجزية، التف حوله عدد من الإيرانيين حديثي الإسلام وأهل الذمة، وكان أغلب مرافقيه وأعوانه من الإيرانيين، سيطر حارث على قسم كبير من خراسان. في عام (117هـ) عزل الخليفة عاصماً وجاء أسد بن عبد الله مرة أخرى إلى خراسان وحارب عدة مرات عاصماً ومن معه.

في هذا الوقت نحت حركة الحارث المنحى السياسي المعادي للسلالة الأموية، لأن أتباعه يعادون الأمويين، انتصر أسد على حارث وتوجه إلى طخارستان والتحق بخاقان الترك، عندها توجه أسد لمحاربتهم وانتصر عليهم، تحرّك التركان إلى أشروسنة، لكن الخاقان قُتل بعد مدة على يد كور صول، بقي الحارث يحارب مع الولاة حتى عام (120 هـ)، وفتح بذلك الطريق لأبي مسلم الخرساني ومعارضي بني أمية. توفي أسد عام (120هـ) وخلفه نصر، (ذكروا أنه كان رجلاً فاضلاً وتعاطف مع العوائل القديمة ذات المنزلة الاجتماعية وأحسن للأصلاء من العرب والعجم). وصل قبله إلى مرو سامان خدات جدّ السامانيين وأكرمه أسد مما جعل سامان يعتنق الإسلام على يده، وعندما أنجب ولداً أسماه أسداً، واختار في تخارستان مدينة لوالي خراسان يحبها الناس خاصة أن مهمة الإشراف على البناء أنيطت ببرمك رئيس رجال دين المعبد القديم فيها، كان أسد ينشدُ من وراء ذلك هدفاً آخر ألا وهو الوصول إلى مركز الفوضى شرق خراسان.

كان نصر بن سيار يؤكد على ضرورة الاتفاق مع الأقوام المحلية أكثر من أسد بن عبد الله، لأنه كان في بداية الأمر والياً على عرب ما وراء النهر ويدرك جيداً أن الدولة في حاجة إلى حماية الطبقة الثالثة وطبقة الفلاحين لأهميتها بالنسبة للممالك الإسلامية، لكن هذا الأسلوب كان يُضعف دائماً قدرة الأرباب المحليين رغم نتائجه الإيجابية في استتباب الصلح والاستقرار في ما وراء النهر وسيطرة النفوذ العربي ومحبة الطبقة الدنيا لأسد.

عُمرت خراسان في عهد نصر، وتم إصلاح أسلوب جباية الضرائب، وعُرف من خلال الخطبة التي ألقاها نصر بعد عودته من حرب ما وراء النهر، أن عدداً كثيراً من الإيرانيين في خراسان لازالوا على دينهم القديم ولم يدفعوا الجزية ولكن الجزية فُرضت بعد ذلك كخراج ويقال إن هذا العمل تم في ولاية مسلم بن

سعيد(105هـ) بعد أن أصبح بهرام سيس مرزباناً بعد أن كان حامياً للمزدائيين ورفع عنهم الجزية، وأصلح نصر الأوضاع لحماية المسلمين وقسّم مبلغ خراج ثلاثين ألف مسلم على ثمانين ألفاً من غير المسلمين الذين أُعفوا من الجزية.

في عام (123هـ) دعا نصر السغديين للعودة لديارهم بعد أن لجئوا إلى ملك التركان ولبى مقترحاتهم وقرر عدم عودتهم إلى دينهم القديم لعدم رغبتهم في الصلح وكرر طلبه منهم قبيل هجرتهم، استغل دعاة الدعوة العباسية هذا الظرف لنشر دعوتهم وكسب الناس لصالح الهاشميين هذا من جانب، ومن جانب آخر أدت الحرب بين القبائل العربية في الولايات إلى إضعاف دولة الأمويين.

كانت عاقبة خليفة المسلمين القتل على يدَ الثوار بعد أن قضى أوقاته في اللعب ومعاقرة الخمر، وتسبب مقتله في اضطراب الأوضاع. التف الشيعة في العراق عام (126هـ) حول عبد الله بن معاوية، ووقعت حرب بينه وبين عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل العراق (137هـ)، وانهزم عبد الله بن معاوية فيها، ثم توجه إلى إيران، بعد ذلك تمرْد الخوارج في العراق وبعض الولايات الإيرانية مثل سيستان، وعلى أثر ذلك بعث إبراهيم بن محمد الإمام عام (128هـ) أبا مسلم إلى خراسان ومنحه صلاحية الدعوة. هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم، يقول عنه حمزة الأصفهاني: (إن والده كان يسمى قبل إسلامه ونداد هرمزد، وكان اسم أبا مسلم بهزادان، ثم غيّر اسمه إلى إبراهيم بن محمد الإمام واشتهر بعبد الرحمن، كان من أهل أصفهان من قرية في رستاق فاتق قرب كرج (كان رجلاً قصيراً، أسمراً ذا جبين عريض وشَعَر طويل قصير الساق طويل الظهر فصيح اللفظ ويقول الشعر بالعربية والفارسية، وكان جاداً ولا يضحك، ولا يفرح لانتصاره في الحرب ولا يبدو عليه الحزن عند اندحاره، سلاحه السيف دائماً ولا يرحم أحداً عند العقوبة من القريب أو البعيد ...). كان يخدم في أسرة العجليين ثم التحق بإبراهيم الإمام الذي أرسله إلى خراسان عام (128هـ) وكانت أوامره له أن لا يُبقي على أي عربي ويعدم كل من يتحدث بلغتهم، لذلك اعتمد على الإيرانيين وأهل خراسان وكانوا يطلقون على أبي مسلم أمير آل محمد. كسب أبو مسلم الدهاقين والمزارعين، وترك أغلب الدهاقنة في عصره الدين المزدائي واعتنقوا الإسلام أملاً في وعود الدعاة بالعدل ودفع الظلم، أو إنهاء حكم الأمويين. يبدو أن الفِرَق المعادية للمزدائية كانت تسانده، ومنهم أصحاب المذهب الخرميّ.

رفع أبو مسلم علم الثورة أواخر رمضان (129هـ) في قرية سفيدنج من توابع مرو، وأعلن انقراض السلالة الأموية وتأسيس الدولة الهاشمية، شعرت القبائل العربية بالخطر وتركت الخلافات مؤقتاً واتحدت لصد العباسيين، نصّبوا مقاتل بن حيان الإيراني قائداً لأنهم لم يريدوا أن يكون الرئيس من بينهم، لكن الأمر جاء متأخراً ولم يُصلح شيئاً. في عام (130هـ) اضطر نصر بن سيار لترك خراسان لكنه توفي في ساوه عام (131هـ)، وفي عام (132هـ) اشتبك جيش خراسان بقيادة قحطبة مع جيش الأمويين في كربلاء، وانتصر على الأمويين وبايعوا أبا العباس عبد الله بن محمد في الكوفة. اندحر جيش الخليفة الأموي الآخر قرب الزاب الصغير من قبل جيش قحطبة. وأخيراً اندحر الخليفة شخصياً قرب الزاب الكبير مقابل جيش الخراسانيين وأصبح انقراض الدولة الأموية محسوماً في هذه المعركة (12 جمادى الآخر 132هـ).

عموماً يمكن القول إن الحكومة الأموية كانت بالنسبة للإيرانيين حكومة ظلم واستبداد واحتقار منذ أن فتح العرب إيران حتى ظهور الدويلات المستقلة (132-140 هـ)، مثلما شاهدنا سابقاً فإن عدداً من الإيرانيين وخاصة في العراق دخلوا الإسلام وكانوا يأملون من وراء ذلك إصلاح أحوالهم الاجتماعية والمساواة مع العرب، وكان السبب وراء هذا التفكير عدالة الخلفاء الراشدين، لكن الأوضاع تغيرت بسرعة، وظهرت مرة أخرى العادات والتقاليد والأفكار التي كانت موجودة لدى القبائل العربية قبل ظهور الإسلام، وكانت الفجوة تزداد بين الإيرانيين الذين استسلموا حديثاً وبين العرب، والمصلحة المادية لا تفرض على المسلمين الجدد دفع الجزية، ولم يكن قبول الإسلام في هذه الفترة أسرع من السنوات الأولى للفتح، كما أن الأمر الذي قلل من سرعة انتشار الإسلام بين الطبقة الثالثة كان معارضة الدهاقنة الذين كانوا أشراف الدرجة الثانية، وكانت هذه الطبقة في العصر الساساني أسياد القرى وورثوا حكمها وإدارتها وكانوا يُمثلون الدولة أمام الفلاحين (واجبهم الأساسي جمع الضرائب من خلال معرفتهم بالناس والمنطقة، وبما أن المملكة كانت قليلة الإنتاج فكان لزاماً عليهم تحمل نفقات البلاط والحروب المكلفة، أما بعد الفتح العربي فلم يتمكن الفاتحون رغم قوتهم من جباية الأموال من الإيرانيين مثلما فعل الساسانيون إلا بالاتحاد مع الدهاقين).

اعتنق الدهاقنة الإسلام منذ بداية الفتح العربي للحفاظ على نفوذهم في

المناطق التي يقطنوها والدفاع عن مصالحهم ومكانتهم الاجتماعية،لذلك اتحدوا مع الولاة والأثرياء العرب، واخذوا على عاتقهم مهمة جباية الخراج لصالح أصحاب النفوذ والولاة العرب وكانت مصلحة العرب في ذلك تحميلهم المسؤولية أمام الدولة، خاصة أن العرب لم يخبروا سابقاً الزراعة. لذلك حظي الدهاقنة بمنزلة مرموقة وثروة ونفوذاً وأصبحوا واسطة بين العمال العرب والفلاحين. لقد أدى إسلام هذه الطبقة إلى تقليص قوة الدهاقنة ونفوذهم وسلطاتهم المادية لكون الدين الإسلامي أصلاً له جوانب مساواة وديمقراطية، لذلك لم يجد الدهاقنة مصلحة في إسلام الطبقة الثالثة وحالوا دون ذلك صراحةً، أن ما أورده النرشخي في كتابه يؤيد ذلك حيث يقول: (في أيام أسد بن عبد الله القصري خرج رجل ودعى أهل بخارى إلى الإيمان وكان أغلبهم من أهل الذمة ويدفعون الجزية واستجابوا واسلموا، وغلبوا ملك بخارى الذي يدعى طغشاره لأنه كان في السر كافراً، كتب أسد بن عبد الله رسالةً لوالي خراسان يخبره فيها أن رجلاً قد ظهر في بخارى وألب الولاية ضدنا ويقول أهلها إننا جئنا بالإسلام ولكنهم يكذبون، أسلموا باللسان فقط ولكن قلوبهم مشغولة بشؤونهم الخاصة، لذلك لا يدفعون الخراج، عندها كتب أسد بن عبد الله رسالة إلى عامله شريك بن حُريث وأمره أن يمسك أولاد القوم ويسلمهم إلى ملك بخارى لكي يفعل بهم ما يشاء.

روي أن أولئك القوم كانوا في المسجد وكانوا يقولون بصوت عال لا إله إلا الله ونشهد أن محمداً عبده ورسوله وكانوا ينادون وا محمداه وا محمداه ولم تنفع شفاعتهم حتى قُطع عنق أربعمائة منهم ومابقي حملوهم عبيداً إلى أسد في خراسان.

لم يتشدّد الخلفاء الأمويون في الأمور الدينية ويُشهد لمعاوية حسن معاملته المسيحيين. وكلنا يعرف منزلة الشاعر المسيحي الأخطل في بلاطه، كان حكمه مبنياً على سياسة حكيمة واحترام حقيقي، ولم يكن الولاة والأثرياء التابعون للخليفة أبرياء من مثل هذه الأعمال، ومن البديهي أن يؤثر أصحاب الديانات الأخرى على الاستقرار والأمن وظهور الحركات ونشوب الثورات، وفي النتيجة زاد هذا الأمر من غضب وحنق العرب. لم يكن الإيرانيون زعماء لحركات الخوارج وحركة المختار وفتنة عبد الرحمن الأشعث، لكنهم أذكوا نيرانها وكان لهم الدور المؤثر فيها، ولم يكن لتلك الحركات نتيجة مباشرة ولكن مهدت الطريق لانقراض

الدولة الأموية وتأسيس السلالة العباسية وهي سلالة (شرقية خراسانية).

لم يكن الوضع الديني في هذا العصر على وتيرة واحدة في جميع الولايات الإيرانية، لذلك نجد أن الإسلام انتشر في بعض الولايات أكثر من غيرها، كالولايات الغربية والوسطى من إيران مثل أذربيجان وكردستان وخوزستان، وفي المقابل لم يكن قوياً في ولايات فارس التي كانت مقراً لحفظ الروايات الدينية ورسوم وآداب الإيرانيين المزدائيين، وكان للإسلام رونقه في كرمان إضافة إلى كثرة الخوارج فيها وكذلك في سيستان التي تعتبر من المناطق التي حفظت الروايات الإيرانية القديمة، كان الإسلام قوياً في خراسان ولكن في المقابل كان الدين المزدائي والبوذي ينافس الإسلام في القسم الشمالي منها وفي ما وراء النهر، أما الوضع في الولايات المجاورة لبحر قزوين فكان صعباً بسبب الوضع الجغرافي ووعورة جبالها وكثافة غاباتها ووجود المضائق التي كان يصعب على العرب عبورها ولم يتعودوا القتال فيها، وبقيت خارج السيطرة لمدة طويلة، وعلى أثر ذلك لم ينتشر الإسلام والرسوم والآداب العربية فيها.

بقي الأصبهبد في طبرستان وحكام الديلم على الدين الزرادشتي ويتمتعون بالاستقلال، انتشر الإسلام في الولايات الإيرانية بين سكنة المدن، وقال فيها الخليفة المنصور في إحدى خطبه: (يا أهل خراسان ! أنتم أتباعنا وأعواننا و دعاتنا، فلو كنتم قد بايعتم الآخرين فلم تكونوا أفضل منا... بعيداً عن بلادكم أحياناً كنا في الطائف وأحياناً في الشام وأحياناً في شراة إلى أن جعلكم الله أعواننا وأتباعنا وانتصر شرفنا وعزتنا بفضلكم، ودفع أهل خراسان أهل الباطل ونشروا حقنا وأعادوا لنا دولتنا وميراث رسولنا).

لقد كان استقرار هذه الدولة بالنسبة للإيرانيين بداية عصر جديد أطلقنا عليه الفترة الثالثة لحكم العرب، والذي تحسّن فيه الوضع الاجتماعي للإيرانيين، لأن أول خليفة عباسي اعترف بجهودهم في تأسيس هذه الدولة ووجد نفسه في حاجة إليها لتعزيز أساس دولته، وعمل على تقريبهم وتكريمهم، لذلك قلّ تحقير العرب للمغلوبين، وتغلغل الإيرانيون في بلاط الخليفة، وأصبح ممكناً أن يقود الجيش قادة من الأجانب وكان الولاة يُنتخبون من الإيرانيين والعرب على حد سواء، وأصبحت التشكيلات الديوانية والبلاط العباسي شبيهاً لنظيره الساساني، وصار بعض القضاة والكتاب والندماء والحجاب من الإيرانيين، ودخل البلاط

العباسي الفنانون الإيرانيون في الموسيقى والشعر والغناء، واهتم الخلفاء بالمنجمين والأطباء الإيرانيين وازداد عدد المؤرخين والنحويين ورواة الحديث منهم حتى أن أوائل الخلفاء العباسيين تشبّهوا بالإيرانيين في الملابس.

كانت هناك جماعة في العصر الأموي من الموالي والمسلمين الحقيقيين المعروفين بالشعوبية تؤيد المساواة بين المسلمين انطلاقاً من آيات القرآن والحديث وأعمال الخلفاء الراشدين (عدا عثمان)، لكن افتقروا إلى الحرية لنشر عقيدتهم، فمثلاً نفى هشام بن عبد الملك، إسماعيل بن يسار السنائي المتوفى عام (101هـ) إلى الحجاز بسبب الشعر الذي ألقاهُ في مدح أجداده. تعزّز دور تلك الجماعة بعد إقامة الدولة العباسية، وكان أغلبهم يؤمن بترجيح كفة العنصر والأدب والثقافة الإيرانية وثقافة الأقوام الأخرى سوى العرب، وكان لذلك جوانب سياسية واجتماعية ودينية، نتيجة لذلك فإن بعض الأمم فُضلت على العرب ومنهم الإيرانيون، شرع هؤلاء القوم في ذكر مثالب العرب ونشر أخبار ضدهم، ولكن التعصب المذكور لم ينته إلي هذا الحد، وهاجم بعض منهم كل ما يُنسب إلى العرب ومنه الإسلام. وقارنوا القرآن مع الكتب الإيرانية في العهد الساساني وقول الأصمعي في باب البرامكه: (إذا قرأت أمامهم آية من القرآن فإنهم في المقابل يتحدثون عن الميروك). لقد تسبب الهجوم على القرآن والدين الإسلامي في أن يقول الجاحظ إن الذين دخلوا الإسلام أو الذين تركوا هذا الدين، تأثروا بالتعليمات الشعوبية، بداية الأمر ناصبوا العداء للعرب وفي النهاية الدين الإسلامي الذي ظهر بين العرب، لقد شكر الزمخشري الله في مقدمة كتبه لأن طبيعته اختلطت بحب العرب وعُجنت بكره الشعوبية. اعتبر البغدادي الشعوبية أحد الأصناف التي روجت للمذهب الباطني والتي كانت تؤمن بعودة الملكية لإيران.

في أواخر القرن الثالث، بدأ القرامطة في جنوب إيران نشر دعوتهم، ذات الأصل الشعوبي، وكانوا يقولون بما أن العرب قتلوا الحسين بن علي فإن الله لن يلطف بهم، وسيفضل الإيرانيين لأنهم صاروا المدافعين عن الأئمة في الخلافة.

أما صراع الشعوبية مع العرب فيثبت أن العرب لم ينسوا التفكير بالسيادة والأفضلية لأن الإيرانيين شعب مغلوب، ووجدوهم أقل منهم منزلة، الأعجب من ذلك أنه بعد الانتساب إلى العرب لم يكن هؤلاء الأشخاص في مأمن من شر وهجاء العرب، وصدّ الخلفاء العباسيون الأوائل الإيرانيين الذين حصلوا على القوة

والجاه رغم ميلهم إلى الإيرانيين والذين أوصوا أولادهم أن يتعاملوا بالحسنى معهم لكونهم قد بذلوا أموالهم وسفكوا دمائهم من أجلهم، والدليل على ذلك قتل المنصور لأبي مسلم، أو ما قام به هارون الرشيد مع البرامكه الذين قدموا الخدمات الجليلة له، وعزل هؤلاء الخلفاء العنصر الإيراني من الدواوين وأرسلوا العرب إلى الولايات الإيرانية لذلك لم يكن تصرّف هؤلاء الحكام يثير الرضا والقبول. لقد أثبتت الحركات الدينية والسياسية المتلاحقة في الولايات الإيرانية أن القسم الأعظم من الشعب الإيراني كان يعارض التغيير المفروض عليهم من قبل الفاتحين العرب، وسوء المعاملة كان من أسباب عصيان أهل خراسان أواخر حكم هارون الرشيد ومن هذه الحركات الثورات في جمع ولايات ما وراء النهر التي تزامنت مع حركة رافع بن ليث (190هـ) وكانت نتيجة مظالم علي بن عيسى بن ماهان في خراسان الذي فعل كل ما شاء فيها واستخف بالكبار والأشراف وصادر أموالهم وعذبهم متهماً إياهم بالإلحاد والعداء للإسلام، عندما عرف هارون أن أهل خراسان ثاروا بسبب ظلم علي بن عيسى، عزله واستولى على أمواله. الدليل الآخر على ظلم ولاة وعمال الخليفة حركة حمزة بن آذرك الإيراني الذي كانت له عقيدة الخوارج ونصّب نفسه أميراً للمؤمنين عام(181هـ) وسيطر على قسم من خراسان وسجستان وكرمان وفارس وحكم شرق إيران حتى عام (213هـ). كان حمزة بن عبد الله (آذرك) الذي يدعي أن نسبه يعود إلى طهماسب البطل الأسطوري الإيراني، من الخوارج، وأشعل فتيل الحرب عام (183هـ). في هذه الأثناء توجه عيسى لحربه، لكن حمزة جاء إلى سيستان وهاجم خراسان وكرمان وفارس وقتل عمال هذه النواحي، ولكنه لم يحصل على درهم واحد من خراسان وسيستان وكرمان وعلى أثر ذلك جاء هارون شخصياً وكان معه حمزة الذي يرافقه 30 ألف فارس وكان يرسل كل 500 فارس معاً لكنه لم يحرز نصراً، عندها وصل خبر إلى الري يقول لقد خرج جيش من الروم لمحاربة العرب، ورجع هارون إلى بغداد. كان حمزة يرسل مجاميع من جيشه إلى الأطراف وكان يقول لهم لا تتركوا عمال الخليفة يظلمون الضعفاء، وقام شخصياً بمعاملة الناس بالحسنى والعدل في سيستان، وعندما تعزّز موقع حمزة في سيستان، بعث له هارون الرشيد رسالة من جرجان عام (193هـ) دعاه فيها إلى كتاب الله وسنة رسوله والطاعة، ومنحه الأمان بشرط أن يحضر أمامه، كتب حمزة رداً على الرسالة قال فيه إنني

أدعو الناس إلى كتاب الله وحربي مع عمالك ليس رغبة في المُلك ورغبة بالدنيا وحب الجاه، وإنما ثأراً لسفك الدماء وردّ الدين.

وللمثال على الأعمال المشينة لمعن بن زائدة مع مروان بن أبي حفصة، إذ أعطى معن ألف دينار إلى مروان مقابل كل شعر ينشده. يقول مؤلف تاريخ سيستان: (كان هكذا دائماً يأخذ المال عنوة ويعطيه من باب الجود ويَبذّر المال وأساء التدبير ومن ظلمه بايعتهُ مجموعة من الخوارج)، وكابروا لقتله. إلى (عام 152هـ).

إضافة إلى المشاكل التي كانت تحدث في الولايات الإيرانية وكان سببها العمال والولاة كانت هناك عوامل تُشجع على الثورات والطغيان في إيران، ودخل الخلفاء الأمويون في صراعات مع أربع مجاميع معارضة، يعني الخوارج والشيعة والمسلمين الجدد وأهل الذمة. إن قيام الدولة العباسية لم يرض في الحقيقة أية فئة من هذه الفئات بشكل قطعي ونهائي. استمرت حركة الخوارج منذ قيام الدولة العباسية، واعتنق عدد كبير من الإيرانيين هذا المذهب وبخاصة في جنوب وغرب إيران. بعد وفاة حمزة (213هـ) لم تنته سيطرة هذه الطائفة في سيستان والولايات الجنوبية من إيران وحكموا إلى عهد يعقوب ليث الصفاري في سيستان.

فعل العلويون ما فعله العباسيون ومثلما يقول المنصور إنهم تجرءوا وطمعوا بالخلافة، عندما وصل العباسيون إلى الحكم أغفلوا العلويين أو خدعوهم لذلك اعتبرهم العلويون غاصبين لحقهم وبدأ الصراع بين المتنافسين منذ تأسيس الخلافة العباسية. إن بعض الخلفاء العباسين مثل المنصور لم يتأخروا في الإساءة إلى العلوين وظلمهم. وفعل الأشخاص الذين كانوا غاضبين من العباسين و ولاتهم وعمالهم كل ما يؤدي لراحتهم وسعادتهم، ودعوا الناس لنصرة خلافة أولاد علي (ع)، أما المجموعة الثانية التي كانت تعاني من حكم العرب بدأت معارضتها لهم وللدولة العباسية. إن الإيرانيين الذين كانوا مقربين من بلاط الخلفاء العباسين كانوا من الطبقة الأولى والثانية، أما أحوال الطبقة الثالثة فلم يحدث إي تغيير فيها وخاصة الذين لم يعتنقوا الإسلام، إن الحركات الدينية التي سنناقشها بعد ذلك، وقعت من قبل هذه الطبقة المحرومة لذلك كان انتشار الدين الإسلامي بين هذه الطبقة محدوداً لأسباب نفسية واجتماعية مثلما شاهدنا ذلك سابقاً لأن الناس في الولايات الساحلية لبحر الخزر(خاصة طبرستان وجيلان وديلمان) كانوا على المذهب الزرادشتي وخاصة الأصبهبدان وحكام هذه البلاد، وامتنع أصبهبد مازندران من دفع مال الصلح في

زمن مروان بن محمد لذلك أرسل أبو العباس عامله إلى طبرستان مما اضطر الأصبهبد لتجديد العهد والولاء ولكن هذا الحال لم يُكتب له الدوام.

في عام (137 هـ) تم تبادل الرسائل بين الخليفة والأصبهبد خورشيد ابن داذ بزرمهر من الأسرة الدابوية بخصوص أموال أبي مسلم، وقد أدى ذلك إلى نشوب الخلاف بينهما، وعندما ثار عبد الجبار بن عبد الرحمن والي خراسان على الخليفة (عام 141هـ) اغتنم الأصبهبد الفرصة ونقض العهد وأمر بقتل المسلمين في بلاده وعندما سمع أبو جعفر بذلك كتب رسالة إلى المهدي الذي كان في الريّ لكي يرسل جيشاً إلى طبرستان على رأسه خازم بن خزيمة التميمي وروح بن خاتم المهلبي ومرزوق أبو الخصيب، حارب هؤلاء الأصبهبد لمدة ولكنهم لم يحرزوا نصراً، مما اضطر الخليفة لإرسال عمر بن العلاء الذي يعرف المنطقة جيداً. وصل عمر إلى آمُل وحارب مرزبانها وقتله، وبما أن الأصبهبد كان قد عامل النجباء معاملة سيئة آخر أيام حكمه فقد هيئوا السبل لتقدم المسلمين انتقاماً منه مما أضطر الأصبهبد لجمع ماله ومقربيه في قلعة طاق وتوجه هو إلى جيلان لكي يستعين بأهلها، ولكن المسلمين فتحوا القلعة بالخديعة وقتلوا كل من فيها وأسرو الأطفال، عندما سمع الأصبهبد ذلك إنتحر بالسُم وتم فَتح طبرستان لأول مرة عام (143هـ).

كان أبو الخصيب مرزوق أول والي على طبرستان، وأصبح أهل آمل على المذهب المالكي إلى أن جاء عهد الراعي الكبير وانضموا إلى المذهب الشيعي، واعتنقت جماعة من ساري الدين الإسلامي وبنوا أول مسجداً هناك ُسمي مسجد ساري. ورغم ذلك لم يكن المسلمون في مأمن في طبرستان إلى أن تولى الحكم فيها خازم بن خزيمه، وشيَّد المراصد (143-144هـ)، لكن روح بن حاتم (144-145هـ) حلّ محله لكنه اتسم بالظلم. وفي حدود عام (160 هـ) اشتكى سكان (اوميدواره كوه) ظلم وتعدي عمال الخليفة إلى ونداد هرمز ووعدوه بالوقوف إلى جانبه إذا ثار ضد عامل الخليفة، بعد أن تشاور في الأمر مع الأصبهبد شروين ملك الجبال واستطلع رأي المغان ولاش (المقيم في دورود)، حدد يوماً للثورة وبلّغ جميع النواحي، ثار في هذا اليوم أهل طبرستان على العرب وقتلوهم جميعاً مع والي الخليفة وكل من استسلم منهم، واتفق أهل طبرستان على أن تقوم النساء اللواتي تزوجن من عرب بإخراج أزواجهن من لحاهم ويقتلوهم بحيث لا يبقى أي عربي ومسلم في طبرستان. عندما سمع خالد البرمكي ومرافقوه هذه الأخبار أرسلوا مبعوثاً إلى

بغداد يُطلع الخليفة على الأمر، بعث الخليفة بدوره عدداً من القواد والجيوش إلى طبرستان حتى عام (167هـ)، وقُتل بعضهم واندحر البعض الأخر، وفي عام (167هـ) أرسل الخليفة ابنه موسى مع جيش عظيم إلى جرجان لمحاربة ونداد هرمزد وشروين، ونصّب موسى يزيد بن مزيد قائداً للجيش وأرسله إليهم، قام هذا الأخير بمحاصرتهم ثم أرسل المهدى عام (168 هـ) سعيد الخرشي مع (40) ألف رجلاً إلى طبرستان، ولكن النتيجة كانت قيام هرمزد بطلب الأمان من موسى وجاء إليه في الريّ، أمر موسى يزيداً أن يعيد جبال ونداد هرمزد إلى أتباعه. في هذه الأحيان صار موسى الهادي خليفة وجلب معه ونداد هرمزد إلى بغداد. عندها وصل خبر إلى بغداد مفاده أن ونداد سبان شقيق ونداد هرمز، قد قطع رأس بهرام فيروز الذي كان قد اسلم بإصرار من الخليفة الهادي لذلك شاء الخليفة أن يقتل ونداد هرمز عقاباً لذلك، لكنه عاهد الخليفة إذا أرسله إلي طبرستان فسيجلب راس أخيه إليه، قَبل الخليفة العرض حسب استشارة أعضاء مجلسه، وبعد أن وصل ونداد هرمزد إلى طبرستان بدأ ظاهرياً بتعقيب أخيه لكنه في السرّ بعث له رسالة وأمره أن يبتعد عنه واستمر هذا الأمر إلى أن توفي الخليفة الهادي وصار هارون الرشيد خليفة (170 هـ). كان ونداد هرمز والأصبهيد شروين قد اشترطا أن لا يُدفن في ارضهم أي مسلم يموت فيها.

في عام (189 هـ) وعندما جاء هارون إلى الريّ، جاء سعيد الحرشي مع (40) من أبطال طبرستان إلى هارون وأعلن الجميع إسلامهم أمامه، وكان ذلك في زمن مازيار ابن كارن ابن ونداد هرمزد (المقتول عام 225هـ).

انتشر الإسلام في طبرستان، لكن مازيار لم يؤمن بالإسلام وعارضه، وفي عام (218 هـ)عندما ولاه المأمون على سفح وجبال طبرستان، قام بسجن عدد من المسلمين وعاملهم بقسوة، أرسل المعتصم جيشاً إلى خراسان، وأسر مازيار وجلبه إلى سامراء وقُتل هناك عام (235 هـ).

يبدو من خلال قراءة المصادر الموجودة أن مازيار كان متعلقاً بالآداب الدينية الإيرانية، والإساءة للعرب ودينهم وفرض المجوسية عليهم بعد أن دمروا المساجد ومحو آثارهم. في عام (240هـ) بعث الخليفة أحد مقربيه إلى الأصبهيد قارن ابن شهريار ملك الجبال وطلب منه ترك الدين الزرادشتي واعتناق الدين الإسلامي وقبل الأصبهيد هذا الطلب. بعد رحلة الإمام الثامن (ع) (153-203هـ) لجأ

أقرباؤه وأعوانه إلى طبرستان وديلمان، وجاء العلويون أيضاً إلى هذه المنطقة من الحجاز والشام والعراق. في عام (250هـ) اختار أهل طبرستان حسن بن زيد العلوي قائداً للثورة لكونهم قد تجرعوا الويل من عامل الخليفة محمد بن آوس وطلبوا العون من الديالمة. دعمه الأصبهبدان وأشراف طبرستان، احتل حسن بن زيد مدينة آمل، لذلك انتشر المذهب الشيعي في هذه المناطق. كان انتشار الإسلام في ديلمستان أقل وقعاً من انتشاره في طبرستان وجرجان لأن الخلفاء الأمويين والعباسيين لم يتمكنوا من فتحها، ولأن أهلها كانوا من المتمردين، انتشر الدين الإسلامي في هذه المناطق نتيجة لدعوة العلويين، وفي عام (175هـ) لجأ يحيى بن عبد الله العلوي إلى ديلمستان وبدأ الدعوة من هناك.

يقول المسعودي: كان من بين أهل الديلم وجيلان بعض من المزدكيين، مكث حسن بن علي الحسيني المعروف بالناصر الكبير (الأطروشي) في الديلم وجيلان مدة من الزمن إلى أواخر القرن الثالث، وكان رجلاً عارفاً وعالماً بالآراء والنحل ودعا أهل الديلم وجيلان إلى الإسلام وقبل دعوته العدد الكثير سوى بعض من كان يسكن الجبال والقلاع. بنا الناصر الكبير العديد من المساجد وهذا ما نقله ابن الأثير في حوادث عام (310هـ).

كما ذكرنا سابقاً فإن أغلب الناس أجبروا على اعتناق الإسلام بسبب مصالحهم المادية ولكن بعد زوال تلك الأسباب ارتدوا إلى دينهم السابق. أما في ولاية السُغد لم يكن المسلم في مأمن مما اضطره لحمل السلاح معه، أسلم عدد من الإيرانيين في بداية العهد العباسي، وأرسل المأمون في آخر أيام إقامته في خراسان جيشاً إلى ما وراء النهر لإخضاع الملوك العصاة لطاعته، قبل بعض أبناء الملوك الإسلام لرغبتهم بالأعمال الديوانية لذلك احترمهم وكرّمهم، أما في عهد المعتصم فقد انتشر الإسلام في هذه البلاد.

إذن لا يمكننا الإطلاع بشكل دقيق على انتشار الإسلام في سائر الولايات الإيرانية بسبب صمت المؤرخين لأن الدين الإسلامي كان قد انتشر في هذه البلاد بشكل كبير نسبياً، ولكن يمكن القول على وجه اليقين إن عدد المسلمين ازداد في هذا البلد في العصر العباسي، ولكن مما لا شك فيه أننا نعرف عدداً كبيراً من الإيرانيين بقوا على مذهب أهورا مزدا حتى القرن الرابع الهجري، وكان هناك العديد من المعابد وألفت العديد من الكتب باللغة البهلوية وكان الاحترام قائماً

لسدنة النار، حتى أنهم دخلوا بلاط الخليفة. اشتد التعصب لأصحاب الديانات الأخرى منذ أواخر القرن الرابع الهجري لذلك ضعف الدين المزدكي وتُرك شيئاً فشيئاً.

توجد وثائق في غاية الندرة عن العهد الذي بدأت فيه الحركات الدينية، لذلك اضُطررنا للاستعانة ببعض ما أُلف في هذا المجال لأننا نقصد من وراء حديثنا هذا معرفة مدى قوة الدين القديم لدى الإيرانيين والفُرَق التي خرجت منه في القرنين الثاني والثالث الهجريين. ليس لدينا معلومات كافية عن النشاطات الدينية والأدبية للموابدة الزرادشتيين ومنزلتهم الاجتماعية في القرنين الأول والثاني الهجريين.

ورد اسم رئيس الموابدة في تأريخ سيستان وفي الحديث الخاص عن فتح هذه الولاية في زمن عثمان، ومن هنا نعرف أن رئيس الموابدة كان يسكن في ذلك الوقت في الولاية المذكورة. في إحدى مجالس يحيى بن خالد البرمكي وعندما كان الحديث يدور عن الحب وكان يحضر المجلس عدد من المتكلمين المسلمين وأصحاب الآراء والنحل، طرح قاضي الزرادشتيين رأيه في الحب بكل حرية وصراحة، ويبدو أنه كان رئيس الموابدة، تُظهر لنا هذه الرواية مدى التساهل ومنزلة رؤساء الدين الزرادشتي في بلاط البرامكة.

أما في القرن الثالث الهجري فلدينا الكثير من المعلومات عن رجال الدين والأدب الفهلوي. ففي عهد المأمون الذي كثرت فيه المناقشات والمناظرات الدينية بسبب حرية الفكر والميل لطلب العلم، تناظر في حضوره أحد موابدة الدين الزرادشتي ويُدعى أتورفرن بغ جامع كتاب (دين كرت) مع أباليش أحد رافضية الدين الإيراني والذي كان يرجح العقل على المعتقدات الدينية. وعندما كان المأمون في خراسان جرى حديث مع رئيس موابدة هذه الولاية، وننقل هنا نصّ الحديث: (سأل حسن بن عمرو الرستمي أحد قادة جيش المأمون رئيس الموابدة في منزل ذو الرياستين الفضل بن سهل عن عيد النوروز والمهرجان وشرح له سبب الاحتفال بهما ووجه تسميتهما).

في عهد المتوكل على الله أهدى رئيس الموابدة زجاجة عطر صغيرة إلى الخليفة، وهذا دليل على قربه من البلاط، وفي يوم استدعى المتوكل أحد الموابدة

من فارس وسأل منه عن كيفية أخذ الخراج في زمن الساسانيين قدم الموبد شرحاً له عندها أمر المتوكل بإصلاح وتثبيت زمن النوروز (محرم عام 243هـ).

كان يودان تيم ابن شاهبور الأكبر يقيم في النصف الأول من القرن الثالث الهجري في إحدى ولايات جنوب إيران، وفي عام (267-268هـ) كان مانوشكهر ابن يودان بم من الشخصيات البارزه وهو كبير الهرابدة في فارس وكرمان وصاحب مؤلفات في الأدب الديني البهلوي واتصَف بالعدل والاطلاع الواسع على مقتضيات الوقت والسياسة والدين، وله شقيق أصغر يُدعى زاد بسرم كان يعيش في سرخس والقسم الشمالي الشرقي من خراسان بعد انقراض السلالة الساسانية قلّت أهمية الموابدة التي كانت تساند رسمياً الدين الزرادشتي، ولكن عاد للموابدة بعد ذلك بعض الاعتبار، لأن عدداً كبيراً من الإيرانيين بقوا على الدين الزرادشتي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، صحيح أنهم فقدوا منزلتهم السياسية، لكن الدين الزرادشتي بقي الحافظ للروايات والشعائر الوطنية ولم ينته نفوذهم المعنوي وخاصةً رئيس الموابدة الذي كان يُعد الرئيس والمحافظ على الدين، وصحيحٌ أن الشاه (الملك) قد انتهى عهده ولم يبق الأشراف على قوتهم واعتبارهم لكن رئيس الموابدة يُعدُ الرئيس الحقيقي للإيرانيين وبقي محترماً وصاحب صلاحيات معنوية ودينية رغم اعتناق الإيرانيين الدين الإسلامي.

إن الأمر الذي يجب التدقيق فيه هو عدم وجود أي موبد شارك في أية معركة، أو حركة قام بها الإيرانيون ضد العرب (في الحقيقة لا يمكن اعتبار حركة به آفريد وسنباد وأمثالهما من ضمن تلك الحركات).

لكن هذا الأمر لا يَفرض علينا التصديق بأن هذه الطبقة قد امتنعت كلياً عن دعم معارضي الدولة العربية، وعندما يتحدث العرب عن حركة، أو أمر ما فإنهم يولون أهمية إلى تلك الحركة أو ذلك الأمر بشكل يُفرض فيه على عمال الدولة أن يتدخلوا فيه، لكنهم قلّ ما يتحدثون عن الأسباب الحقيقية لتلك الأحداث، أو مبدئها ومنشأها، ولايستفيدوا من المعنى والطريقة التاريخية التي تفرض تتبع وتطور الأمور السياسية والدينية والاجتماعية.

قام المزديون والموابدة في القرن الثالث الهجري بنشاطات جديرة بالملاحظة، ومنها تأليف سلسلة من المؤلفات الأدبية المهمة للدين البهلوي في هذا العصر، وتوضح أغلب هذه الكتب جزئيات الروايات الدينية وعادات ومعتقدات الزرادشتي،

نذكر هنا بعض الكتب الدينية لهذا العصر التي تُصوِّر لنا حالة المزدكيين وقوة دينهم وأفكارهم في الوقت الذي كان يتجه دينهم للانحطاط، لكنه لا زال قوياً في إيران ويُسيطر على روح وأفكار وأعمال مجموعة كبيرة من الإيرانيين.

1- (دين كرت) والذي بدأ بجمعه أتورفرن بغ ابن فرخ زاد أحد رؤساء الموابدة المزدكيين، وقام بإكماله أتور بات ابن هي ميد (Hcmcd) أحد خلفائه.

إن أتور فرن بغ هو ذات الشخص الذي كان يبحث ويجادل أباليش في بلاط الخليفة المأمون (833- 813م)، كما أن أتور بات مكمل دين كرت هو نفسه أتوبارت ابن «هي ميد» الذي ورد اسمه في كتاب بندهش الفصل (32) الفقرة (11)، وكان معاصراً لزاد سَبَرم شقيق منوجهر الذي عاش أواخر القرن التاسع، وعلى هذا فإن جمع دين كرت تم في القرن التاسع الميلادي.

2- دادستان دينيك: يُعدُّ هذا العنوان جديداً بعض الشيء، ويحتوي على (92) سؤالاً وجواباً عن المسائل الدينية وقد طرح هذه الأسئلة متروخورشيد ابن أتورومهان و بقية المزدكيين على منوجهر كبير الموابدة، والذي أجاب عنها جميعاً. يعود تأليف هذه الرسالة إلى ما قبل عام (881م- 267 هـ) ومن المفيد جداً ملاحظة الأسئلة المذكورة للتعرّف على قضايا هذا العصر التي تهمُّ جميع المزدكيين، لقد أظهر منوجهر فطنة وعلماً في الإجابة على تلك الأسئلة، وكان منهجه وسلوكيته غاية في الرفعة تجاه العصر الذي كان يعيش فيه.

3- شغندغمانيك فيجار: كتاب بحثي وجدلي، مؤلفهُ مردان فرُخ ابن أهور مزّدات، أراد المؤلف فيه إثبات الخلاف الأساسي بين الخير والشر، لأن الأديان الأخرى تعدُّ الخير والشر من ربّ واحد، لكن الحقيقة أنهم يقللون من عظمته وطهارته، وتَنسب تلك الأديان السيء إلى السوء، وانصب جُلّ اهتمام المؤلف على إثبات بطلان أُسس معتقدات أصحاب الديانات الأخرى ومنها اليهودية والمسيحية والمانوية الواردة في كتبهم، أُلف هذا الكتاب أواخر القرن التاسع الميلادي.

4- صلاحيات زادسَبَرم: والذي كُتب في القرن الثالث (268-267 هـ) (881 م) يبحث القسم الأول منه ذات المواضيع التي بُحثت في كتاب بندهش، مع القصص المتعلقة بزردشت وعائلته ويبحث القسم الثاني خَلق الإنسان ماعدا الجسم والحياة والروح، والقسم الثالث يتعلق بتجدُد العالم، والقسم الأخير منه ناقص، وزادسبرم هو شقيق منوجهر الذي مرّ ذكره.

5- ماديفان غوزسنك أباليش: تناظر أباليش في حضور المأمون مع أتورفرن بغ ابن فَرّخ زاد، أما اتور فرن بغ فهو ذات الشخص الذي جمع كتاب دين كرت. فإذا كانت المناظرة قد تمت في بغداد فإن هذه الرسالة قد أُلفت في بداية القرن الثالث الهجري، وإذا حدثت المناظرة في خراسان فيكون تأليفها أواخر القرن الثاني الهجري. إن المؤلفات المذكورة وبعض المؤلفات الأخرى التي مرّ ذكرها توضح بشكل مباشر وغير مباشر وضع الدين الزرادشتي و المزدكيين في القرن الثالث الهجري. كان الدين الزرادشتي قوياً في إيران بعد قرنين من الفتح العربي وكانت أغلب النُسُك موجودة وكذلك المؤلفات البهلوية في العصر الساساني والتي فُقدت اليوم، وتُعدُ مدن شيراز وسيركان وكرمان والريّ وسرخس من مراكز الدين القديم.

كان للرئيس الديني لشيراز الحق في النظر بالأمور الدينية لفارس وكرمان وجنوب إيران، وكان يوجه الأوامر لرجال الدين فيها وكانت لرؤساء الدين المزدكي حراس من الفرسان والمشاة وعندما يصبح رئيس رجال الدين شيخاً تقوم بإدارة واجباته هيأة مركبة من أربعة أشخاص من كبار رجال الدين ويتمتعون بصلاحيات كاملة.

يُثبت بقاء أغلب الكتب المقدسة للآداب الزرادشتية في القرون الأولى للدولة العربية أن العرب ليسوا المسؤلين عن القضاء عليها مثلما يعتقد بعض الفُرس، علماً أن مجموعة معتبرة ومهمة من الإيرانيين قد حافظوا على دينهم القديم وآدابهم لقرون طويلة، لكنهم أصبحوا بعد ذلك أقلية بسبب تغيير الدين والضغوط التي مورست على المزدكيين وخضعوا لحكم دولة التتر الوحشية، وفقدوا جميع آدابهم التي لم تعد تُستخدم يومياً، إن السبب الرئيس وراء ضياعها هو عدم تجديد نسخها وإتلافها من قبل الفاتحين، ولأن النسخة الخطية الورقية لا تدوم أكثر من خمسة إلى ستة قرون.

بعيداً عن المؤلفات التي كانت تُنشر من قبل الزرادشتيين وكانت السبب وراء بقاء الدين إلى حد ما، فإن ترجمة الكتب الإيرانية البهلوية إلى اللغة العربية كان أحد الأسباب وراء تعزيز وتقوية العاطفة الوطنية والدينية بين الإيرانيين عامة والإيرانيين المسلمين خاصة، والرائد في هذا المجال داذبه ابن داذ غشنسب المعروف بـ أبي محمد عبد الله بن المقفع من أهالي مدينة جور.

ارتبطت حركة ترجمة الكتب الإيرانية إلى العربية إلى حدٍ ما بالحركة الشعوبية وكذلك لمعارضة ادعاءات العرب الذين يعتبرون أنفسهم أعلم الأقوام في الأدب والخطابة والشعر و أفضلهم حسباً ونسباً ويتفاخروا بشجاعتهم ويقولون دائماً إن العرب لم يُستعبدوا إطلاقاً.

جاءت ترجمة تلك الكتب لإثبات حقيقة ومنزلة الإيرانيين في الأدب والتأريخ والحكمة والإبقاء على الإفتخارات السياسية وعظمة ملوكهم. ادى انتشار هذه الكتب إلى توسيع دائرة إدراك الفكر الإيراني و أسلوب البيان والكتابة والصناعات الأدبية بين المسلمين العرب، فعندما أراد الشعراء أن يكونوا مبتكرين وأن يتركوا الأسلوب القديم كانوا يستمدون معلوماتهم من الأدب الفارسي، ويجب الأخذ بنظر الاعتبار هنا أن أفكار وأسلوب تبويب الكتب العلمية كالنحو استمد مادته من الفارسية البهلوية ثم نُقل إلى العربية لأن اغلب كتاب النحو وجامعي قواعد اللغة العربية كانوا من الإيرانيين لذلك استفادوا من البدايات العلمية التي كانت موجودة في لغتهم لتأليف الكتب العربية الجديدة، وكانوا يُضمنون أشعارهم الفاظاً من الفارسية ويشاهد الكثير من هذه النماذج في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وأهم كتاب نقل إلى العربية هو كتاب خداي نامك الذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية، إن انتشار ترجمة كتاب خداي نامك من قبل ابن المقفع وظهور كتاب في سير ملوك الفرس في قالب عبارات بليغة جعل من العامة يهتمون بهما وخاصة في بداية الدولة العباسية التي كانت في الحقيقة دولة إيرانية لأن الخليفة والوزير وعمال البلاط جعلوا أساس عملهم يعتمد أكثر ما يعتمد على تقليد سيرة ملوك الفرس وقوانين أكابر العجم وهذا ما حصل مع كتاب كليلة ودمنة أيضاً، بعد ابن المقفع قام الكثير من الأدباء بترجمة وتلخيص كتاب خداي نامه، وكانت ذروة هذا العمل في الفترة الممتدة بين خلافة المأمون والمتوكل.

قام مترجمون آخرون بعد ذلك بترجمة بعض كتب التاريخ الإيراني القديم أو كتاباً في هذا المجال إلى العربية أمثال: أحمد بن يحيى البلاذري، اسحق بن يزيد، محمد بن الجهم البرمكي، هشام بن القاسم الأصفهاني، موسى بن عيسى الكسروي، زاذويه بن شاهويه الأصفهاني، محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني، بهرام بن مردان شاه موبد مدينة شابور في فارس وبهرام الهروي المجوسي.

لقد أضاف عدد منهم إلى سيَّر الملوك مثلما فعل بهرام بن مردان شاه الذي عاش أواخر القرن الثالث الهجري وكان لدية عدة نسخ من الكتاب، وموسى بن عيسى الكسروي الذي ادعى إصلاح تواريخ ملوك العجم وقابلوا عدداً من نسخه المختلفة مع بعضها للتأكد من صحتها، وكان لدى حمزة ثمان نسخ من سير الملوك بنقول مختلفة، وجميع هذه النسخ أعدت قبل القرن الرابع الهجري.

بعد ظهور ترجمة خداي نامه بقلم ابن المقفع وما تلاه من الكتب، تهيأت موضوعات كثيرة لجماعة من الشعوبية والزنادقة الإيرانيين والأدباء والشعراء الذين كانوا يتفاخرون بإيرانيتهم، أو التشبّه بآداب الفرس، وازدان شعر ونثر أولئك الجماعة بأسماء أبطال إيران الأسطوريين وقصصهم وحكاياتهم، فإذا طالع أحد أشعار أبو نواس وأبو العتاهية وأبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابي وصالح بن عبد القدوس وبشار بن برد ومهيار الديلمي، سيلاحظ آثار الترجمة من البهلوية إلى العربية. يُعدُ ابن المقفع إمام المترجمين في نشر أفكار الشعوبية والزنادقة وحكم وأمثال الفرس وقصص وروايات القوم الإيرانيين بين المسلمين.

ترجم ابن المقفع بعض الكتب التاريخية و الأدبية من البهلوية إلى العربية إضافة إلى كتاب خداي نامه ومن هذه الكتب (سكي سران، أو عظماء سجستان وكتاب البيكار وكليلة ودمنة وآئين نامه ومردك، أو مزدك والأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة في الرسائل وكتاب نامه تنسر)، كذلك نقل من البهلوية إلى العربية كتباً أخرى في الآداب والأخبار والسّير ومنها (كتاب بهرام جوبين و رستم وأسفنديار، الذي ترجمه إلى العربية جبلة بن سالم، وكتاب لهر اسب، الذي ترجمه علي بن عبيد الريحاني، وكتاب دار، أو الصنم الذهبي، وكتاب بهرام ونرسي وكتاب شهر براز مع ابرويز وكتاب كار نامه أردشير).

من الواضح أن هدفنا هنا ليس ذكر الكتب العلمية البهلوية التي نُقلت إلى العربية بل التأكيد على أن نشر الكتب بين العرب كانت له نتائج مختلفة للعرب ولعامة الإيرانيين على حد سواء، لا نقول إن هذه التراجم كانت سبباً وراء إحياء الذكريات القديمة لأن الإيرانيين لم ينسوا إطلاقاً تأريخهم السابق، ولكن كانت وسيلة لتعزيز وتعميق العاطفة القومية وتحريك مجموعة من الإيرانيين ضد العرب. لم يترك الدهاقنة الإيرانيون رواياتهم القومية رغم كونهم وسيلة لحل وفصل الأمور بين ممثلي الدولة العربية وعامة الشعب الإيراني ورغم اعتناق

أغلبهم الدين الإسلامي، وكانوا يعتزون بمؤلفات وكتب أجدادهم وكانوا يُشكلون مجموعة علماء وحكماء المملكة بعد الموابدة ولدينا العديد من القرائن تُثبت كونهم السبب وراء المحافظة على هذا الميراث الأدبي والعلمي والذي يعدُ ممثل العلم والثقافة الإيرانية لدى هذه الطبقة، حتى إن بعض أمرائهم العرب كانوا يطلبون منهم معلومات عن الحكمة.

بقي الخط البهلوي واللغة الفارسية قبل الفتح الإسلامي متداولاً حتى القرن الرابع الهجري، أولاً من خلال كبار رجال الدين وثانياً من قبل الدهاقنة لكنه بدأ بالاضمحلال تدريجياً وجاء هجوم المغول ليوجه آخر ضربة له، علماً أن الآداب الإيرانية لم تُهجر دفعة واحدة بعد الفتح العربي وبقي بعضها حتى بعد عصر سيطرة الأجانب ولا زال، وليس لدينا المتسع لذكر جميع هذه الآداب والرسوم والقصد هنا هو الإشارة إليها فقط، إن أحد أقدم هذه الآداب يرتبط بالاحتفالات الإيرانية وأهمها احتفالات النوروز والمهرجان والسده وبهمن، ويُعدُ النوروز أكثر أهمية من الاحتفالات الثلاثة الأخرى لحد الآن، بقي هذا العيد ومراسمه لدى الإيرانيين بعد تسلط العرب لكن الرسوم التي كانت موجودة في البلاط الساساني قد تُركت بعد انقراض الدولة الإيرانية، لقد أعاد بعض الخلفاء الأمويين قسماً من تلك الرسوم طمعاً في الحصول على هدايا النوروز، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي أول شخص في الإسلام تَقَبل هدايا النوروز والمهرجان وأول شخصٌ نسخ هذه الرسوم كان الخليفة عمر بن عبد العزيز.

كان الخلفاء في العصر العباسي يتظاهرون بالآداب والرسوم الإيرانية واستعاد حفل النوروز رونقه وعظمته السابقتين وأُعيد إحياء رسومه، وانشد العديد من الشعراء العرب قصائد فيه وبقية الاحتفالات. ألف حمزة بن الحسن الأصفهاني الذي يعدُ من الشعوبية رسالة بعنوان (الأشعار السائرة في النيروز والمهرجان). أضاف الأمراء الطاهريون في خراسان رونقاً جديداً لهذه المراسم، وتفيد العديد من الوثائق بأن هذا الاحتفال كان كبيراً في القرن الثالث الهجري وجرى فيه تبادل الهدايا بين الأمراء وازدادت عطاياهم إلى الناس.

أما احتفال المهرجان فقد بدأ بالأفول بعد أن كان معمولاً به في العصر الإسلامي إلى ما قبل هجوم المغول، لكن وضعه كان كالنوروز في بلاط الخلفاء الأمويين وكان يُهدى للخلفاء فيه الذهب والفضة وكل ما هو ثمين، أما الأمراء

العرب في الولايات الإيرانية فقد مارسوا هذه المراسم لأنهم وجدوا مصلحتهم في إقامتها، فمثلاً قدّم الدهاقنة والتجار الإيرانيون في بلخ عام (120هـ) الهدايا إلى أسد بن عبد الله والي خراسان والأهم من كل ذلك كانت هدية دهقان هرات بعد أن ألقى خطبة مدح فيها أعماله وأسلوبه في الحكم وأشاد بشجاعته وسخائه، وقام أسد بدوره بتوزيع الهدايا على الناس.

أما في العصر العباسي فقد حظي حفل المهرجان بعظمة اكثر وبقي على ما هو علية بعد ذلك في بلاط السامانيين والغزنويين وتشهد على ذلك قصائد القرنين الرابع والخامس الهجريين. لقد كان حفظ هذه الرسوم وتجديدها المستمر سبباً وراء محافظة الإيرانيين على ذكرياتهم التاريخية والأسطورية، وقد أثرت الرغبة لدى الأمراء الأجانب من الأتراك والعرب في هذه المراسم بشكل مباشر وغير مباشر وأدت إلى ازدهارها وتقويتها حتى لو كانت تلك الرغبة من أجل المصالح الشخصية.

كانت معابد النار تنتشر في كل أنحاء إيران، ثلاثة منها كانت على درجة كبيرة من الأهمية، أحدهما آذُرفَريغ، والأخر آذر كُشنَسب، والثالث آذر برزين مهر، المعبد الأول كان نار الموابدة، والثاني نار المحاربين والملك، والثالث نار المزارعين، وكان يُطلق على آذر فريغ اسم آذر جمشيد أيضاً. في أواخر الدولة الساسانية كانت توجد بلدة صغيرة في مدينة كاريان في فارس تابعة لدارا جرد داخل سور محصّن فيها معبد نار كبير (حدود العالم، صفحة 79) وعندما استولى العرب على فارس خشي الزرادشتيون من أن يُطفئ ناره العرب فقسموا النار إلى قسمين تركوا قسماً في كاريان ونقلوا الجزء الآخر إلى مدينة بسا، حتى إذا انطفأ جزء يبقى الجزء الآخر موقداً. لم يكن خوف الزرادشتيين بلا أساس ومثلما شاهدنا سابقاً فقد تم إطفاء هذه النار في زمن زياد ابن أبيه، ويقال إنه تم نقل النار إليها مرة أخري من مدينة بسا، وأذكيت النار من جديد، وكانت النار تنقل منها إلى مناطق أخرى حتى القرن الرابع الهجري، ويقول المسعودى إن هذه النار كانت تسمى آذر خوي أيضاً.
يقع معبد آذر كشنسب في ناحية شيز التي كانت أروميه قصبة لها حسب ما ذكره المؤلفون المسلمون ولم يعرف بالضبط موقع هذا المعبد، على كل حال بقي هذا المعبد حتى أواسط القرن الرابع الهجري، يقول أبو دُلف مشعر بن المهلهل الذي زار بخارا أواسط القرن الرابع الهجري: (يوجد في شيز معبد نار مقدس للغاية لدى الناس وكانت النار المقدسة توقد للزرادشتيين في الشرق والغرب من هذا المعبد،

وقد نُصب فوق قبته هلال من الفضة يُعتقد أنه طلسم، أراد بعض الأمراء حفر المعبد لكنهم لم يوفقوا، ومن الملفت للنظر هنا أن هذه النار بقيت مشتعلة 70 عام ولا تخلف رماداً و يقال إن هرمز شَيَد هذه المدينة من الحجر والآجر).

يقول المسعودي: (توجد في مدينة شيز آثار عجيبة لأبنية ونقوش بألوان مختلفة باقية لحد الآن تصوّر الأفلاك والنجوم والعالم وكل ما فيه من البرّ والبحر والنبات والحيوان والعجائب الأخرى، وكان للملوك هناك معبداً كانت له منزلة رفيعة للغاية، يقال له آذُر خش، (إن كلمة آذر هي أحد أسماء النار في اللغة الفارسية وخش بمعنى الطيبة).

يقع معبد آذر برزين مهر على قمة جبل ريوند في إحدى مدن آبر شهر وينُسب بنائه إلى زرادشت.

كانت توجد معابد في المدن والقرى الإيرانية وكان لبعضها أهمية لدى المزدائيين، وكان يوجد في ولاية فارس مسقط رأس الملوك الساسانيين العديد من المعابد بقيت حتى القرن الرابع الهجري، يقول الأصطخري: (سوى بعض المناطق فلا تخلو ناحية أو مدينة في فارس من معبداً للنار ومن الصعب ذكر جميع أسمائها)، وفي ما يأتي المعابد التي ذكرها هذا المؤلف؛ بعد ذكر معبد كاريان يقول: معبد خُرّ (رُستاق في كورة شابور) وينسبون بنائه إلى دارا ابن دارا وكان المزدائيون يؤدون قسَمهم فيه، معبد آخر قرب بركة جور يسمى بارين ومعبد آخر في باب شابور يسمى شَبرخوشين ومعبد آخر في باب شابور محاذي لباب ساسان يعُرف بكنبد كاوس، معبد في كازرون يسمى جفته، معبد آخر في الموضع ذاته اسمه كُل آذر (بالكاف الفارسية... المترجم)، معبد في شيراز اسمه كاري نان، معبد آخر في هذه المدينة اسمه هرمز ومعبد يسمى مسوبان يقع شمال شيراز على بعد ميل عنها في قرية بركان.

يقول المسعودي: (كان في ولاية فارس معبد في مدينة أرجان وكذلك في نسى)، وذكر المؤلف معبداً آخر في أصطخركان قد دُمرَ في عهده (332هـ) وكان يسمى مسجد سليمان، وكذلك معبد آخر يسمى بارنوا ينسب إلى آردشيُر، كان في رستاق آرنجان معبداً يقع في جبل كوشيد آخر أرض فارس وبداية ناحية أصفهان ينسب إلى كي خسرو ويُعرف بـ نار كوشيد وقد وردَ اسمه في كتاب مروج الذهب على شكل كوسجه وقد ضبطها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل على شكل كويسه،

ويبدو أن هذا المؤلف اقتبس مواضيعه عن المعابد من المسعودي الذي يقول: (كان يوجد معبد نار على بعد ثلاثة فراسخ من اصفهان على جبل كان معروفاً حتى زمان المؤلف ويحترمه ويقدسه الزرادشتيون ويقال إنه معبد كوشيد نفسه).

كان في ماربين اصفهان وهي أحد رساتيقها، قلعة يوجد فيها معبد نار ينسب إلى بهمن، وبقي هذا المعبد حتى زمان ابن رُسته، يقول حمزة الأصفهاني، كان هناك معبد آخر في رُستاق انارباذ التابعة لأصفهان في قرية تسمى ممنور، وقد شيده كشتاسب وأوقف له الأراضي، وليس لدينا معلومات عن كون ذلك المعبد كان قائماً في زمن المؤلف أم دُمر، ويضيف حمزة الأصفهاني: (جعل بهمن في أصفهان ثلاثة معابد في يوم واحد، يسمى الأول نار شهر أردشير عند قلعة ماربين، والثاني نار ذُروات أردشير في قرية دارك التابعة إلى خوار، والثالث نار مهر أردشير في قرية أردستان، ويقول أيضاً إن شابور الثاني بنى معبداً في قرية جروان وهي من رساتيق جي آتشي ويسمى سروش آذران).

كانت سجستان في القرون الإسلامية الأولى إحدى الولايات الإيرانية التي بقي الدين الزرادشتي فيها قوياً، ولهذه الولاية منزلة كبيرة في التاريخ الديني لإيران كما هو حال أذربيجان، وتُعد هذه الأرض الموطن الأصلي للكيانيين، ولم تكن سابقاً بهذا الدمار والضعف وقلة النفوس عمّا هي عليه في الوقت الحاضر، لقد كان لبحيرة هامون فيها منزلة خاصة لدى الزرادشتيين، لكون أن ثلاثة أبناء من صلب النبي زردشت سيظهرون فيها يفصل ظهور كل واحد منهم ألف عام، وأسمائهم هي: هوشيدر، وهوشيدرماه و سوشيانت وبظهور الابن الأخير سينتهي جيش الشيطان الدجال دفعةً واحدة.

كان في قرية كركوية معبداً ينسبون بنائه إلى الملك الكياني كيخسرو. يُعد كتاب تأريخ سيستان (المُؤلف بحدود عام 445 هـ) أحد كتابين (تحدثا بالتفصيل عن معبد كركويه وورد فيهما جزء من كتاب كرشاسب لأبي المؤيد البلخي وهذا دليل على أن طائفة من المُغان والعلماء والمتكلمين الزرادشتيين كانوا يسكنون بأعداد كبيرة في سيستان حتى عصر مؤلف الكتاب)، يقول مؤلف تأريخ سيستان: (هذا الموقع الذي يسمى الآن معبد كركوي كان سابقاً معبد كرشاسب، ثم حوله كيخسرو إلى معبد خاص به ويقول المجوس إن ناره هي هوش كرشاسب وحجتهم في ذلك نشيد كركوي).

كان في خراسان أيضاً في القرن الإسلامي الأول معابد كثيرة يُقدسها الزرادشتيون ومنها معبد في مدينة طوس ومعبد في بخارى يسمى بردسوره وآخر يسمى كوادان ومعبد في زوزن التابعة لنيشابور وآخر في السُغد ومعبد في ولاية ترشيز وآخر يسمى جريش.

من المؤكد لدينا وجود عدد من المعابد في القرن الثالث الهجري في الولايات الساحلية لبحر الخزر التي كان أغلب حكامها وأهلها على الدين الزرادشتي، لكننا نجهل اسمائها أو مواضعها، لكن من المؤكد لنا وجود معبد مشهور يسمى آذرخش في جنوب كردستان في مدينة أليشتر، ومعبد آخر في قرية آخُرين كان يقدسه الزرادشتيون، أما في قزوين فقد بقيت العديد من المعابد في عهد اليعقوبي والحال نفسه في أذربيجان وارّان ومعبد آخر في مدينة شوشتر (تستر) والذي زاره الحلّاج.

شيد خسرو برويز معبداً في قرية باريمن من رساتيق كرمان وأوقف له قرية هناك، كذلك شُيّد معبد آخر في قرية قُرطُمان التابعة لأبخاز بأمر من آزرمين دُخت. كانت خارج إيران معابد أيضاً في العصر الإسلامي كالمعبد الذي شُيد على ضفاف خليج القسطنطينية وينسبونه إلى شابور ابن اردشير ولكنه دُمر في عهد الخليفة المهدى، وكان في العراق أيضاً العديد من المعابد منها معبد قرب بغداد في أستينا (إحدى قرى الكوفة) شيدته بوران ابنة خسرو برويز، والحال كذلك في الهند والسند.

مثلما شاهدنا سابقاً لم يكن في إيران وحدة دينية قبل الفتح العربي، فقد ظهرت فرَق متعددة للدين المزدائي عدا الديانات المستقلة الأخرى مثل الدين المسيحي والبوذى، وكانت الفُرَق المانوية والمزدكية من أهمها. لم تسمح قدرة موابدة الدين الرسمي يعني الزرادشتي في فترة الدولة الساسانية المجال لأتباع الفرقة المذكورة لنشر آرائهم وأفكارهم، وكانت حياة الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم من أتباع العقائد المذكورة مهددة دائماً بالخطر، لذلك اضطروا لإخفاء معتقداتهم وعاشوا هكذا في إيران، أو تركوا وطنهم ورحلوا إلى مناطق بعيدة أو دول أخرى.

إن عمليات قتل وتعذيب أتباع هذه الفرق وخاصة بعد مقتل مؤسسيها كان مروعاً وأخذ طابع المجازر الجماعية، مثلما حدث مع أتباع ماني ومزدك، وفي أعقاب ذلك تصاعد التعصب الديني وازدادت قوة الموابدة دون أن تنقطع مادة

البدعة بشكل كامل، وظهرت للدين الماني جاذبية وقوة معنوية عجيبة بعد مقتل زعيمها ماني بحيث نلاحظ آثار ذلك الأمر لأكثر من ألف عام في آسيا الوسطى وأقصى المغرب، وتوجهت مجموعة منهم إلى آسيا الصغرى ومصر بعد خمسة وعشرين عاماً تقريباً من مذبحة المانويين في إيران، ودعوا لمذهبهم في شمال أفريقيا وفعلت الشيء نفسه مجموعة أخرى في أوربا ونلاحظ أنه رغم تعرضهم للتعذيب المستمر في إمبراطورية الروم على يد دبو كلسين (300) وقسطنطين فقد كان لهذا الدين من يؤيده بين الطبقات العليا والدنيا، وكان النجاح حليفهم في أفريقيا لان الضغط كان أقل على الأديان والمعتقدات هناك.

اشتملت رسائل اغوستينوس على أحوال وأوضاع المانويين في شمال افريقيا، من جانب آخر كسبت إحدى فرق المانوية الشرقية أتباع (بول) من أهالي (SAMOSATE) إليها في بلغاريا ووصلت معتقداتهم إلى إيطاليا وفرنسا عن طريق الدانوب وخاصة في جنوب فرنسا في القرن الحادي عشر، وقد أُطلق على اتباع هذه الطريقة اسم كاتار (CATHARES) (وتعني الأطهار). كانت آرائهم تؤكد على أن إله العهد القديم هو الشيطان، والمسيح هو الربّ وعليهم محاربة الشيطان أو النفس الأمارة، وكان أتباع هذه الفرقة يتعففون عن الزواج ولا يأكلوا اللحوم سوى الأسماك ولكنهم أصحاب اخلاق. لقد ازداد اتباعهم في جنوب فرنسا وأسسوا في طولوز وألبي إمارتين (EVECHES) لذلك سُميت هذه الفرقة ألبي جوا، عمل سان برنارد على إرشادهم وعندما لم يفلح اصدر لإينوسان الثالث عام(1208 م) فتوى الجهاد ضدهم، استمر نهب وحرق مدن هذه الناحية لسنوات طويلة (1229- 1209م)، وأسروا وقتلوا مجموعة من الخواص والعوام، ووجهت إلى حضارة هذه المنطقة ضربة كانت تحتاج إلى ثلاثة قرون لإصلاحها.

لم ينته المذهب الجديد في إيران دفعة واحدة وخاصة في بابُل التي كانت مركزاً للدين المذكور، انتشر أتباع ذلك الدين في تيسفون مثلما هو الحال في إيران في عهد أنو شيروان الذي مارس التنكيل والقتل فيهم مثلما فعل مع المزدكيين، لذلك آثرت مجموعة منهم بعد مقتل ماني إلى النزوح لآسيا الوسطى لأن سلطة الموابدة الزرادشتيين ضعيفة هناك. عاش المانويون بشكل حر نسبياً وعملوا على نشر آرائهم وكان لدينهم التأثير القوى في الحياة الدينية لآسيا الوسطى وشرقها لقرون طويلة، (فقد المانويون الشرقيون علاقتهم مع المانويين الغربيين شيئاً

فشيئاً، ومن ثم أعلنوا العصيان على رئيسهم الكبير في بابُل وشعروا بحريتهم، أما في الشرق فكانوا لا يفهمون اللغة السريانية لذلك استعملوا تراجم باللغة البهلوية الجنوبية الغربية لكتبهم الدينية التي أُلفت باللغة السريانية، وحافظوا بذلك على معرفتهم للغة الشمالية التي كُتبت بها العديد من النصوص الدينية، خاصة الأناشيد والأشعار الدينية الأخرى التي تم العثور على نماذج منها في تنقيبات تورفان، ثم ترجموا النصوص الدينية إلى اللغة السغدية ومن ثم إلى اللغة التركية القديمة، في الوقت الذي أسس فيه قوم أويقور وهم من العنصر التركي مملكة في آسيا الوسطى في القرن الثامن، اعتنق أويقور الدين الماني «عاش أواخر النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي»، ولقب نفسه «فيضان ماني»).

مثلما ذكرنا كان الدين الماني في آسيا الوسطى منسجماً مع المحيط البوذي وكان الوعاظ يستعملون المصطلحات الدينية البوذية، مثلما استفاد المانويون الغربيون من أمثال وحكم العهد الجديد. وصل الدين الماني إلى الصين رغم عدم انتشاره هناك، وبقيت آثاره حتى القرن السابع الميلادي. شعر المانويون بالراحة والحرية في إيران وآسيا الوسطى بُعيد انقراض الدولة الساسانية والضعف النسبي للدين الزرادشتي. صحيح أننا لا نملك وثائق رسمية عن نشاطاتهم في القرن الإسلامي الأول، لكننا نعرف أن عدداً كبيراً من المانويين ودعاة هذا الدين عادوا لإيران لأسباب مختلفة. لقد كانت مدينة بابُل مركزاً للحكمة مثلما ورد في كتاب شابورغان، وكانت سيطرة العرب على العراق وخاصة في بداية الأمر بمثابة الفرج بعد الشدة بالنسبة للمانويين.

لم يهتم المسلمون بالمانويين في بداية الفتح العربي وحتى أواسط الدولة الأموية وذلك لعدم أهميتهم بالنسبة لهم، ولا يفرق المسلمون بينهم وبين بقية المزدائيين، وليس لدينا أي معلومات عن أحوالهم في هذه الفترة، ولم تتحدث عنهم كتب التأريخ. كان رئيسهم يدعى زاد هرمز في عهد خلافة وليد بن عبد الملك وولاية خالد بن عبد الله القشري في العراق، اعتنق زاد هرمز الدين المانوي وبقي معهم فترة من الزمن لكنه لمس منهم أشياء لم تعجبه مما أضطره للانفصال عنهم وأراد اعتناق دين الآوريين وهم فرقة من المانوية كانت تعيش في ما وراء النهر، لذلك جاء إلى المدائن والتقى هناك مع كاتب الحجاج بن يوسف الذي كان غنياً وتربطه به علاقة صداقة واطلعه على حاله وعمله وسبب انفصاله عن الآخرين

وهدف سفره إلى خراسان، عامله الكاتب بلطف وقال له أهيئ لك كل ما تريد والبيعة بالذات، مكث زاد هرمز لديه، وكتب إلى الدين آوريين وطلب أحد رؤسائهم ليحضر البيعة في المدائن، أجابه ألدين آوريون بأنه ليس من الجائز أن تتم البيعة للرئاسة إلا في بابل. حصل زاد هرمزد هناك على الرئاسة وشرع بتنفيذ أعمالهم، وعندما أدركه الموت طلب منه أتباعه أن يعيّن خليفة له، رشح لهم مقلاص الذي كان يثق به، وعلى أثر ذلك انشق المانوية إلى مجموعتين، مجموعة أتبعت مهر ومجموعة مقلاص. عارض مقلاص بعض المسائل الدينية ومنها سنّة المانويين إلى أن جاء أبو هلال الدّحوري من أفريقيا وتسلم رئاستهم، حصل ذلك في خلافة أبو جعفر المنصور. طلب أبو هلال من المقلاصيين أن يتركوا ما جاء به مقلاص في باب الوصالات، قبلت مجموعة منهم ذلك، لكن رجلاً من المقلاصيين يدعى بزر مهر (بزرك مهر ؟) دعاهم إليه وطرح معتقدات جديدة، استمر الحال على هذا المنوال إلى أن تسلم رئاستهم أبو سعيد الرجا الذي أعاد المانويين إلى آراء مهر في باب الوصالات. انشق رجلٌ منهم يدعى يزدان بخت في عهد خلافة المهدي، وانضمت إليه مجموعة، منحه المأمون الأمان عندما كان في الريّ يحاور المتكلمين الذين استجابوا له وسنتطرق إلى هذا الموضوع بالتفصيل.

من الأمور التي كان يوردها أتباع مقلاص عن المهرية هي أن خالد القصري أركب مهر على حمار ووضع خاتم من الفضة في يده وألبسه لباس من الحرير الفاخر، وهذا الموضوع طُرح للتندر. كان أبو علي سعيد رئيساً للمقلاصيين في زمن المأمون والمعتصم ثم خلفه كاتبه نصر بن هرمزد السمرقندي. كان المقلاصيون يجيزون للأشخاص الذين اعتنقوا دين ماني حديثاً ما كان يعد ممنوعاً في السابق، وكانوا يعاشرون الملوك ويتناولون الطعام معهم وكان أبو الحسن الدمشقي أحد رؤسائهم.

في بداية الأمر لم يكن يُسمح لرئيس المانويين بالبقاء في إيران وما وراء النهر إلا في بابل. شعر المسلمون في أواخر العهد الأموي شيئاً فشيئاً بخطر معتقدات المانويين على الإسلام، وخشي الزرادشتيون في الوقت ذاته من قوتهم المتنامية، وليس من المستبعد أن تكون للزرادشتيين اليد الطولى في تعقب المانويين وتعذيبهم في الأزمنة اللاحقة وهم الذين كانوا يحركون الخلفاء ضدهم. كان المسلمون يصفون أتباع ماني بالزناديق وقد ظهرت آراء مختلفة في سبب هذه التسمية،

فبعض العلماء كانوا يشتقون التسمية من كلمة صديقا التي كانت تطلق على أبدال ماني ويقولون إن هذه الكلمة هي (زانديك) في اللغة البهلوية، ثم دخلت العربية بشكل زنديق، ويعتقد البعض الآخر أنها مشتقة من كلمة زنديك التي هي صفة البهلوي وتعني الشخص الذي يَتبع التفسير (الزند) ويقولون إن المانويين يسمّون هكذا لميولهم إلى تأويل الكتب الدينية للأديان الأخرى وفق أفكارهم وهذا التبرير هو الأرجح بالنسبة لنا.

على كل حال فمن المسلم به أن الكلمة المذكورة وصلت إلى العرب وقد استعملها المسلمون في العراق، كانت الكلمة المذكورة تطلق في بداية الأمر على المانويين فقط وأحياناً كانت تطلق على المزدكيين لتقارب معتقداتهم الدينية مع المانويين، لكنها فقدت معناها الخاص بعد ذلك وأُطلقت على العالم الكافر، أو الرافض، أو المعارض للدين الرسمي مما صعب الأمر في تحديد الزنادقة الأصليين يعني المانويين وتحقيق أحوالهم وتطور معتقداتهم، خاصة أن بعض المؤلفين لا يذكرون لنا شيئاً عن عدد الزنادقة وجزئيات آرائهم لكن هذا الأمر الذي خلق المشكلة المذكورة يُثبت بوضوح أي الفُرَق التي كانت ذات نفوذ واهتمام في عهد ظهور المناقشات الدينية ورقي علم الكلام الإسلامي.

لم يكن المانويون فقط الملحدين وأتباع النبي الدجال من وجهة نظر المسلمين ولكنهم كانوا يعدُون المخالفين للتقاليد والمجتمع والدولة، لذلك عملوا على تصفيتهم وخاصة في العهد العباسي الذي يعتبر عهد التأكيد على المعتقدات الدينية. أما في العهد الأموي كانت قلّة ممن يُطلق عليهم تسمية الزناديق، وكان أحدهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّب يزيد بن عبد الملك والذي أتهم وليدٌ باحتساء الخمر والاستخفاف بالدين، ولكننا من هذا المختصر لا يمكن الحكم بشكل قطعي على كونه مانوياً، كذلك ليس لدينا أي دليل لكي نعدّ الوليد بن يزيد ما نوياً. الشخص الآخر هو جَعد بن درهم مؤدّب مروان الفرس أو مروان الحمار أو مروان الجعديّ كما يسمى، كان جعد بن درهم مولى سويد بن غفلة ثم صار مؤدّب أبناء مروان، وكان من شيوخ المعتزلة ويؤمن بالخَلق و القدر لذلك سميّ بالزنديق، استدعاه الخليفة هشام وأرسله إلى خالد بن عبد الله القسري والي العراق وأمره بقتله.

لا نملك أي دليل أكيد يجعلنا نعدُ جعد زنديقاً، أو مانوياً لأن هناك دافع

سياسي في التهمة المنسوبة إلى جعد و مروان. كان جعد يشارك معد بن عبد الله الجهني الرأي بالقدر لذلك عدهُ معارضو القدرية زنديقاً. ترجمت بعض مؤلفات المانوية إلى العربية في بداية الدولة العباسية وكان على رأس المترجمين عبد الله بن المقفع.

كان ماني أحد دعاة النبوة النادرين وعمل على نشر الدين والوعظ والإرشاد، وألف العديد من الكتب، والدليل على نشاط قلمه الصورة التي نقلها ابن النديم والبيروني واليعقوبي وسائر مؤلفي الشرق والغرب عن كتبه و رسائله. كان الدين المانوي دين أدب، لذلك لجأ رجال دينهم إلى كتابة الرسائل والكتب في البحث والجدل وكل ما يتصل بالدين، أو اتباع الديانات الأخرى، وكان هذا الأمر متعارفاً عليه بين المانويين العرب والدعاة، وقد أثبتت ذلك الوثائق المانوية التي اكتشفت في آسيا الوسطى، وضبطت هذه الفقرة كذلك في كتاب الحيوان.

تتميز هذه الكتب بغلافٌ مُزيَّن وورق نظيف وكانوا يكتبونها بخط جميل. علماً أن بقية الكتب لا ترقى إلى هذا المستوى، وأصبح هذا الأمر صناعة لهم، وبسبب هذه الصفات رغب الناس في شراء هذه الكتب وامتلاكها. كان لنشر هذه المؤلفات في أيام العباسيين الأثر المهم بين المسلمين، وعندما دخلت مجموعة في الدين المانوي، وأصاب البعض الآخر الشك في مبادئ الدين الإسلامي وأصوله، لم يُعامل هؤلاء القوم بقسوة في زمن الخليفة المنصور بشهادة مؤلفات المسلمين، حتى أن خَصيب طبيب الخليفة الذي كان يتظاهر بالنصرانية كان في الحقيقة زنديقاً، وكذلك كاتبه يزيد بن الفيض الذي سُجِن أيام المهدي واعترف بالزندقة.

إن قتل ابن المقفع لم يكن له سبب ديني كما نعرف، لقد دأب المهدي ابن المنصور على اعتقال المانويين وتعذيبهم، وأسس إدارة خاصة بالبحث عن المعتقدات، وكان يرأسها صاحب الزنادقة، أو عارف الزنادقة، وأجبر مجموعة من علماء السنة على تأليف الكتب ضد المانويين، لذلك ألف علماء المانوية كتباً في نقضها، يجب التمعن هنا في طبيعة دولة العباسيين وأسلوبها حتى ندرُك سبب قسوة الخليفة العباسي المهدي وخلفائه تجاه المانويين والمشككين وغير المتدينين.

(لم يكن تأسيس الدولة العباسية انقلاباً سياسياً فقط، بل دينياً أيضاً، كانت الدولة الأموية دنيوية، وكان رجالها يحافظون على الروايات والعادات العربية في مقرهم في دمشق قرب البادية، ولكن العباسيين يعتبرون خلافتهم مُستمدة من

الله، وأسسوا الدولة وفق المبادئ السياسية والروحانية، أخذوا روايات وعادات الملوك الساسانيين، وكان عنوانهم ليس عنوان شيخ العرب وإنما مَلك إيران، جعلوا الحقّ أساس قدرتهم مثلما فعل الساسانيون، يريد العباسيون كالساسانيين إحياء الدين الحقيقي الذي دَبّ فيه الخلل والتشويش لدى أسلافهم، كان مَلكهم ملكاً روحانياً وليس دنيوياً وكان العباسيون كالساسانيين يجدون أنفسهم آلهة وأصبحت دولتهم مؤسسة دينية (Etat) ومعبداً عاماً يقف على رأسه خليفة بحق الرسول (خليفة الله)، ويصبح مبدأ تظاهر العقيدة (Confessionnalisme) أصل إدارة الدولة عوضاً عن التسامح العقائدي (Confessionnel) الذي كان معمولاً به في زمن الأمويين، الذين كانوا ينظرون بإحتقار إلى المتألهين المناوئين لهم. إن عقيدة الـ (dogme) كانت منذ البداية الفكر الأساسي لأول خليفة عباسي، الذي بدأ حكمه بالسعي للمحافظة على السُنّة في المُلك وإيجاد معتقدات ترتبط بالقضايا السامية، في الوقت الذي قام فيه بعض المتعصبين كالمأمون بضرب الرافضين والمعارضين لهم. خلاصة القول فمقابل الكثير من الأشياء الجيدة التي وصلت من الساسانيين إلى العباسيين فقد وصلهم أيضاً أمر كان أحد الأسباب المهمة في انقراض الدولة الساسانية الا وهو اتحاد الدين الزرادشتي والدولة (أو السياسة): رغم هذا فإذا تصورنا أن الأمر المذكور كان المحرك الوحيد لقتل وتعذيب معارضي الدين الإسلامي نكون قد أخذنا بنظر الاعتبار بشكل ناقص الحالة الحقيقة لبلاط الخلفاء، ففي أغلب الموارد التي كان يُقتل فيها الأشخاص بجرم الزندقة، كانوا ظاهرياً يُجبرون على هذا العمل للمحافظة على شرائع وشعائر الدين، لكن باطنياً كان هناك دوافع شخصية، فمثلاً قام سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بقتل ابن المقفع بذريعة الدين، ولكن السبب الحقيقي كان العداء الشخصي للخليفة المنصور لسفيان. كذلك قُتل عبد الكريم بن أبي العوجاء على يد محمد بن سليمان بدافع الزندقة لكن الاحتمال الأقوى هو الغرض الشخصي، وحادثة بشار بن برد مع الخليفة المهدي. كما أن هناك دوافع سياسية وشخصية وراء مقتل ابن أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله وزير وكاتب المهدي، وسجن أبو نواس الحسن بن هاني بأمر من محمد بن هارون بحجة الزندقة، وكان السبب الأساس تعرضه في الشعر إلى الخليفة، إذن كثير ممن لم يكونوا مانويين واتهموا بالزندقة كان لأسباب سياسية وأدبية، وكان موضوع الزندقة حرية يستعملها أغلب الناس في هذا العصر لضرب أعدائهم.

مثلما ذكرنا قبل ذلك فإن التعامل بقسوة مع الزنادقة بدأ منذ زمن الخليفة المهدي. يقول الطبري في ذكر حوادث عام (163 هـ) عندما وصل المهدي إلى حلب، بعث عبد الجبار المحتسب لجلب الزنادقة الذين كانوا في هذه الناحية، جلبهم عبد الجبار إلى المهدى في دابق، فقتل المهدي جماعة منهم ومزق كتبهم بالسكين.

في عام (166 هـ) تم اعتقال داود بن روح بن حاتم وإسماعيل بن سليمان بن مجالد ومحمد بن أبى أيوب الملكي ومحمد بن طيفور بجرم الزندقة، وأقروا بها، وأجبرهم المهدي على التوبة ثم افرج عنهم وبعث داود بن روح إلى والده الذي كان عاملاً على البصرة وأمره بتأديبه، في العام ذاته قُتل بشار بن برد، ألقى المهدي القبض على يزيد بن الفيض وأجبره على الإقرار بزندقته ثم ألقاه في السجن لكنه هرب ولم يعثروا عليه، وفي العام نفسه جاؤا إلى المهدى بوضّاح الشَرَوِيّ و عبد الله بن أبى عُبيد الله واعترف عبد الله بالزندقة، وأمر المهدي بقتله ثم قتلوه، ودفنوه دون أن يضعوا رأسه على القبلة.

بعد وفاة المهدي، نهج الهادي نهج والده، خاصة أن المهدي قد أوصاه بذلك، عندما وصل الهادي إلى الخلافة شدد الخناق عليهم وقتل مجموعة منهم ومن بينهم يزدان بن باذان كاتب يقطين بن موسى وابنه علي بن يقطين من أهل النهروان، والذي شاهد في الحج الناس يقفزون وقت الطواف قال إلى أي حد يشبه هؤلاء الناس الأبقار التي تدق البيدر وقت المحصول وقال علاء بن الحدّاد في هذا الخصوص:

أيا أمين البد في خلقـــــه	ووارث الكعبة والمنبـــــر
ماذا ترى في رجل كافـــر	يُشبّه الكعبة بالبيـــدر

وقال آخر:

قد مات ماني منذ إعصـــار	وقد بدا أزد أيـــا دارّ
حجّ إلى البيت أبو خالـــد	مخافة القتل أو العـــار
ووَدّ والله أبو خالـــد	لو كان بيت الله في النـــار
لا يقتل الحيّاتَ في دينـــه	كُفراً ولا العصفور في الـــدار
وليس يؤذي الفأر في حجـرة	يقول روح الله في الفـــأر

قتله الهادي ثم صلبه وسقطت خشبة المقصلة على أحد الحجاج فمات خوفاً، من الذين قتلهم الهادي في هذا العام أيضاً كان يعقوب بن الفضل من بني هاشم، استدعى المهدي يعقوب َواحد أبناء داود بن علي وطلب منهما أن يقرا بالزندقة، قال يعقوب، أنا اعترف أمامك بالزندقة ولكن لن أجهر بذلك أمام الناس، وقال المهدي، لو لم أتعهد بعدم قتل أي هاشمي، لكنت قد قتلتك ثم قال لابنه موسى عندما تستلم الخلافة اقتلهم، ثم القوهما في السجن، توفي ابن داود بن علي في السجن بعد وفاة المهدي، وبقي يعقوب في السجن، إلى إن صار موسى خليفة وعندما قدم من جرجان إلى بغداد نفذ وصية والده.

كانت أخت يعقوب فاطمة حاملة، وقد أقرت هي وأمها أمام المهدي بالزندقة عندما وصل هارون الرشيد إلى الخلافة، سلك نهج أسلافه، وفي عام (170هـ) أعطى الأمان لكل هارب، أو مختبئ، عدا الزنادقة أمثال يونس بن فَرَوه ويزيد بن المبيض.

في عام (187هـ) قتل هارون الرشيد انس بن أبى الشيخ الذي كان صديقاً للبرامكة لأسباب شخصية وبحجة الزندقة.

يُستنتج من هذه الفقرة التي ضُبطت في تأريخ الطبري أنه كان للزنادقة سجن خاص في عهد محمد الأمين، ويقال إن هذا السجن كان موجوداً قبله، ويبدو أن الأشخاص الذين يلقون في هذا السجن لم يكن لهم أي أمل بالنجاة، رغم أن المأمون كان ذا علماً وفضلاً اكثر من بقية الخلفاء ومارس التسامح الديني وخاصة في بداية خلافته، لكنه كان أحياناً يتعامل بقسوة مع الزنادقة، ولدينا عدد من الشواهد التي تثبت تسامحه، منح المأمون الأمان إلى يزدان بخت رئيس المانويين وكان رجلاً فصيحاً ومتحدثاً، واستدعاه من الريّ للمناظرة وردُ عليه المتكلمون بحضور الخليفة الذي قال له يا يزدان عليك بالإيمان: قال يزدان بخت يا أمير المؤمنين نصيحتك مسموعة وقولك مستجاب ولكنك من الأشخاص الذين لا يجبرون الناس على ترك مذهبهم، قال المأمون نعم، ثم عيَن أشخاصاً لحمايته وحراسته خوفاً من ثورة الغوغاء عليه.

من الفقرات التي تثبت القسوة ضد المانويين ما نقله أبو المعالي في باب إحدى المناظرات التي حدثت بحضور الخليفة:

(في عهد المأمون أمر أصحاب المذاهب للمثول أمامه للمناظرة وحضر رجل متكلم من المذهب الثنوي وكان يناظر على أساس هذا المذهب أمر المأمون بإحضار متكلمي وفقهاء الإسلام لمحاورته، وعندما وصل الدور لهذا الرجل قال: أرى عاملاً على الخير والشر والنور والظلمة والحسن والقبيح، وَينصَ على أن كل واحد من هذه الأضداد يجب أن يصنع الآخر، بدون اللجؤ إلى العقل، واستمر في طرح مثل هذه الحجج، ثم خرج صوت من أهل المجلس يقول يا أمير المؤمنين إن المناظرة مع مثل هذا الشخص لا تجدي نفعاً إلا بالسيف، صمت المأمون برهة ثم سأله ما هو المذهب، أجاب، المذهب يصنع شيئين أحدهما الخير والآخر الشر، وكلٌ يعرف عمله ومن يفعل الخير لا يفعل الشر، ومن يفعل الشر لا يفعل الخير، قال المأمون: هل كلاهما قادر على أفعاله، أم عاجز، أجاب كلاهما قادر على أفعاله، والصانع لا يكون عاجزاً إطلاقاً، قال المأمون، لا يوجد عاجز ينفذ إليهما؟ قال كلا وكيف يكون المعبود عاجزاً، قال المأمون الله صانع الخير يريد أن يكون الجميع له، ولا يكون لصانع الشر، أو صانع الشر يريد أن لا يكون صانعاً للخير فهل يكون برغبتهم وميولهم أم لا؟ قال لا يكون، وليس هناك سلطة لواحد على الآخر، قال المأمون، إذن ظهر عجز كل واحد منهما، والعاجز لا يجوز أن يكون الإله، عندها بقي الثنوي متحيراً، أمر المأمون بقتله و أثنى عليه الجميع).

ينقل المسعودى أن المأمون سمع بخبر عشر زنادقة من أهل البصرة فأمر بإحضارهم جميعاً من شيخ وشاب، ثم نقلهم إلى بغداد مكبلين و أمر بقتلهم بعد أن رفضوا عن التوبة.

رغم ذلك فقد كان للزنادقة نوع من الحرية في عهد المأمون خلافاً لعهد الخلفاء الأربعة الذين سبقوه، وكان بعض الناس يتشبهون بلباس الزنادقة وأسلوبهم الظريف. كان لكلمة الزنديق معنيين كما سلف ذكره، أحدهما معنى خاص كان القصد منه المانوي، والآخر معنى عام كان القصد منه الكافر، أو المتشكك، أو الظريف، أو جميل العيش، أو عدم المكترث لشرائع الدين، من الصعب أحياناً تجزئة المجموعتين عن بعضهما بسبب الخلط والاشتباه وأغراض وتعصب المؤلفين لكن نريد هنا التحدث عن بعض اشهر الرجال الذين عُدوّ من المجموعة الأولى:

عبد الله بن المقفع تصوَّر بعض المؤلفين المسلمين المتأخرين أنه زرادشتي لكن

السيد عباس إقبال أزال هذا الاشتباه في رسالته. يعّد ابن المقفع أحد الأشخاص الذين نقلوا آثار المانويين وابن ديصان ومرقيون من البهلوية إلى العربية، وكان في خلافة سليمان بن عبد الملك (96-99 هـ) عاملاً للخراج، ولابد أن عمره كان في ذلك الوقت عشرين عاماً وبما أنه عاش حتى عام (142 هـ)، لذلك فقد بلغ عمره (65) عاماً، آسلم عام (132 هـ) على يد عيسى بن علي، وحسب ما ذكرنا فقد تم ذلك وعمره اكثر من خمسين عاماً، يعني أنه اسلم لمدة عشرة أعوام فقط، ولا نعرف إطلاقاً هل أنه ترجم تلك الكتب عندما كان على الدين المانوي أم بعد إسلامه، لذلك يجب التفكير ملياً في تهمة الزندقة التي نسبت إليه أواخر عمره.

من الممكن أن ميوله لدينه القديم لازال قائماً بعد إسلامه وهذا ليس بالدليل الذي نعتبره مانوياً وهذا ينسحب أيضاً على إسلامه، خلاصة القول من الصعوبة بمكان الحكم على الآراء الدينية لابن المقفع، لقد أورد البلعمي فصلاً عن الزنادقة في عهد الهادي في ترجمة ملخص الطبري لكنه غير موجود في نص الطبري، يُستنتج من هذا الفصل أن المؤلف ذكر الزنديق خاصة بمعنى الكافر والمادي والدهري وتطرق إلى عدد من رؤسائهم، مثل صالح بن عبد القدوس وعبد الله بن المقفع ويزدان داد وعبد الله بن أبي عبيد الله وزير المهدي وعبد الله بن داود بن علي بن عبد الله بن العباس ويعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن كبير بني هاشم، ويقول: (إن هؤلاء الكبار من الزنادقة وقالوا لا يوجد أي شيء في المذهب الإسلامي اكثر رصانة ومتانة من القرآن، ولا يفتخر المسلمون بشيء سوى القرآن، ويدعي هؤلاء، أنه منذ اليوم الذي نزل فيه القرآن ولحد الآن يتحدث الخطباء والمتحدثون والشعراء والفصحاء عن أن أي شخص لا يمكنه أن يأتي بآية من القرآن (لأن اجتمعت الجن والأنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كانوا بعضهم لبعض ظهيرا). إذن اجتمع هؤلاء الزنادقة وقالوا يجب الآن أن نضع قرآناً بنفس الفصاحة والكلام والمعنى عندها نقول للناس إننا نستطيع أن نفعل ذلك، ونثبت لهم أن محمد (ص) قد وضعه، وتبايع على ذلك أربعة من كبارهم احدهم عبد الله بن المقفع والآخر صالح بن عبد القدوس والثالث عبد الله بن أبي عبيد الله الوزير والرابع عبد الله بن داود بن علي وكان من فصحاء القوم ولكن عبد الله بن المقفع أكثرهم فصاحة وفعل ذلك سراً). لا يُعرف بالضبط أساس هذا الكلام، ولكن الذي نعرفه أن هذا العمل نُسب أيضاً إلى أشخاص

آخرين. يبدو أن عقيدة المعتزلة عن خلق القرآن كان لها الأثر في ظهور الفكر المذكور يعني كتابة نقيض أو شبيه له.

يُعدّد ابن الراوندي في كتاب الزمرد معجزات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) وعدّها من الخوارق وقال إن أصحابها سحرة دجالون (في الأصل محرّفون وظاهراً مخرّقون) والقرآن ليس كلام شخص حكيم، ولكن نجد في ذلك الكلام تناقض وخطأ وهو الذي ألّف كتاب الدافع لليهود في الرد على كتاب المسلمين وترتيبه. ألف ابن أبي العوجاء كلاماً في معارضة القرآن، وكان هذا الكلام موجوداً في خزانة كتب الصاحب لإسماعيل بن عبّاد الوزير المقتدر إضافة إلى كتب ابن الراوندي وصالح بن عبد القدوس. يزعم يونس بن أبي فَروَة أنه ألّف كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام وأرسله إلى ملك الروم وأخذ مقابل ذلك مالاً. كان بشار بن برد مدعياً، ويعتقد حماد عَجرَد إن شعره أفضل من القرآن الأمر الذي يدل على أن هناك اشخاصاً شرعوا في نظم القرآن وتأليفه وترتيبه خاصة في بداية القرن الثالث الهجري، كما أن الجاحظ المعتزلي له كتاب في وصف ومدح القرآن، ويقال إن قصده لم يكن ذكر فضائل ومحاسن القرآن فقط بل ردّ أقوال معارضي القرآن و إثبات ضعف رأيهم وأقوالهم. تبدو آثار وإمارات وضع وتزييف هذا الخبر واضحة في منقولات البلعمي، إضافة إلى أن عصر الأشخاص الثلاثة المذكورين لا ينطبق مع عصر أشخاص كابن المقفع.

1 - قَتَل المهدي صالح بن عبد القدوس عام (166هـ)، يعني بعد (24) عاماً من مقتل ابن المقفع وعبد الله بن أبي عبيد الله الذي قُتل عام (166هـ) حيث كان شاباً عند مقتل ابن المقفع وكذلك عبد الله بن داود بن علي الذي مات في السجن بعد مدة قصيرة من وفاة المهدي (199هـ)، وكان شاباً أيضاً عند مقتل ابن المقفع (وربما لم يولد بعد) حتى يتمكن من مشاركة ابن المقفع في تدوين مثل هذا الكتاب. يُستنتج كذلك مما ذكره البلعمي، لو كان لمثل هؤلاء الأشخاص مثل هذا الخيال فلماذا لم يحولوه إلى حقيقة، لأنه يقول: استمر ابن المقفع ستة أشهر في هذا العمل وكان يكتب ويمزق أكواماً من الورق ولم يتمكن من كتابة كتاب كالقرآن، وهذا يعني أن مثل هذا الكتاب لم يكتب إطلاقاً من قبل ابن المقفع وحتى إنه لم يفكر في هذا الموضوع أصلاً، لكن ليس من المستبعد أن أشخاصاً بعده فكروا بذلك وكتبوا شيئاً مشابهاً. وأخيراً قتل ابن المقفع بسبب عداء المنصور الشخصي له

وكذلك سفيان عامل العراق وحسب ما ذكر حماد عجرد فقد كان لأبي أيوب سليمان الموریاني يداً في مقتله.

2 - أبو عمرو حماد بن يحيى عجرد مولى بني أسد بن عامر، ولد في الكوفة وكان صاحب قريحة في الشعر، عمل في الموصل كاتباً ليحيى بن محمد بن صول ثم كاتباً في البحرين لعقبة بن سلمَ. وعدُ من أصحاب ابن المقفع، وهو أحد الذين ألفوا كتاباً في دين الثّنوية، اعتبره بعض المؤلفين زنديقاً وكان سيئ الصيت بين الناس، بحيث أن هارون الرشيد لم يختاره في بداية الأمر مؤدّبٌ لمحمد الأمين لكن أخيراً اختاره لذلك، جمع أخباره أسحق الموصلي.

3 - يحيى بن زياد الحارثي المعروف بالزندقة ومن أصحاب ابن المقفع وحماد و له مؤلفات في دين الثنوية.

4- مطيع بن إياس الليثي الكناني من أصحاب ابن المقفع وممن ألف في مذهب الثنوية وكان شاعراً، خطب هارون الرشيد ابنته، وقد اعترفَ بتعلمه لتعاليم المانويين وكتبهم، كان مطيعاً للعرب حسب ما يؤكد ذلك نسبه وهو العربي الذي اعتنق الدين المانوي وتوفي عام (169 هـ).

5 - بشار بن بُرد من كبار الشعراء، ولد من أم عمياء أصله من تخارستان وكان أجداده من أعزة القوم فيها كان له ميول شديدة إلى آداب الإيرانيين ورواياتهم ويحوم الشك حول زندقته، قال بعض المؤلفين إنه كان يؤمن برجعة الأموات قبل القيامة و اعتبروه أحد الكامليّة وهي فرقة من الروافض أتباع أبي كامل، ويقولون إنه كان يعطي الحق إلى إبليس في أفضلية النار على التراب. لا يمكن اعتبار هذه الروايات دليل على كونه مانوياً لأن إعطاء الحق لإبليس لم يكن من أفكار المانويين إطلاقاً، يبدو أنه كباقي معاصريه له عقائد هي مزيج من العناصر الإسلامية والفارسية القديمة لذلك اشتهر بالزندقة، ورغم أن آثار المعتقدات القديمة لم تمح من خاطرته وكذلك أغلب مواطنيه لذلك لا يمكن القول عليه أنه كان زنديقاً بالمعنى الدقيق.

كان بشار شاعراً سليط اللسان ولم يأمن الناس من شر لسانه، وفي النتيجة أطاح لسانه برأسه، هجا يعقوب بن داود وزير الخليفة وكان في شعره نوع من التعرّض للخليفة المهدي الذي أمر بجلده حتى الموت، يقول صاحب الأغاني (ج 3

ص 247، الطبعة الجديدة – مصر)، أمر المهدي عبد الجبار صاحب الزنادقة بجلد بشار بن برد، وجلده إلى أن مات. ويقول في موضع آخر (ج3 - -ص250)، عندما جاء المهدي إلى البصرة كان يرافقه حمدويه صاحب الزنادقة، سلمه بشار وأوصاه بجلده حتى الموت.

6 - عبد الكريم ابن أبي العَوجاء، يقال كان يتظاهر بالإسلام وفي الباطن كان مانوياً. كانت له عقيدة خاصة عن الخير والشر وكان بعض المانويين يعتبرونه نبياً، اشتهر في وضع الحديث وعند قتله اعترف انه كتب وروج أربعة آلاف حديث، يعترف بالتناسخ وبميل إلى الرافضية في موضع الأمانة وسار في ركب أصحاب القدر في أبواب العدل والظلم، غيّر أحكام الشريعة بكل مهارة، قتله محمد بن سليمان عامل الكوفة عام (155 هـ) بعد أن سجنه بتهمة الزندقة، زعم انه ألّف كلاماً في معارضة القرآن، وكان قد طرح مسألة المعاناة الإنسانية بحضور الإمام جعفر الصادق (ع).

7 - أبو شاكر الديصاني – عُدّ من الأشخاص الذين تظاهروا بالإسلام وآمنوا بماني في الباطن، عدّهُ بعض المانويين نبياً، يبدو أن أبا شاكر لم يكن مانوياً وإنما من اتباع ابن ديصان، ثم أسلم، كانت له علاقة مع الرافضية ومنهم هشام بن الحكم (المتوفى 199 هـ).

8 - أبو أُسامة بن الحُباب الأسدي – كان نديماً للمهدي، شاعراً أديباً وظريفاً وربما اُتِهمَ بالزندقة لهذا السبب.

9- صالح بن عبد القدوس – مولى قبيلة الازد وكان يقوم بالوعظ في البصرة ودمشق عُدّ أحد الزنادقة، كان متكلماً وشاعراً، له نظرة ثاقبة في شعره، أشعاره مليئة بالحكمة وابتعد عن المديح ويذكر في شعره غالباً أسماء الملوك والأبطال الإيرانيين وضمّن شعره أحياناً بعض معاني الزندقة. عندما اتهم بالزندقة طلبه المهدي وتحدث معه وسعد لعلمه وأدبه وحكمته الغزيرة ثم أفرج عنه ثم استدعاه مرة ثانية وقال له أنت لست بالشخص الذي يقول تلك الأشعار قال نعم، أمر الخليفة بقتله، وتقول رواية أخرى، سمع المهدي أنه تعرّض إلى الرسول (ص) في بعض أشعاره، استدعاه وقال له أنت الذي قلت هذه الأبيات لكنه أنكر وقال لم اتبع الشرك إطلاقاً، لا تسفك دمي بمجرد الشبهة ثم قال، اقرأ لي قصيدة فلان،

وعندما وصل إلى (الشيخ لا يترك أخلاقه) أمر بقتله، وتقول إحدى الروايات إنه قطع نفسه بالسيف، كانت له مناظرات مع أبي الهديل العلاف، اشتهر صالح بالزندقة، كان في أشعاره إشارات تدل على الفسق، ولكن ليست هناك أدلة كافية على كونه مانوياً، سعى بعض الأشخاص لتبرئة ساحته بعد مقتله وعَدّوه بريئاً.

انتشرت كتب الزندقة مثلما شاهدنا في بداية دولة بني العباس، وإن قوة الزنادقة وكثرة عددهم مرهون بهذا الأمر، كما أشار إلى ذلك المؤلفون. إن الأشخاص الذين قبلوا دين ماني، لم يكونوا من الإيرانيين فقط وإنما من العرب وحتى من بني هاشم وقد مرّ ذكر ذلك.

لم تنحصر نتيجة تبليغات المانويين في اعتناق بعض المعاصرين للمانوية وإنما كان لها الأثر البالغ في إثارة الشكّ وإضعاف عقيدة الناس، يعني انتاب بعض الناس الشكّ في صحة آراء دينهم دون اعتناقهم للمانوية، وربما كان هذا الموضوع السبب الرئيس وراء إطلاق كلمة الزنديق على الكفرة.

أما المانويون الحقيقيون فكانوا من المتعبدين الزهّاد ويتجنبون الأعمال القبيحة ويفكرون بالآخرة، لا يأكلون اللحم ولا يلوثون الماء ويعترفون بمبدأي النور والظلمة (خاصة أن أساس دينهم يستند إلى عبادة الجَمال ومظاهره المختلفة وتقربوا لكل ما هو جميل ولطيف وظريف، ويرتدون الملابس النظيفة ويعطرون أنفسهم وملابسهم بالبخور، وضُرب بهم المثل بين المسلمين بالطبع الحسن والرجولة والذوق والفصاحة كذلك وظرافة المانوية في المخاطبة والمنادمة)، كانوا في منتهى الصدق ولم يؤمنوا بالتقية وكتمان معتقداتهم، وكان الكذب من الذنوب لديهم، وكذلك التظاهر بخلاف آرائهم الباطنية، ونشاهد هذا الأمر في اغلب الموارد وهذا يؤيد تمسكهم بالدين وثبات قدمهم، وسهل ذلك الأمر اعتقالهم، وخاصة أن عاداتهم في الطعام سهلت عملية تشخيصهم.

كان لتعاليم الدين المانوي الأثر البالغ في تنامي وتطور البحث والجدل الديني بين الفرق الإسلامية، وتأثرت بعض هذه الفُرَق وخاصة المعتزلة بشكل مباشر، أو غير مباشر بفعل أو ردّ فعل الأفكار المانوية، اقترنت فترة ازدهار ورقي آراء المانوية في المجتمع الإسلامي مع قوة المعتزلة، مما أدى إلى ظهور جدل ومناظرة بين المعتزلة والمانوية وكل فرقة منهم عملت على ردّ آراء الفرقة الأخرى.

كان للأفكار المانوية الأثر البالغ بين الرافضيين، ومن الملاحظ أن عدداً كبيراً من الأشخاص الذين اتهموا بالزندقة والمانوية، كانت لهم علاقة قريبة بالرافضيين، ومنهم: أبو عيسى الورّاق وتلميذه ابن الراوندي، ونعمان، وابن جالوت من شيوخ الراوندية. والآن نستعرض أسماء عدد من الكتب التي دونت في الردّ على آراء المانويين حتى القرن الرابع الهجري.

كتاب الرد على الزنادقة وكتاب الرد على أصحاب الاثنين لأبي محمد هشام بني الحكم مولى بني شيبان الكوفي وهو من المتكلمين الشيعة (المتوفى عام 199 هـ).

كتاب الرد على أصحاب التناسخ والخُرميّة لأبي علي محمد بن عبد الوهاب الجُبّائي (235-303 هـ) وبما أن المانويين اعترفوا في احد الموارد بالتناسخ فليس من المستبعد أن تكون في هذا الكتاب إشارات أيضاً في رد أقوالهم، ألف أبو محمد حسن بن موسى النوبختي كتاباً أيضاً بعنوان الردّ على أصحاب التناسخ، وليس من المستبعد أنه ردٌ على قول المانويين في التناسخ، كتاب الرد على الزنادقة لأبي الربيع محمد بن الليث الخطيب كاتب يحيى بن خالد وكان يُحسّنُ إليه البرامكة، وقد دعاهم للزندقة ويبدوا أن هذا الكتاب قد أُلف للرد على هذه التهم.

كتاب الردّ على الزنادقة والجَهميّة لأحمد بن محمد بن حنبل (164-241هـ) كتاب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في ردّ موضوعات سيس المّاني في سبع مباحث كذلك ردّ المسعودي في كتاب الإبانة في أصول الديانة على آراء ماني وسائر فرق الثنوية، وكتاب الردّ على الزنديق اللعين ابن المقفع تأليف الإمام ترجمان الدين القاسم بن ابراهيم الحسني الرسي (المتوفى246هـ)، كتبه الإمام قاسم في الردّ على رسالة اعتبر أن ابن المقفع كان قد كتبها، لكنها ليست لابن المقفع كما أثبت ذلك السيد إقبال في رسالة (شرح حال عبد الله بن المقفع الفارسي) (1926م) وقد أشار إلى هذه النقطة المستشرق الإيطالي غويدي الذي طبع هذه الرسالة عام (1927م). كتب أبو عنان الرقّي وهو من أصحاب ابراهيم النظام كتباً في التوحيد والرد على الملحدين وله وجهة نظر فيها عن المانويين وآرائهم، صحيح أننا لا نعرف كتاباً في هذا الخصوص لإبراهيم النظام، ولكن يُستنتج من الكتب الأخرى أنه كان يناظر المانويين في مسائل مثل الصدق والكذب وامتزاج المتضادين والهمامة وقطع المسافات وتناهي النور والظلمة وكيفية تباينهما، نذكر أدناه بعض الزنادقة الذين لهم تصنيفات في الدفاع عن دينهم ونقضوا فيها كتب المتكلمين المسلمين:

ابن طالوت وأبا شاكر الدّيصاني وابن أخيه، وابن الأعدي الحريزي، والنعمان، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وصالح بن عبد القدوس وحماد عَجرد، ويحيى بن يزاد ومطيع بن إياس.

ألف بعض رؤساء المانوية مؤلفات ضد الأديان الأخرى منهم: يزدان بخت الذي ألف كتاباً في الرد على النصارى، وجبرئيل بن نوح النصراني ألف كتاباً في الرد عليه، يبدو أن يزدان بخت هذا هو رئيس المانويين وكان يقيم في الري واستدعاه المأمون إلى بغداد، وبعد أن ناقشه المتكلمون اقترح عليه المأمون أن يعتنق الإسلام ورغم رفضه وضعه المأمون تحت حمايته. كان للمانويين مناظرات مع الزرادشتيين، ومن المحتمل أنهم ألفوا في الرد على النظريات الدينية لكن ليس لدينا معلومات عن هذه الكتب.

توجد إشارات كثيرة عن المانويين في كتب الزرادشتيين في القرن الثالث الهجري ومنها رسالة شكند كمانيك ويجار (البيان يزيل الشك) باللغة البهلوية في مدح الدين الزرادشتي وتشتمل على بحث ديني يتعلق قسم منه بالمانويين، وتحتوي هذه الرسالة أيضاً على تقرير مجمل عن عقائد المانويين يدعى مؤلفها مردان فرّوخ ابن اهور مزدات، موضوع الرسالة بيان عقيدة الزرادشتية في الفصل بين الخير والشر ويرفض المؤلف معتقدات الديانات الأخرى ومنها معتقدات المانويين وقد كُتبت في فصلين، الفصل الأول في بيان معتقداتهم والآخر في ردها.

لم يكن لأتباع ماني أي تعصب ديني ولم يكن مذهبهم بتلك القوة التي يستطيع من خلالها إسكات المعارضين، أو حتى القضاء عليهم والذين كان عددهم كثيراً في الدول الإسلامية خاصة في العراق الذي كان مركزهم، بعد ذلك تم تشديد الخناق عليهم وخاصة أواخر القرن الثالث الهجري من قبل المعارضين، مما أضطرهم لترك ديارهم، وحدثت آخر هجرة جماعية لهم في عهد خلافة المقتدر بالله (295-320هـ)، وقد وصلوا إلى خراسان وأخفى من بقي منهم في بلاد العراق وأطرافه آرائه ومعتقداته، وكانوا يتنقلون في هذه البلاد من مكان إلى آخر، وتمتعوا بحرية أكثر مع بقية الفرق الدينية في عهد معّز الدولة البويهي (946-967م) قال ابن النديم إن (300) منهم فقط كانوا في بغداد، وبدأت بعد ذلك ملاحقتهم من جديد وإلحاق الأذى بهم، ويقول المؤلف إنه لم يعرف حتى خمسة أشخاص منهم في المدينة المذكورة في وقت تأليف الكتاب (قبل عام 377هـ، وهي سنة وفاته) يزعم المؤلف أن

هؤلاء القوم كانوا يسمّون الآجاريين، كانت هجرة المانويين إلى شمال شرق إيران خاصة ونهر جيحون، يقول ابن النديم: تجمعٌ منهم في سمرقند حوالي خمسمائة واشتهروا هناك، أراد صاحب خراسان (ملك السامانيين) قتلهم. يقول المؤلف (أعتقد أن صاحب تُغُزغُز (Toguzoghu) في تركستان الصينية شرق كاشغر بعث رسالة إلى ملك الصين يقول فيها لدي الكثير من المسلمين أكثر ممن هم على ديني في البلاد الأخرى وقد أقسم إذا قُتِل أحد المانويين فسأقوم بقتل عدد من المسلمين وتدمير المساجد وأرسل أشخاصاً لملاحقتهم وقتلهم في بقية المدن، عندها سحب صاحب خراسان يده عنه واكتفى بأخذ الجزية منهم، كان عددهم في خراسان كثيراً حتى أواخر القرن الرابع الهجري وكانوا يمارسون عاداتهم بشكل علني وسكنوا في رساتيق سمرقند والسُغد وخاصة مدينة نو ويكت (الفهرست ص،337).

يقول البيروني بقي من أتباع ماني البعض القليل تفرقوا في البلدان ولا يُشاهدون في مكان واحد من بلاد الإسلام، إلا في سمرقند التي يعرفون فيها بالصابئين، أما خارج الممالك الإسلامية فإن أغلب التركان الشرقيين وأهل الصين والتبت وبعض الهنود كانوا على دين ماني، لقد عاش المانويون بأمان تحت الحماية السياسية لصاحب تغوزغز في سمرقند حتى الوقت الذي ألف فيه المؤلف كتابه (372 هـ). انتشرت كتب المانويين في الممالك الإسلامية حتى أواخر القرن الرابع الهجري ولم تكن هناك أدنى مشكلة في العثور عليها. مثلما حصل ابن النديم على بعض منها ومن بعده البيروني ورجعا إليها في مؤلفاتهما.

لدينا معلومات قليلة عن وجود أتباع مزدك في إيران وخارجها. لقد وقعت مذبحة المزدكيين الكبرى أواخر حكم قباد واضطرت على أثرها مجموعة منهم إلى إخفاء معتقداتهم وآرائهم، ويبدو أن مجموعة منهم قد فرو إلى البلدان البعيدة. انتقل الدين المذكور إلى خارج إيران عندما كان مزدك حياً. يقول ابن قتيبة في ذكر أديان العرب في الجاهلية: كان الدين المجوسي يوجد لدى تميم وكان زُراره بن عدس التميمي وابنه حاجة بن زُراره مجوسيين، تزوج زُراره ابنته ثم ندم على ذلك والآخر أقرَع بن حابس وأبو سود جدّ وكيع بن حسان. كانت الزندقة (دين مزدك وماني) موجودة بين قريش الذين أخذوها من الحيرة، يقول اليعقوبي: دخل بعض العرب دين اليهود والبعض الآخر اعتنق النصرانية وقوم منهم اتجه إلى الزندقة واختار حُجر بن عمر الكندي الزندقة. يقول مطهر بن طاهر المقدسي في ذكر

شرائع الجاهلية: كان أشخاص في تميم على دين مزدك ودين المجوس ويضيف قائلاً إن حارث بن عمرو المعصوب بن حُجر آكل المُرار جاء إلى قباد واعتنق الدين المزدكي، ونصبه قباد ملكاً على العرب وعندما تسلم أنو شيروان الحكم أعاد المُلك إلى المنذر بن امرىء القيس.

كان المزدكيون يعيشون بأمان بعد الفتح العربي حتى أواخر العهد الأموي وكان مُبلغوهم ودعاتهم يعملون في هذه المدة على نشر الدين المذكور وكان في أغلب نواحي إيران أشخاص من هؤلاء القوم يطلق عليهم المؤلفون المسلمون أسماء مختلفة مثل المزدكيين والخرمدينيه والمحمرة وغيرها من المسميات، وسنتطرق إلى هذا الموضوع بشكل مفصل. لم يردنا أي عنوان لكتب المزدكيين قبل الإسلام. تحدّث أبو عيسى محمد بن هارون الورّاق (المتوفى عام 247 هـ) بالتفصيل عن آراء الثنويه وعقائدهم في كتاب المقالات. وقد نقل الشهرستاني في كتاب الملل والنحل قسماً مما أورده العالم المذكور عن دين ماني ومزدك في كتابهم، وبما أن الوراق كان من المتكلمين والعارفين بالأديان الإيرانية فإن بياناته في هذا الخصوص على درجة عالية من الأهمية والكمال، تشتمل منقولات الشهرستاني في هذا الموضوع على ثلاثة أقسام: ذكر المؤلف في القسم الأول صراحة قائلَ ذلك يعني أبو عيسى الوراق، ولكنه في القسمين الآخرين اكتفى بذكر (وحُكي عنه ورُوي عنه) ولكن ليس من المستبعد أن يكون الشهرستاني قد نقل قسمين من كتاب المقالات للوراق ويبدو أن القسم الثالث قد أُخذ من مرجع إيراني أو فارسي لذلك ليس من المستبعد أن يكون للمزدكيين قبل الإسلام كتب أو كتاب انتقل إلى أعقابهم. يقول المستشرق المعروف آرثر كريستن سن في هذا الخصوص: (لا نعرف مصدر ما نقله الشهرستاني عن الوراق والآخرين، فمن المحتمل أن هذه المقالات ترتبط أصلاً بالروايات التي قد اشتقت من الفرق الرافضية في العصور الإسلامية عن الدين المزدكي القديم كما أن تدمير الآداب المزدكية بأمر من خسرو أنوشيروان كانت قاسية للغاية لأن المؤلفين العرب والإيرانيين لم يتطرقوا إلى أي كتاب للمزدكيين، ومن الممكن وجود رسائل تحتوي على عناصر هذا الدين تتداول بين أتباع هذا المذهب ونحن بدورنا لا نعرف أي شيء حول هذا الموضوع وفي الوقت نفسه ليس لدينا دليل ننكر فيه وجود روايات أصلية لدى الفرق التابعة للدين المزدكي في القرون الإسلامية الأولى). ومن المؤكد أن المزدكيين الجدد، أو الخرمدينية كانت

لهم كتب ومؤلفات وسيتضح ذلك لاحقاً. سنطلع في الصفحات اللاحقة على أهم القضايا الدينية التي كان لها الأثر الكبير في الثورات والحركات، يعني قضية المهدي الموعود وظهوره ويجب أن نتوخى الدقة إلى حد ما في هذا الخصوص.



الفصل الأول

به آ فريد

المصادر: معلوماتنا ليست بالكثيرة عن الحالة المعنوية والدينية للإيرانيين في القرون الإسلامية الأولى، و لا نعرف على نحو دقيق مدى رسوخ الدين الإسلامي في قلوب الناس، وكم كان عدد الذين قبلوا هذا الدين بصدق بالنسبة إلى الأشخاص الذين بقوا على معتقداتهم وأديانهم، ولا نعرف على نحو دقيق كيفية تعامل العمال العرب مع الإيرانيين، وخاصة بالنسبة لأتباع الدين الزرادشتي ولم تصل إلينا أي وثيقة تاريخية تعود إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كما أن المعلومات قليلة جداً في الكتب الدينية للزرادشتيين، والمصادر العربية عن الحركات الدينية التي ندرسها هي المصادر الوحيدة في هذا المجال، و ما ورد في المصادر الفارسية مأخوذ من الكتب العربية. لا تطلعنا المصادر العربية في هذا الخصوص على الحقيقة كما هي. إن أغلب المؤلفين الذين أوردوا أخباراً في كتبهم عن هذه الأحداث افتقروا إلى الأسلوب التاريخي الصحيح والنقد، و لم يذكروا مصادرهم. لذلك لا يستطيع القارئ أن يجزم إن كان ما ورد في كتب المتأخرين هو رأي المؤلف شخصياً أم الآخرين، كما أن تاريخ أحوال الملوك والبلاط والأمراء والجيوش وعزل وتنصيب الحكام والانتصار والاندحار في المعارك وظهور الدعاة السياسيين من الأمور المعروفة في مؤلفات هؤلاء المؤرخين، ولكننا نجهل أسباب حدوثها.

ولكن بعد البحث الدقيق في هذه الكتب يمكن العثور على موضوع يفيدنا. إننا نجهل الحياة الاجتماعية والحقيقية للناس في الأزمنة التي كتب فيها الكتاب مؤلفاتهم هذه، وورد في إشارات مختصرة في الكتب في باب الآراء وظهور من يدعي النبوة وأحياناً نرى فيه أخطاء لا تُغتفر، ولا تخلو هذه الكتابات من التعصب الديني، لذلك يصبح عمل المحقق صعباً للغاية، ومما يزيد الطين بلة أخطاء النسّاخ الذين يوردون أسماء الأشخاص أو الأماكن خطأً. لذلك بقي ضبط الأحوال والآراء والاقدامات السياسية لأصحاب الفرق وترجمتهم بعيداً كل البعد عن وجهة نظر كتاب القرون الهجرية الأولى. لقد ألفت مجموعة من العلماء في هذا العصر كتباً مهمة في هذه الأبواب، ولكن أغلبها أُتلف بسبب التعصب الديني والمذهبي وعدم رغبة العامة في هذه الكتب والتي تعتبر قراءتها نوعاً من الكفر والإلحاد،

والكتب التي يمكن الاستفادة منها في هذا المجال هي التأليفات المعروفة بالمقالات والآراء والديانات والملل والنحل والتي يصل عددها إلى العشرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وقد فُقد أغلبها حسب ما ذكره المؤرخون مثل المسعودي في التنبيه والأشراف والبيروني في مقدمة كتاب الهند والآخرون.

ومن بين الحركات الدينية التي وقعت في إيران في هذين القرنين والتي لدينا معلومات عنها هي حركة (به آفريد)، ولكن كتب التأريخ المشهورة وكتب المقالات إما أنها لم تشر إليها إطلاقاً أو أوردتها بشكل مختصر، ورد اسم به آفريد في الوثائق التاريخية وأولها في كتاب الفهرست (ص 350) لابن النديم أبي الفرج محمد بن اسحق النديم المعروف بابن أبي يعقوب الورّاق البغدادي (298- 385هـ)، وقد ألفه عام (377هـ) يقول ابن النديم إن موضوعه منقول عن كتاب الدولة العباسية لابن اسحق إبراهيم بن عباس بن محمد بن صولي (176-243 هـ). يُعد هذا الخبر من الناحية التاريخية من أقدم الأخبار التي وصلت إلينا عن به آفريد، إن معلوماتنا تعود إلى مئة عام بعد مقتله لأنه قتل عام (131هـ). وفيما يأتي الكتب التي تحدثت بشكل مفصل نسبياً عن به آفريد:

- الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن يوسف الكاتب في كتاب مفاتيح العلوم الذي ألّف في حدود عام (370 هـ - 976م).

- البيروني: أبو الريحان محمد بن احمد المولود عام (362 هـ والمتوفى عام 440هـ) في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية والذي شرع بتاليفه عام (390 - 391 هـ).

- الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المولود عام (350 هـ- 961م) والمتوفى عام (429هـ-1038م) في كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم والذي ألّف بين (408 و412 هـ 1017- 1021م).

- الشهر ستاني: أبو الفتح محمد المولود عام (479هـ) والمتوفى عام (548هـ 1086- 1153م) في كتاب الملل والنحل والمؤلف عام(521هـ).

- العوفي: سديد الدين محمد في كتاب جوامع الحكايات و لوامع الروايات المؤلّف حوالي عام (630 هـ) .

- الشيخ مجد الدين الخرافي: في كتاب روضة الخلد المشهور بـ خارستان

أيضاً المؤلّف في شوال عام (733هـ).

- كتاب صور الأقاليم المؤلّف مجهول ألف عام (748 هـ) باسم الأمير مبارز الدين محمد (741- 760 هـ) من أمراء آل مظفر.

فضلاً عن هذه المصادر هناك إشارات في كتب أخرى مهمة عن به آفريد والـ به آفريديين سنذكرها في محلها.

ومن الكتاب والمحققين المحدثين زالمن (C. Salemann) الذي طبع فصولاً من كتاب صور الأقاليم الفارسي وفيه فقرة قصيرة (ص500- 501) عن به آفريد، و ذكر ما كتبه ابن النديم والخوارزمي وصاحب صور الأقاليم، ثم نشر النص الذي أورده الثعالبي في كتابه وترجمه وعلق عليه، ثم ورد شرح له في دائرة المعارف الإسلامية والذي لا يعرف كاتبه. بعد ذلك كتب الأستاذ إدوارد براون في كتاب تاريخ الأدب الإيراني فصلاً ممتعاً وجامعاً عن الحركات السياسية والدينية الإيرانية وتطرق إلى به آفريد، ونقل فقرة باللغة الإنجليزية من كتاب الآثار الباقية، ثم كتب الأستاذ إقبال آشتياني مقالاً مفيداً في باب (أقدم الآثار المفقودة للنثر الفارسي) في العدد الثاني من مجلة الشرق (ص 95- 98، طهران)، وترجم إلى الفارسية ما قاله البيروني عن به آفريد.

إن ما ورد في المصادر المذكورة أعلاه مثلما هو الحال في جوامع الحكايات للعوفي هو ترجمة للرواية التي كتبها أبو الريحان البيروني، ولكن العوفي حذف الفقرة المتعلقة بتعليمات به آفريد وما ذكره الثعالبي يوافق رواية البيروني مع بعض الاختلاف البسيط، ولكن أُضيفت إلى رواية الثعالبي بعض التفصيلات التي تشبه السرد القصصي إلى حد ما، وذكر المؤلف اسم مصدره قائلاً: إن الرواية المنقولة قد سُمعت من جماعة من الشيوخ في نيشابور، وذكر المرجع ليثبت لنا أن هناك روايات كانت تروى بعد قرنين من مقتل به آفريد.

إذن هو به آفريد فَروَر دينان يعني به آفريد ابن فروردين من أهل زوزن، ظهر في قرية سيرواند وهي من رساتيق خواف، وليس لدينا معلومات عن ولادته، كان به آفريد زرادشتياً ومثلما ذكرت أغلب المصادر ومثلما يؤكد على ذلك اسمه واسم والده. نحن نعرف أن عدداً كبيراً من الإيرانيين في هذه المناطق ومناطق أخرى كانوا قد بقوا على دينهم القديم، وتشاهد آثار الدين الإيراني في كل مكان، وكانت المراسم والشعائر الدينية تتسم بالحرية النسبية. كانت مدينة زوزن مسقط رأسه

في ذلك الوقت معبداً مهماً جلبوا له النار من أذربيجان، انتشرت التعاليم الإسلامية في ولاية خراسان لكونها كانت بيد العمال العرب كبقية المدن الإيرانية وسكنها العرب والإيرانيون المسلمون، و يبدو أن «به آفريد» كان على دراية بأصول وآراء المسلمين والتي أثرت في شخصيته كما سنشاهد ذلك، وبما أنه نُقل عن «به آفريد» كتابٌ فهذا يعني أنه كان مثقفاً ويعرف القراءة و الكتابة و لا بد أنه كسب شيئاً من المعرفة من خلال زيارته للصين وبلاد ما وراء النهر إذا صحت هذه الرواية.

ليس لدينا معلومات عن معنوياته وسيرته وأخلاقه، أو علاقته بالدين وشدة ارتباطه به لذلك فإن الوقوف على رأي معين صعب في هذا الخصوص، ولا يمكننا القول هل كان صادقاً في ادعاءاته أو أنها كانت تنسجم في ذلك الوقت مع أبناء دينه ووطنه؟، وهل كان مواضيع النبوة والدين والصبر وسيلة لتحرير نفسه وتحرير الإيرانيين؟.

من خلال القرائن التي ضبطها المؤرخون بشكل مختصر، وبالتدقيق والغور في تعاليمه التي كانت مزيجاً بين الحياة الدينية والاجتماعية، ربما نصل إلى نقطة وهي أن عاطفته الدينية لم تكن بتلك الدرجة التي تُبعده عن الحياة المادّية، ولكننا نستنبط من الأدلة أنه كان شديد الملاحظة.

كانت خراسان تشهد في ذلك الوقت حالة من عدم الاستقرار. كان نصر بن سيار عامل خراسان العجوز يقاتل حارث بن سُريج (المقتول عام 128هـ) من جانب، وكان في نزاع مع جُديع بن علي الكرماني في جانب آخر، وكان إبراهيم بن محمد الإمام قد بعث دُعاته إلى خراسان والتحق به عدد كبير من الناس، وكان أبو مسلم بصدد إعلان دعوته، وفي الحقيقة لم يكن في خراسان حاكم قوي يسيطر عليها، ويبدو أن به آفريد استغل هذه الفرصة المناسبة للترويج لدعوته، ولأن شخصيته قابلة للتأمل فقد ترك أثراً قوياً في أتباعه واستمر دينه قروناً بعد وفاته، وكان لسلوكه وقوله وعمله الأثر البالغ في أتباعه المعاصرين، إضافة إلى أقاربه و أهل مدينته، ونعرف من خلال سيرته قبل أن يعلن دعوى نبوته أنه سافر إلى الصين للتجارة أو لغرض آخر، ومكث هناك سبع سنوات، وجلب معه رداءاً من الحرير الأخضر ولكنه أخفاه، ثم (أعد أكباداً من الحمل وحمرها وهرسها و وضعها في كيس، وأخذ سكراً ولبّ اللوز وطحنه ووضعه في كيس آخر وصنع من

الكيسين وسادتين وأخفاهما، ولما مرض أمر زوجته أن تبنى له قبة فيها مجرى لماء المطر ثم أنه لفّ الوسادتين والقماش الحريري في كيس من القماش وقال لزوجته سأموت في أية لحظة، حافظي على وصيتي وأخرجي حاجتي عندما يحين وقتها. كانت زوجته تحبه جداً فقالت له ما وصيتك ؟ قال: ضعي هاتين الوسادتين في القبة، و لا تبعديهما عني، قالت المرأة: سأفعل ذلك، وما حاجتك ؟ قال تعالي إلى قبتي كل أسبوع و اغسلي وجهي بماء المطر المتجمع قرب القبة، وتعهدت له المرأة بذلك، وبعدها توفى به آفريد أو كما يبدو، وأقامت المرأة مراسم العزاء ونقلته من فراشه مع الوسادتين إلى القبة. كان به آفريد يأكل يوماً من الأكباد ويوماً من السكر ولب اللوز، ويشرب من ماء المطر، ومرّ عام وهو على هذا المنوال في القبة، رصد وقت تجمع الناس حول قبته لزيارته، عندها قام ولبس الرداء الأخضر وعندما شاهده الناس قال لهم: (أيها الناس: أنا به آفريد رسول ربي إليكم).

تقول رواية البيروني، عندما عاد به آفريد من السفر وجلب معه رداءً أخضراً لطيفاً، ذهب ليلاً أعلى القبة واختفي هناك، ونزل في الصباح وارتدى الرداء فشاهده رجلٌ كان يحرث الأرض في سفح الجبل، فقال له به آفريد: أنا الرسول وعندما كنت اختفي عنكم كنت أذهب إلى السماء وأشاهد الجنة والنار والتقي الله الذي ألبسني هذا الرداء وأرسلني إلى الأرض في هذا الوقت، صدق المزارع كلامه، وقال للناس إنني شاهدته ينزل من السماء، وتبعه عدد كبير من الزرادشتيين عندما شرع دعوته.

يقول مجد الخوافي إن به آفريد (جلب معه من الصين عدداً كبيراً من الصحون وكذلك قميصاً أخضراً عندما يطوى باليد يختفي... جاء في ليلة، واختفى في جبل قرب قرية، ونزل منه صباحاً ولبس قميصه، كان هناك رجلاً مزارعاً اسمه خداداد. قال له إن الله أوصى بي وبعث لي هذا القميص من الجنة والتف حوله الناس) .

يقول صاحب صور الأقاليم: (ظهر شخص في بداية خلافة آل عباس ذهب إلى سطح قبة في خراسان ليس لها طريق، وبقي الناس في حيرة عن كيفية صعوده إليها، سألوه من أنت ؟ قال: أنا نجيب المجوس، وجئت من الله حتى أدعو الناس لدين زرادشت، وجمع حوله في مدة قصيرة ثلاثين ألف رجلاً). على كل حال يتبين من هذه البيانات أن به أفريد بعد أن دعا إلى نبوته وجد من المناسب إعلان دعوته

في الأوضاع القلقة لخراسان واستعداد الناس للثورة ضد العرب، وكذلك لقوة شخصيته وقوة إيمانه لذلك تصاعد شأنه والتف عدد كبير من الناس حوله من مدينة زوزن وقرى خواف وزاوة بنشابور ومناطق أخرى، و لا تعرف بالضبط المدة التي استغرقها في إشهار نبوته، ويبدو أن أوضاع خراسان كانت عاملاً مساعداً له، لذلك توسع نشاطه بسرعة وخلال عامين فقط، ويجب التأكيد هنا على أن به آفريد اصطدم بموانع عديدة، مثل معارضة المُغان (رجال الدين الزرادشتيين... المترجم) والبعض من الزرادشتيين والمسلمين، لكنهم لم يمنعوا دعوته، لقد أرخ المؤرخون ظهوره وثورته في صدر دولة بني العباس أي بعد إعلان الدولة العباسية في خراسان وقبل ظهور أبي العباس، وقالوا إن مقتله كان في وقت مجيء أبي مسلم إلى نيشابور، من كل ذلك يمكن الاستنتاج أن ظهوره ودعوته والتفاف الناس حوله حدث في مدة قليلة بين أواخر عام (129- 131هـ). لأن أبا مسلم أعلن دعوته في رمضان (عام 129هـ) لذلك كان نشاط به آفريد شديداً وربما أن أوضاع خراسان الاجتماعية لم تساعد من قبل على ظهور رجل فمأل كأبي مسلم ولو كان الوقت مساعداً لـ به آفريد لكان عمله قد أخذ شكلاً آخراً. لا يُعرف بدقة هل أن به آفريد قد ذهب إلى المناطق التي التف الناس حوله فيها، أم أنه أرسل الدعاة إليها، لا يعرف عدد أتباعه عند مقتله. ذكر صاحب كتاب صور الأقاليم أنهم ثلاثون الفاً، وهذا الرقم لا يُعتمد عليه، و وردت عبارة (عدد كبير) في بقية المصادر لذلك يجب أن يتوفر لدينا مصدرٌ منه شخصياً، أو من أتباعه لكي نتمكن من معرفة جزئيات تعاليم به آفريد، ولسوء الحظ لا يوجد أي كتاب في هذا الخصوص. يقول البيروني (إن به آفريد وضع كتاباً بالفارسية لاتباعه) لكن عبارته ليست صريحة فهل كان الكتاب بالخط العربي أو البهلوي و لا نعرف محتوياته على وجه الدقة.

كان الجانب العملي يغلب على الجانب النظري في تعاليمه، وكان يعترف بوحدانية الله، ولكننا لا نعرف ما الصفات التي نسبها له، وكان يؤمن بالجنة والنار، ويعترف بالسماوات و الأرض والمخلوقات، إن أغلب تعليماته تعود إلى القوانين والأعمال التي يجب أن تتم في العالم المحسوس وضمن الحالة الاجتماعية، هناك سؤال يطرح نفسه وهو هل كانت عقيدته في القضايا الأخرى تتوافق مع عقائد الزرادشتيين ؟ لكن المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى ذلك، ومن جانب آخر تقول المصادر إنه كان يعتبر زرادشت نبياً، لكنه كان يعارض بعض

العقائد الزرادشتيه، إذن يتوارد للذهن سؤال آخر وهو إذا كان يعترف بزرادشت نبياً فلماذا إذن يعارض بعض معتقداته ؟ يظهر هنا تناقض في الموضوع ويبقى السؤال بدون جواب ! هل كان يعدُ نبوته أعلى من زرادشت ؟ أو أنه كان يتهم أتباع زرادشت بتزييف العقائد وتغيير تعاليمه ؟ نعرف من توجيهاته وتعاليمه أنه جاء بأشياء جديدة مقارنة بتعاليم زرادشت التي رفضها المُغان. وقبل كل شئ يجب الأخذ بعين الاعتبار ادعاءه النبوة. إن ظهور الأنبياء في الدين الزرادشتي يخضع لأوقات معينة ومعايير خاصة في الأصول الفارسية القديمة. إن العالم يستمر اثنا عشر ألف سنة، وظهر زرادشت في نهاية الألفية التاسعة من خَلق العالم، ويظهر الفساد في الدين في نهاية كل عام من ثلاثة آلاف عام المتبقية (أي في آخر الألفية العاشرة وفي آخر الألفية الحادية عشرة والثانية عشرة) ويطغى الشر، وفي هذه الحدود الثلاثة ظهر ثلاثة أنبياء تباعاً من أولاد زرادشت. ولذلك فإن ظهور «به آفريد» حدود عام (129هـ) لا يتفق مع الوقت الموعود.

يقول ابن النديم إنه كان يتنبأ وعنده أخبار المستقبل وحدد لأتباعه خمس صلوات بدون سجود صوب الغرب (في حال كون القبلة صوب اليسار)، أما البيروني فيقول: لقد كان اعتقاده أن الله بعث له وحياً في الخفاء وفرض سبع صلوات على أتباعه، واحدة في توحيد الله، وواحدة في خلق السماوات والأرض، وواحدة في خلق الكائنات، وصلاة في الموت، وصلاة ليوم الحساب والآخرة، صلاة في أهل الجنة والنار وكل ما هيئ لهم، أمر اتباعه بالسجود مقابل قرص الشمس، وقرر أن تكون على رجل واحدة. ويجعلوا الشمس قبلتهم في كل صلاة وأينما تكون، وأيد الثعالبي والشهرستاني ما ذهب إليه ابن النديم.

رغم أن به آفريد اعترف بوحدانية الله وصلاة التوحيد لكننا لا نعرف أي نسبة وضعها بين الله والشمس، كان للشمس منزلة أعلى في الدين الزرادشتي أواخر العهد الساساني مثلما ورد في مؤلفات كتاب بيزنطة وأرمنستان وسورية، و يبدو أن تعاليم به آفريد بشأن الصلاة نحو الشمس ترتبط ظاهرياً بالاحترام. تكثر في الدين المزدائي الصلوات والعبادات إذ انحصرت الصلوات التي أوصى بها به آفريد بسبع صلوات، وبذلك فقد قلل من عددها.. كانت العبادات في الدين الزرادشتي للشمس فقط وتتم في ثلاث مرات في اليوم مع بعض الاختلاف، أحدها في طلوع الشمس والثانية وقت الظهر والثالثة في الغروب.

كان به آفريد في الأصل زمزمياً ومن عبدة النار ثم ترك مذهبه وعبادة الشمس ومنع الآخرين عنها. كانت الزمزمة من مميزات الزرادشتين فقد أطلق المسعودي على كتاب الآفستا (كتاب الزمزمة). حرّم به آفريد الزواج من الأم والأخت وابنة الأخ والأخت والعمّة والخالة، وكان هذا الأمر شائعاً عند المزدائيين، يقول الأستاذ كريستين سن: أمام الشواهد الموثقة الموجودة في المصادر الزرادشتية وفي مؤلفات الأجانب، فقد ذهبت هباء مساعي بعض الفرس المعاصرين لنفي وجود زواج الأقارب في إيران، إن الزواج من الأقارب لم يعدّوه مباشرة غير مشروع (incestc) بل اعتبروه عملاً مقدساً وأجراً وثواباً من الناحية الدينية. لقد جاء في إحدى المراسلات المنسوبة إلى أردشير أن هذا الملك أوصى بالزواج من المحارم لتوثيق العلاقات العائلية ولكن هذه الحالة أصبحت من الأعمال المكروهة لدى المسلمين وخاصة الموجودة في الدين المزدائي. ترك الزرادشتيون هذه العادة شيئاً فشيئاً وبدأت هذه الرغبة في نيشابور ورساتيقها لنسخ هذا العمل بين الزرادشتين، لذلك نجد أن تعاليم به آفريد وجدت لها صدى اجتماعياً خاصاً.

قرر «به آفريد» أن لا يتجاوز مهر المرأة أكثر من أربعمائة درهم وأمر بإطالة شعر الرأس والبدن لكي يطول. يقول البيروني: إنه حرم المسكرات على أتباعه ويقول الشهرستاني: إنه حرم شرب الخمر، وهذا ما يؤكده الثعالبي ايضاً، وحرم أكل الميتة وقتل الحيوانات إلا عند شيخوختها وأمر بدفع سُبع الدخل مرة واحدة في العمر ويصرف هذا المبلغ لتعمير الطرق وإصلاح الجسور ومساعدة المرضى والمحتاجين. إن بعض هذه الشرائع والرسوم والآداب تعارض ما هو موجود عند الزرادشيين في ذلك الوقت وإن وضعها دليل على جرأته وجسارته ولكن يجب التأكيد على نقطة وهي أنه منذ قرن قبل الفتح العربي وانتشار الإسلام وسيطرتهم كان الكثير من الناس لا يؤمنون بدين زردشت ولا يمارسون الطقوس الدينية بشكل مرتب وليس من المستبعد أن به آفريد شعر بحاجة الناس للمحافظة على أصول الدين الذي كان يهدده الخطر وفكر في إصلاحه، وخاصة أن معنويات الناس ازدادت مع اضطراب الوضع السياسي واختلاف الأوضاع وشيوع الفتنة والفساد الأخلاقي. لذلك كان من السهل في مثل هذا الوضع تغيير التعليمات الدينية والإتيان بأخرى. ولم يكن هو الشخص الوحيد الذي فكر في مثل هذا الموضع.

إن الجانب الأخلاقي لدين به آفريد جدير بالملاحظة والاهتمام، ولكن ما وصلنا منه غير واضح وخاصة في الإلهيات أو تعريف شكل العالم، أو في الأخلاق. إن تعاليمه ليست نظرية أو استدلالية، وإنما عملية اجتماعية وإن أغلب الإصلاحات التي نشاهدها في دينه قريبة جداً من تعاليم الإسلام ولذا نقول إن أغلب تعاليم به آفريد تأثرت بالتعاليم الإسلامية وتغلغل الدين الإسلامي بشكل غير مباشر إلى روحه وفكره، وإن حركته الباطنية كان لها أسبابها الاجتماعية وعلى هذا يجب أن لا نتصور أننا ابتعدنا جداً عن الحقيقة. لم يتمكن المعارضون من الوقوف في وجهه فعلاً، وعندما جاء أبو مسلم إلى نيشابور، لجأ معارضو به آفريد إلى أبي مسلم، واجتمع رجال الدين الزرادشتي وأطلعوه على تعاليم به آفريد الجديدة، وقالوا إنه أفسد دينكم وديننا وطلبوا منه أن يقتله ويريحهم منه، فأرسل أبو مسلم شخصين من أتباعه إليه وهما شبيب بن واج الرورذي وعبد الله بن سعيد، وعرضوا عليه الإسلام، وصار مسلماً ورفع شعار العباسيين لكنه لم يكف عن التنبؤ، لذلك جاء عبد الله بن سعيد إلى مدينة زوزن على رأس جيش وقبض عليه في جبال بادغيس وجلبه إلى نيشابور وأمر أبو مسلم بقتله وتم شنقه على باب جامع نيشابور وقضى على أتباعه.

لم تعرف بالضبط عملية اعتقاله ولا نعرف أين سكن آخر حياته، وماذا فعل أمام جيش عبد الله بن سعيد وكيفية تعامل أتباعه معه، وإذا وقعت معركة، فكم استغرقت ؟ وهل جاء إلى الجبال لأسباب تتعلق بدعوته؟ لكن المؤكد لدينا أن دينه لم ينته بعد موته وبقي له أتباع، ولكن للأسف ليس لدينا معلومات عن تطورات هذا الدين. يقول مطهر بن طاهر المقدسي في كتاب البدء والتاريخ الذي ألف عام (355هـ/965 م): (توجد من المجوس طائفة تقرّ بنبوة به آفريد). ويقول في مكان آخر: (يقول رجل من الـ به افرديه وهم فرقة من الزرادشتية، كنت أسعى لهدايتهم وكنت أعاشرهم، كان يعارضني في موضوع دفن موتانا وكان يقول إن الأرض ملاك وأنتم تدفنون موتاكم فيها فكيف يكون هذا ؟). إذا كان هذا الرأي يعود إلى نبي هذه الفرقة، فقد كان يتصور الأرض ملاكاً (؟ !) ويرفض دفن الموتى فيها وكان بهذا الرأي يتفق مع سُنة الزرادشتيين، وُيستنتج من هذه الفقرة أن دين به آفريد لم يزل باقياً في عهد المؤلف (القرن الرابع) وكان أتباعه يمارسونه علناً.

يبدو ظاهرياً أن دين به آفريد كان منتشراً في قرى نيشاور بعد مقتله، ويقول

صاحب كتاب حدود العالم وهو كتاب في الجغرافية ألف عام (371هـ) باسم الأمير أبي الحارث محمد بن أحمد بن فريغون حاكم كوز كانان في وصفه لموقع باسم بر كدر: (بنُيت بر كدر على ساحل نهر مرو ويسمونها قُهندز وفيها المجوس يسمونهم الآفريديين). ويقول البيروني: (بقي أتباعه الذين يطلقون عليهم الآفريديين يؤمنون بأفكاره ويعادون الزرادشتيين بشدة ويؤمنون أن الخادم قال لـ آفريد أن يصعد إلى السماء وكان راكباً على جواد وسوف ينزل بسرعة وينتقم من الأعداء).

يقول الثعالبي في مؤلفه (408/412 هـ): (بقيت منهم لحد الآن فرقة تسمى الآفريدية وقرأتُ في كتاباتهم أن مذهبهم بين الخرمية والخسروية). ويقول الشهرستاني في الملل والنحل (521هـ): (قال أصحابه إنه طار إلى السماء على جواد أصفر وسينزل في المستقبل القريب و ينتقم من الأعداء). أما في ما يخص معاملة المسلمين للآفريديين ننقل فيما يأتي فقرة من كتاب الفرق بين الفرق لأبي منصور عبد القاهر ابن طاهر البغدادي المتوفى عام (429هـ): (المجوس أربع فرق؛ الزرواتيه والمسخية والخرمدينية والبه آفريدية، ذبائحهم محرمة وكذلك نكاح نسائهم، وافق الشافعي ومالك وأبو حنيفة و الأوزاعي والثوري على إجازة أخذ الجزية من الزروانية (الأصل روزانية) والمسخية، ولكنهم اختلفوا في مقدار دياتهم... لكنهم رفضوا الجزية من المزدكية وهم فرقة من المجوس، لأنهم يحرمون الحلال ويحللون الحرام وكذلك من البه آفريديه رغم أن أفكارهم أفضل من الزرادشتية لكن دينهم ظهر في العهد الإسلامي). يقول أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتاب نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس: (في زمن انتقال الدولة من الأمويين إلى العباسيين، ظهر بين المجوس رجل ضلل الخلق وله قصة يطول شرحها، وهو آخر شخص ظهر عند المجوس). يفهم من كلامه أنه به آفريد ولم يكن آخر واحد وسنرى ذلك لاحقاً.

***

الفصل الثاني

فيروز الأصبهبد المعـــروف بسنـــباد

المصادر: أقدم كتاب ورد فيه اسم سنباد هو فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذري المتوفى عام (279هـ - 892م)، والذي ذكر عصيان سنباد بشكل مختصر في الفصل المتعلق بفتح جرجان وطبرستان ونواحيهما في شرح حال عمر بن العلاء والي طبرستان، ويوضح كيفية انتصار عمر في الحرب على سنباد ويقول: بعد اندحار سنباد بعث جهور بن مرّار العجلي برسالة إلى المنصور، أما المؤلفات الأخرى التي عنيت بهذه الحادثة فهي:

1- أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي المتوفى (284هـ -897م) في كتابه التاريخي وفي كتاب البلدان، ذكر واقعة ظهور سنباد بعد خبر مقتل أبي مسلم بشكل مختصر وكرر القول ذاته في موضع آخر في الفصل الخاص بولاية خراسان.

2- محمد بن جرير الطبري المتوفى (310هـ) في كتاب أخبار الرسل والملوك.

3- المسعودي في مروج الذهب المُؤلف عام (332هـ) في موضع كان يتحدث فيه عن اضطرابات الخرمية بعد مقتل أبي مسلم.

4- مطّهر بن طاهر المقدسي المتوفى عام (375هـ) في كتاب البدء والتاريخ (المُؤلف عام 355هـ)، وذكر أن خروج سنباد كان من نتائج مقتل أبي مسلم.

5- البلعمي في ترجمة تأريخ الطبري (ترجم إلى الفارسية عام 352 هـ).

6- نظام الملك الطوسي في كتاب سياسة نامه (المؤلف عام 484هـ).

7- محمد بن الحسن بن أسفنديار في تأريخ طبرستان (المؤلف عام613هـ).

8- ابن الطقطقي محمد بن علي المتوفى عام (709هـ) في كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية المؤلف عام (701هـ).

وردت في هذه المصادر أربع روايات مستقلة:

الأولى: الرواية التي نقلها اليعقوبي والمسعودي والمقدسي.

الثانية: الرواية التي أوردها ابن الأثير والطبري والبلعمي والطقطقي، ضبط

ابن الأثير رواية الطبري، ولكنه اعتمد على مصدر آخر في القسم المتعلق بسبب اندحار سنباد وعاقبته.

ويتفق مضمون روايته مع رواية ابن إسفنديار حول نهاية سنباد، وربما كـــــان للمؤلفين مرجع واحد، ونقل الطقطقي رواية ابن الأثير ولكن باختصار.

الثالثة: الرواية التي كانت مرجعاً لنظام الملك، وتوجد مغالطات في القسم الثاني من هــــذه الرواية المتعلقة بالحرب ومقتل سنباد، ويقال إن المؤلف استمع للأحداث وكتـــب خاطراته بدون الرجوع إلى مصدر مكتوب.

الرابعة: الرواية المنقولة في كتاب ابن أسفنديار، قسمها الأول مختصر ويعود إلى بداية عمـل سنباد ويشتمل على جزئيات جديرة بالاهتمام، والقسم الثاني متعلق بنهاية سنبـــاد ولجوؤه إلى الاصبهبد خورشيد، وفيه مواضيع مهمة غير موجودة في مصادر أخرى.

أهتم بعض المستشرقين بذكر اسم وأحوال سنباد: ومنهم الأستاذ (نولدكه) الذي كتب مقالة عن الخليفة المنصور، ونشر مجموعة مقالاته تحت عنوان تقارير عن تأريخ المشرق باللغة الإنكليزية، وتحدث بشكل مختصر عن حركة سنباد، وكتب (بلوشه) عن سنباد في كتابه الموسوم بـ (فكر المهدي في الفرق المخالفة للسنة الإسلامية)، ولكن مرجعه الوحيد كان كتاب سياست نامه لنظام الملك، كذلك بحث الأستاذ (براون) بشكل جيد أحوال وآراء سنباد في الجزء الأول من كتاب تاريخ الآداب الإيرانية وتابع ذلك في كتاب الأسماء الإيرانية، وبحث أصل ومعنى اسم سنباد.

قُتل أبو مسلم قبل خمسة أيام من شعبان (137هـ) بأمر من أبي جعفر في رومية المدائن، كان عدد مرافقيه ثلاثة آلاف شخص لكنهم لزموا الصمت عند مقتله لقلة عددهم وإغراء قادتهم بالأموال، ولكن عندما وصل الخبر إلى خراسان غضب أعوانه وأتباعه، فبعد شهرين من مقتله تمرّد أحد المجوس في قرية من قرى نيشابور تسمى (اهروانه)، وكان أحد الذين تربوا على يد أبي مسلم، وكان اسمه الحقيقي سنباد، وأطلق على نفسه اسم فيروز الأصبهبد، قَبل أن يهب للثأر لدم أبى مسلم ويجمع الناس حوله، ليس لدينا أي معلومات عن جزئيات حياته في بدايتها أو عمره وعلاقته بأبي مسلم.

يقول نظام الملك إن سنباد كان رئيساً في نيشابور وكان على علاقة قديمة مع أبي مسلم، ويقول المسعودي: عندما وصل خبر موت أبي مسلم إلى خراسان تجمّع أهل المذهب الخرمي وتمرّد أحدهم في نيشابور، وكان يدعى سنفاد طلباً للثأر، وربما اعتبرته المصادر الأخرى مجوسياً، ويبدو أن رواية سياست نامه صحيحة، أي أن سنباد بعد عصيانه تقرّب من الخرميين ولم يكن منهم. لقد كانت هناك فرق تختلف مع بعضها من حيث المعتقدات ولكنها اتحدت بعد موت أبي مسلم الذي يبدو أنه لم يكتف بدعوة المسلمين الإيرانيين لبيعة الهاشميين والقضاء على الدولة الأموية وتنصيب الأسرة العباسية، وإنما اعتمد على الإيرانيين الذين بقوا على دينهم ورواياتهم الوطنية لذلك نجح في إنجاز هدفه الأكبر. إن الثورات التي وقعت بعد وفاته وخلال مدة ثلاثين عاماً وتقدم سنباد السريع والتفاف عدد كبير من الناس حوله كل ذلك يثبت أن حبه لدى الناس كان عجيباً ويؤكد نفرة الإيرانيين من الخليفة العباسي.

بدأت حركة سنباد من مسقط رأسه (نيشابور) ولم تكن هذه المدينة مركزاً لحكم ولاية خراسان في ذلك الوقت، لكن موقعها الجغرافي الذي يعتبر ممراً للشرق وقربها من العراق مركز الخلافة أعطاها أهمية بالغة بالنسبة لمدينتي مرو وبلخ، لذلك جعل منها مركزاً لدعوته. يقول نظام الملك: (كلما كان يختلي مع المجوس كان يقول لهم لقد قامت دولة العرب وهذا ما وجدته في أحد كتب بني ساسان وقال للخرميين إن مزدك كان شيعياً وأنا آمركم أن تضعوا يدكم بيد الشيعة وتثأروا لدم أبي مسلم). هذه الرواية لا تخلو من العجب ولايمكن اعتبارها صحيحة ولكنها توضح تنوّع أصحاب سنباد من جانب والتعريف بحسن تدبيره من جانب أخر.

كان سنباد قريباً من المزدائيين لأنه كان على مذهبهم، يقول الأستاذ نولد كه: (لقد قالوا إنه كان من اتباع دين الإيرانيين القديم وهذا غير ممكن، ومن الممكن أنه تقرّب إلى أحد الفرق نصف الإيرانية التي لا يمكن اعتبار أتباعها مسلمين). هذا الرأي لا برهان له أمام تصريح مؤرخين مثل الطبري وابن الأثير وابن الطقطقي حول كون سنباد مزدائياً. يقول ابن اسنفنديار في تاريخ طبرستان: (عندما قرر أبو مسلم الذهاب إلى المنصور كان سنباد نائبه وأرسله إلى الري مع خزائنه وأمواله). لا توجد إشارة في المصادر الآخرى عن إقامة سنباد في الري، أما ابن اسفنديار

فهو الوحيد الذي أخطأ في ذكر اسم محل توقف سنباد، لأن البلعمي يقول في ترجمة الطبري: (كان أبو مسلم يُحسن إليه وعندما وصل خبر مقتل آبي مسلم خرج للثأر له وقال إن حق أبى مسلم برقبتي وعليّ أن أبذل كل ما عندي لهذا الهدف وعندما ينفذ المال أضحي بنفسي). بعد أن ازداد عدد اتباع سنباد تحرُك من نيشابور إلى كومش واحتلها واحتل المناطق المجاورة لها، والتحقت به مجاميع من أهل المنطقة ثم توجه إلى الري وعندما وصل إليها دحّر أبا عبيده الحنفي الذي كان عاملاً عليها واستولى على أموال أبي مسلم التي كان قد وضعها هناك قبل ذهابه إلى الخليفة، وأرسل قسماً منها إلى الأصبهبد خورشيد وطلب منه الدعم والعون، انضم إليه عدد كبير من أهل طبرستان والجبال، يقول نظام الملك: (جاء من نيشابور إلى الري ودعا مجوس طبرستان إليه وعَرِف أن أغلب أهل الجبال من الرافضية والمشبهة والمزدكية وادعى أنه رسول أبى مسلم وقال لأهل العراق وخراسان أن لا يقتلوا أبا مسلم، لكن المنصور أراد قتله فتحول إلى حمامة بيضاء وطار إلى السماء وهو الآن في سور من نحاس يجلس مع المهدي ومزدك، وسيخرج الثلاثة يتقدمهم أبو مسلم ووزيره مزدك. وقد وصلتني رسالة بذلك، عندما سمع الرافضية اسم المهدي والمزدكية اسم مزدك تجمعوا حوله إلى أن وصل عدد اتباعه إلى مئة ألف).

إن هذه المواضيع المهمة لا نراها إلا في سياست نامه، فإذا لم تكن كلها صحيحة فقسم منها صحيح. يقول ابن الأثير إن سنباداً كان يقول إنه ينوي الذهاب إلى الحجاز ويخرّب الكعبة، ذكر ابن الطقطقي الموضوع ذاته وربما اقتبسه من ابن الأثير، ويبدو من كلام نظام الملك أن سنباد كان مزدائياً ولكن أفكاره لا تتوافق مع أفكارهم وإنما تنسجم مع كل فرقة من أتباعه، كما أن مواضيعه تتناقض، ففي جانب يقول إنه خرج للثأر لأبي مسلم وفي مكان آخر يقول إنه كان يقول لأهل العراق وخراسان إنهم لم يقتلوا أبا مسلم وإن المنصور هو الذي قتله. إن موضوع عدم قتل أبي مسلم وادعاء أن الذي ُقتل شخص آخر شبيه بما كان يقوله أتباع الفرقة المغيرية عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع). إن قصة الحمامة البيضاء كانت متداولة لدى أتباع الفرقة الكيسانية أيضاً.

يقول أتباع محمد بن الحنفية إنه حيّ وموجود في جبال الرضوية بين مكة والمدينة ويحرسه أسدان من اليسار واليمين إلى أن يخرج. مقابل هذه المعتقدات

التي لا يمكن أن يشك في أصلها الإسلامي أو ما يشابهها لدى المسلمين والفرق التابعة لهم، توجد معتقدات أخرى أصلها من كتب المزدائيين الإيرانيين وخاصة في الفقرة المتعلقة بزوال دولة العرب والخبر الموجود في هذا الخصوص في كتب بني ساسان التي نقلها سنباد إلى المزدائيين إذ نجد قسماً منها انعكاساً لعقيدة كانت قد راجت في هذا العهد وبعده لمدة بين الإيرانيين الزرادشتية والفرق الإيرانية نصف المسلمة. ومثلما شاهدنا في المقدمة، توجد فقرات أخرى في هذا الباب، يخمن السيد بلوشه أن عبارات خلوة هركَه مع المجوس وقوله لهم (إن دولة العرب قد صارت حقيقة ولن أعود لتدمير الكعبة وقد وجدت ذلك في كتاب من كتب بني ساسان، لكن العرب جعلوا من الكعبة بديلاً عن الشمس، ونحن نجعل قبلتنا الشمس مثلما هو عهدنا)، هذا قول سنباد نصاً. ومن وجهة نظري أن هذا التخمين في محله، لأن أسلوب الكلام كأسلوب العالم المذكور ومعانيه تؤيد هذه النظرية ومثلما مرّ سابقاً. لقد ذكر مؤلفون آخرون نيّة سنباد في تدمير الكعبة، وقد أضيف لها في سياست نامه عبارة (قبلة العرب، نحو الشمس). شاهدنا خلال شرحنا لمعتقدات به آفريد أن عبادة الشمس كانت لها أهمية بالغة في العصر الساساني حسب كتابات الأجانب والقرائن الموجودة في مؤلفات الزرادشتيين، ومن المؤكد على الأقل أن الشمس قبلة لفرقة من المزدائيين، ثبّت به آفريد الرسم السابق في تعاليمه، وشاء سنباد العمل به، ومن الجدير بالملاحظة ما ذكره نظام الملك بشأن علاقة سنباد بأصحاب المذهب الخرمي من عدة جوانب، اولاً - يثبت وجود هذه الفرقة في ولاية أخرى قبل حركة بابك في أذربيجان، وأن هذا القول يدحض قول بعض الأشخاص الذين يقولون إن اسم الخرمية مأخوذ من قرية خرم الكائنة في أذربيجان، ثانياً - تأكيد علاقة الخرميين بمزدك ولدينا قرائن أخرى حول صحة ذلك تثبت أن الخرميين ليسوا من الشيعة وسنبحث ذلك ونكتفي بهذه الإشارة.

نستنتج من هذه المعتقدات كلها أن سنباد لم يكن متعصباً لدينه ونجح مع ممن لم يكونوا على دينية رغم بعدهم عن مبادئه لتساهله حسب اقتضاء الحاجة وسياسته المهمة في هذا المجال، أما فيما يخص عدد أتباع سنباد، يقول البلعمي (دعا الناس للثأر لدم أبي مسلم الذي كان له أتباع كثيرون في خراسان، جمع خلال شهرين ستين ألف شخص وتوجه من نيشابور إلى العراق). معلوم أن هذا العدد هو

جيشه عندما كان في الريّ، يقول المقدسي (إن عدد أتباعه بلغ تسعين ألف) ويقول المقدسي (إن عددهم مائة آلف، وأغلبهم من أهل الجبال). إن عدد المائة ألف أقرب إلى الحقيقة مقابل ستين ألف قتلوا من أتباعه حسب ما ذكر المؤرخون.. يقول ابن الأثير (إن سنباداً أسر النساء عند وصوله إلى الري، وسلب الأموال لكنه لم يتعرض للشيوخ. لم يستطع سنباد أن يستقر في محلٍ بهذا العدد الكبير، لذلك غادر الريّ وتوجه إلى همدان، وكان عازماً على ما يبدو لتنفيذ نواياه الأصلية في القضاء على الخلافة).

أرعبت حركة سنباد وانتصاراته الخليفة، فأرسل على وجه السرعة جُمهور بن مّرار العجلي على رأس عشرة آلاف مقاتل، وأرسل جيوشاً أخرى لمساعدته، كما أن العرب المقيمين في الجبال عارضوا وصدوا سنباد للمحافظة على أرواحهم، ومنهم عمر بن العلاء الذي كان قصاباً في الريّ وجمع قوماً والتحق بجمهور، وأبلى بلاءً حسناً في المعارك ضد سنباد، والتقى الجيشان في مكان بين همدان والريّ، عند الصحراء يسمى جرجَنْبان، ووقعت معركة عنيفة صمد فيها الطرفان، في النتيجة هرب سنباد إلى طبرستان وقُتل من أتباعه ستين ألفاً وأسر أطفاله ونساؤه، وكان من بين الأسرى مهروئة الرازي الذي أفرج عنه المهدي بعد ذلك (البلاذري فتوح البلدان ص294)، يقول ابن أسفنديار (قُتل عدد من أصحاب سنباد وأبي مسلم، وبقيت عظامهم في مكان المعركة إلى عام ثلاثمائة للهجرة). أما فيما يخص سبب اندحار سنباد يقول ابن الأثير وابن الطقطقي: عندما التقى الجيشان وضع سنباد نساء المسلمين اللواتي أسرهن على الجمال ووضع الجمال في مقدمة جيشه وعندما شاهدن جيش المسلمين، وقفن على الجمال وصرخن بصوت واحد (وامحمداه ذهب الإسلام) وقعت الريح في ملابسهن وهربت الجمال وعادت إلى جيش سنباد وتفرّق الجيش وفقد تنظيمه، وعقب المسلمون الجمال وعملوا السيوف بالزرادشتيين وقتلوا من أرادوا قتله.

عندما كان سنباد في الريّ أرسل قبل الحرب قسماً من أمواله إلى خورشيد أصبهبد طبرستان وأهداه ستة ملايين درهم، وبعد اندحاره توجه مع عدد قليل من أتباعه إلى طبرستان، ولجأ إلى الأصبهبد، أرسل خورشيد ابن عمه طوس مع نُزل وهدايا و خيول لاستقباله وعندما وصل قدم شروط الآداب، لكن سنباد تعامل معه بتكبر بعكس ما تقتضيه الضرورة، غضب طوس وقال (أنا من بني أعمام

الأصبهبد وأرسلني لاستقبالك، فرد عليه بخشونة، وصعد طوس على فرسه واستل سيفه وضرب عنق سنباد وجلب أمواله ومتعلقاته إلى الأصبهبد الذي أسف بدوره لهذه الحادثة وزجر طوس، ولكنه استولي على خزائن وتركات أبي مسلم وسنباد).

يقول البلعمي في هذا الخصوص ((اندَحَر سنباد، وعاد إلى الريَ مهزوماً، ثم صار إلى جرجان، ولكن قتله أصبهبد جرجان، هرمز بن الفرّخان بأمر من المنصور))، لكن أصبهبد طبرستان كان في هذا العام وحتى عام (142هـ) يسمى خور شيد. ((قُتل سنباد بين طبرستان وكومش)).

يقول المسعودي والمقدسي وابن الأثير إن حركة سنباد استمرت سبعين يوماً من تمرده إلى موته، وكانت بعد مقتل أبى مسلم الذي قتل آخر شعبان عام (137 هـ)... وهذا ما أكده المؤرخون أيضاً، لذلك يجب أن يكون مقتل سنباد في بداية محرم عام (138هـ)، لكن أغلب مصادرنا تُعدُ هذه الواقعة من أحداث عام (137هـ) وبهذا نستنتج أن قول البلعمي تقريبي، ولم تكن بداية حركة سنباد بعد شهرين من مقتل أبي مسلم، ولكن في الشهر الثاني من مقتله. إن الأمر المثير للدهشة في عصيان سنباد هو سرعة تطور عمله بتمكنه من جمع هذا العدد الكبير خلال سبعين يوماً وأن يسيطر على قسم من ولايات خراسان وكومش والريّ والتوجه إلى العراق على رأس 90-100 ألف مقاتل وهذا ليس بالأمر العادي، والحق أن نقول: إننا لا نعرف أسباب اندحاره لأن تعداد جيش العرب أقل بكثير من جيشه، إن مضمون رواية ابن الأثير والطقطقي لا يقنعنا بشأن وضع النساء أمام جيشه، كما أن وفاته غير الطبيعية جعلت عمله ناقصاً بحيث لا نستطيع الحكم على ذلك، لكن هناك عدة أمور تتضح من هذا الحادث: أحدهما كثرة عدد الإيرانيين الذين كانوا يعارضون الدولة العباسية والدليل على ذلك اجتماعهم حول جهور عندما اختلف مع الدولة؛ والأمر الآخر تعلُق الإيرانيين بأبي مسلم إلى الحد الذي صار عندهم إماماً أو نبياً، وإن شهرته لم تنته بعد مقتل سنباد وتمسكوا بآرائهم ورسومهم الوطنية ولم يتغيروا بسرعة عن دينهم القديم، فبعد موت «به آفريد» عُدّت فرقته من فرق الدين المزدائي رغم عدم نجاحه، وكان ذلك سبباً في النزاعات والصراعات بين الإيرانيين الذين كانوا في ذلك الوقت في أمس الحاجة لوحدة الفكر والعقيدة، لكن سنباد وَحَدّ ذلك باسم أبي مسلم وبقيت

مجموعة من أتباعه وفية له بعد موته، يقول الشهرستاني: لقد كان للغُلاة اسم في كل مكان ففي الريّ يسمونهم المزدكية والسنبادية، ويقول مؤلف تبصرة العوام إن الغُلاة في قزوين والريّ يسمّون المزدكية والسنبادية، و سنوضح هذا الموضوع في المبحث الخاص بأصحاب المذهب الخرمي.

***

الفصل الثالث

إسحق

المصادر: ورد اسم حركته في موضعين فقط من كتب القدماء، أحدهما في كتاب الفهرست لابن النديم، والآخر في كتاب زين الأخبار تأليف أبي سعيد عبد الحيّ بن الضحاك بن محمود الكرديزي الذي كتبه في عهد عبد الرشيد بن مسعود محمود بن سبكتكين (441-444 هـ).

في الموضع الأول، ذكر المؤلف ثلاث روايات تختلف عن بعضها، لكن لا يعرف بالضبط مصدر الرواية الأولى والثانية، ولكن ناقل الرواية الثالثة ابن النديم عن صاحب كتاب أخبار ما وراء النهر وخراسان، والذي لا اعرف من هو. يقول هذا المُصنف الذي نجهل اسمه إنه سمع روايته عن إبراهيم بن محمد الذي كان عالماً بأمور المُسلمية، كما أن هوية ابن إبراهيم بن محمد مخفية بين السطور، وفي آخر الرواية، نقَل ابن النديم فقرة عن البلخي بخصوص أصحاب المذهب الخرمي، ويقول في موضع آخر من كتابه، (استقصى البلخي في كتاب عيون المسائل والجوابات أخبار الخرمية ومذاهبهم وأفعالهم في الشرب والملذات والعبادات). صحيح أن ابن النديم لم يصرح في الموضوعين عن البلخي أحد متكلمي المعتزلة، وفاته حسب قول ابن خلكان في مُستهل شعبان (217هـ)، ويقول آخر عام (319هـ / 931م)، حصل المسعودي على الكتاب المذكور وقرأه وذكر أن مؤلفه أبو القاسم البخلي.

تُتَمم رواية زين الأخبار إلى حد ما بيانات ابن النديم وتوضح واقعة أبي داود خالد بن ابراهيم وعصيان عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، ووردت إشارات في مؤلفات المستشرقين الأوربيين إلى حال وحركة اسحق، إحدى تلك الإشارات في كتاب تاريخ الأدب الفارسي لإدوارد براون الذي ترجم بشكل مختصر الروايات المحفوظة في كتاب الفهرست، والإشارة الأخرى وردت في كتاب تركستان للروسي باتولد الذي اختصر المصدرين السابقين وخلطهما، يجب أن نذكر هنا أن معلوماتنا عن حركة اسحق أقل من بقية الحركات لأننا لم نجد إشارات عنه في بقية كتب التاريخ المهمة، ولم يتطرق المصدران السابقان إلى جزئيات هذه الحركة.

عندما قُتل أبو مسلم على يد المنصور عام (137هـ)، تفرّق دعاته وأعوانه في أطراف البلاد، وشرعوا بالدعوة له، ومنهم اسحق الذي دعا له في بلاد ما وراء النهر بين التركان، لذلك سُمي اسحق الترك وهناك اختلاف في نسبه، قال قوم: إنه من العلويين، ومن أبناء يحيى بن زيد بن علي الذي قُتل في عهد نصر بن سيّار في مدينة جوزجان في خراسان عام (125هـ)، وقد هرب اسحق إلى بلاد الترك خوفاً من الأمويين، وكان يسيح في هذه المناطق، وجهر بمذهبه، لكن صاحب كتاب أخبار ما وراء النهر وخراسان ذكر أن إبراهيم بن محمد قد أخبرني أن اسحق رجل من أهل ما وراء النهر وكان أمياً عنده مس من الجنون، وعندما كان يُسأل عن خبر ما كان يجيب بعد ليلة. دعا الناس إليه بعدما حدث ما حدث لأبي مسلم، وعلى كل حال، فإن تسميته اسحق يضعف الشك بكونه كان يؤمن بدين أحد الفرق الإيرانية الخالصة وتسمى باسم إسلامي، وربما أنه أسلم ثم ارتد إلى دينه القديم لكن ليس لدينا معلومات عن تأريخ بداية دعوته ومركزها وعدد أتباعه وهويته. كان في فترة حركته عامل خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم الذي نصبّه أبو مسلم خليفة له عندما ذهب إلى بغداد، وبعد أن قُتل أبو مسلم أبقاه الخليفة في منصبه. تصدى اسحق لجيش هذا العامل وكانت وفاة أبو داود عام (140هـ)، وعلى ذلك فحركة اسحق وقعت بين الأعوام (137و140هـ). لم تنته هذه الفرقة بعد موت رئيسها، ففي عهد أبي داود تمرّد عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي الذي جاء إلى خراسان في ربيع الأول عام (141هـ)، وقتل عدداً من كبار قادتها وسجن بعضهم الآخر، وعندما علم أبو جعفر بالأمر أراد عزله، وأرسل ابنه المهدي على رأس جيش إلى خراسان، نزل المهدي في الريّ، وعندما سمع عبد الجبار بذلك استمر بعصيانه علناً ورفع الراية البيضاء معارضة للعباسيين من ثم التحق بثوار هذه الفرقة التي كان يرأسها (براز) وتم ذلك عام (142هـ)، وأرسل المهدي خازم بن خزيمة قبله، وجاء هو شخصياً إلى نيشابور، وعندما سمع أهل مرو بخبر اقتراب خازم، هبوا لصد عبد الجبار، وحاربوه بشدة، وعلى أثر ذلك هرب عبد الجبار في ربيع الأول عام (142هـ)، وتم أسر مجُشّر بن مراحم وهو من أهل مرو، وسلمه إلى خازم الذي أرسله بدوره إلى المهدي الذي قتله شر قتلة.

بعد اندحار عبد الجبار وفراره لم تصلنا أي معلومات عن هذه الفرقة، ومن الجدير بالذكر هنا أن معتقدات اسحق تشبه إلى حد ما معتقدات سنباد لأنه كان

يدعي أن أبا مسلم حياً ويقيم في جبال الريّ وسوف يخرج في وقت معيّن، وحسب ما يروي ابن النديم فقد دعا اسحق الناس بعد قتل أبى مسلم وكان يقول انه نبي وهو رسول زرادشت، لأن زرادشت حيّ وسيظهر لإثبات دينه. وقد شاهدنا مثل هذه الأمور في الحركتين السابقتين. إن هذه الآراء فيها نوع من الحداثة في حركة اسحق، وأهميتها تكمن في أن اسحق رغم أن بداية دعوته كانت في بلاد ما وراء النهر وهي مزيج من الترك والإيرانيين، كان يروّج لمعتقدات زردشت، وإن عودة ظهور زردشت نابع من معتقداتهم التي تقول إن أحد أبناء زردشت سيظهر في رأس كل ألفية، ويحيي دين والده،، إن ربط أبي مسلم بزردشت يؤكد مرة أخرى وجود علاقة بينه وبين الزرادشتيين، ويثبت أن أبا مسلم لم يستعن بالشيعة والخوارج فقط وإنما اعتمد على الفرق المزدائية أيضاً. يعتبر ابن النديم اسحق وأتباعه من المسلميّة. وهناك آراء مختلفة حول المسلمية أو الابومسلمية وحسب الزمان والمكان، وكانت تقسم إلى عدة فرق.

***

الفصل الرابع

الأستاذ سيس

المصادر: نذكر هنا المؤلفات التي تطرقت إلى حركة الأستاذ سيس الدينية أو التي شرحتها حسب تأريخ تأليفها:

1- اليعقوبي المتوفى عام (284هـ- 879م) ذكر هذا الموضوع إجمالاً في تأريخه.

2- الطبري المتوفى عام (310هـ) ذكر شرحاً مفصلاً عن الموضوع في أخبار الرسل والملوك.

3- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس المتوفى عام (331هـ) في كتاب الوزراء، نقل هذا المؤلف فقرة في شرح لقاء الفضل بن سهل ذي الرياستين بالمأمون، وورد فيها ذكر للأستاذ سيس وحركته الدينية ووردت هذه الفقرة عند الطبري أيضاً.

4- البلعمي في ترجمة تأريخ الطبري التي تمت عام (352هـ).

5- المقدسي، مطهّر بن طاهر المتوفى عام (375هـ) في كتاب البدء والتأريخ المؤلف عام (355هـ).

6- الكرديزي في زين الأخبار المؤلف بين الأعوام (441- 444هـ).

7- مؤلف مجمل التواريخ والقصص الذي ألفه عام (530هـ).

8- ابن الأثير المتوفى عام (630هـ) في كتاب الكامل في التأريخ.

9- ابن خلدون (732- 808هـ) في كتاب العبر.

يمكن تقسيم روايات هذه المصادر إلى ثلاث أقسام:

رواية اليعقوبي والطبري والجهشياري والمقدسي وابن الأثير وابن خلدون التي تتشابه مع بعضها.

لم ترد رواية اليعقوبي في بقية المصادر حول إرسال سيس إلى العراق، ويختلف المقدسي مع المؤلفين المذكورين في بعض الجزئيات، وقد ذكر ابن الأثير

فقرة عن عائلة سيس وعلاقته بالخليفة المأمون، لا توجد في المصادر الأخرى، ويبدو أن ابن خلدون نقلها عن ابن الاثير.

تَبَعَ البلعمي في هذا الموضع الطبري، وكان لديه مصدر آخر، ونقل صاحب المجمل تقريباً نفس مطالب كتاب تأريخ نامه للبلعمي.

إن رواية الكرديزي جديرة بالاهتمام والتي تعدُ حركة سيس في مدينة بادغيس تعقيب لحركة به آفريد، وفيها حداثة، وقد شرح المستشرقون أدناه هذه الحركة :

- وليام موير: في كتابه المسمى الخلافة، ظهورها وسقوطها وإنحلالها، لم يذكر هذا المؤلف مصادره.

- ادوارد براون: في تأريخ الأدب الفارسي، أساس مقالته رواية الطبري واليعقوبي.

- بارتولد، في كتاب تركستان حتى هجوم المغول، موضوعه يوافق رواية زين الأخبار الكرديزي.

- كرامر: تطرق في دائرة المعارف الإسلامية إلى الأستاذ سيس، واستفاد من اليعقوبي والطبري والمقدسي وابن الاثير.

فيما عدا هذه المصادر التي ذكرت اسم الأستاذ سيس صريحاً، جاء في تأريـــــخ سيستان ذكر لحركة وقعت عام (150هـ)، ومن المحتمل أن القصد منها ثورة سيس، ويوافينا بمعلومات مهمة عن هذه الحركة.

سيس اسم لزعيم حركة عصيان في خراسان وسيستان في القرن الثاني الهجري، هذه الحركة وقعت عام (150هـ-767م) أو قبل هذا التأريخ بقليل ضد الدولة العباسية في بادغيس التي كانت ميداناً للحركات والتي لجأ إليها به آفريد مع أتباعه ولا زال أتباعه يعيشون فيها، وامتدت بسرعة إلى نواحي هرات وكبنج روستان وقسم من سيستان، وتُعدُ من الحركات الدينية والسياسية والاقتصادية و الاجتماعية المعادية للعرب وحتى الإسلام ووقعت نتيجة عدم استقرار الأوضاع وضعف الدولة العربية.

الاسم الأول لسيس، فارسي و كان شائع الاستعمال إضافة إلى اسم آخر أو جزء آخر ولكن معنى الجزء الثاني غير مفهوم، ويشتهر هذا الاسم بين النصارى.

ليس لدينا معلومات عن نسبه أو أحواله قبل الحركة، ويعتبره الكرديزي بادغيسياً، وقد أورد ابن الجوزي حركة سيس نقلاً عن رواية الطبري بشكل ملخص، ويبدو أن السيوطي نقل عن ابن الجوزي، واعتبره أميراً وملكاً (؟) واعتبره حاكماً (؟) بدون ذكر المصدر، وأورد اليعقوبي حركة الأستاذ سيس ونهايته في أحداث عام (147هـ) ومن ضمن ما قاله: ((في عام 147 هـ بايع عيسى بن موسى أبا جعفر المنصور على ولاية عهد ابنه المهدي.. كان المهدي في ذلك الوقت في خراسان (ظـ - الريّ) وبايعه قادة وأهل خراسان جميعاً إلا أهل بادغيس التي أعلن الأستاذ سيس العصيان فيها وادعى النبوة))، هذا الخبر يؤيد انطلاق حركته قبل عام (150هـ)، والتف حوله عدد كبير من شرائح مختلفة من الناس مسلحين بالمجارف والمجاديف و الفؤوس، بسبب معارضتهم للدولة العباسية والسيرة السيئة للمنصور من جانب، وتوفر الأرضية المناسبة للثورة من جانب آخر.

استولى سيس على قسم واسع من خراسان بدون أي مقاومة تذكر، وتوجه إلى مرو، فتصدى له أختم المرورودي مع عدد كبير من جنده، وهرب عدد من القادة، فبعث الخليفة خازم بن خزيمة على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألفاً إلى المهدي الذي كان في الريّ، وتوجه خازم لحرب سيس، وكان كل واحد من قادة جيشه يعمل بمفرده لذلك لم يتمكن خازم من عمل شيء، بعدها جاء إلى نيشابور المقر الجديد للمهدي وأخذ منه العهد في طاعة جميع القادة له، ثم عاد إلى المعسكر بصلاحيات كاملة، وأعاد الذين هربوا في المعارك السابقة (الطبري: 22 ألف شخص)، ووقف خلف الجيش، لكن خازم لم يتمكن من دحر سيس ومساعدة حريش السيستاني الذي كان يقود الجيش، على أثر ذلك أرسل المهدي أبا عون وعمرو بن سَلْم بن قتيبة من طخارستان لمساعدة خازم الذي حفر خندقاً حول معسكره ورتبه قبل مجيئهم، وتمكن من خلال الحيلة والتدبير الحربي من الانتصار على سيس وقتل عدداً كبيراً من اتباعه (الطبري والبلعمي و ابن الأثير: 70 ألفاً (!)، المقدسي: 90 ألفاً (؟)، الاسفزاري: أحد عشر ألفاً). لجأ سيس مع عدد قليل من أعوانه إلى جبل (غرجستان ؟) لكن خازم ضيق الخناق عليه وعلى أعوانه، وعندما ضاق الأمر بهم اقترحوا أن يحتكموا إلى أبي عون، قَبل خازم ذلك وأمر أبا عون أن يقترح عليهم أن يقبلوا بحكمه، عندما قبلوا هذا الأمر، حكم أبو عون أن يُقيّد سيس وأبناؤه (الكرديزي: ابنه) وأهله بالسلاسل ويفرج عن البقية (الطبري وابن

الجوزي وابن الأثير: 30 ألف) (الذين أسروا سابقاً على ما يبدو) قبل خازم هذا الحكم، وبعث برسالة إلى المهدي عن الانتصار الذي مكنه الله منه، وأطلع المهدي والده على الأمر وربما وقع هذا الأمر عام (151هـ) .

اعتبرت بعض المصادر حركة سيس امتداداً لحركات أخرى في سيستان، وكان رئيس الثوار في (بُست) في خراسان رجلاً من (اللغريين) يسمى محمد بن شداد . يبدو أن آذرويه ومرزبان المجوسيين من قادة المزدائيين انضموا إليه مع مجموعة كبيرة، وعندما ازدادت قوته توجه إلى زرنج حاكم سيستان فأدركه يزيد بن المنصور خال المهدي (الذي كان والياً على خراسان منذ عام 146هـ) وحدثت معارك بينهما، وأخيراً هُزم يزيد وعاد إلى نيشابور، وخلفه عبد الله بن علاء الذي كان معه وتوجه إلى سيستان و وصلها بداية عام (151هـ).

يقول معين الدين الأسفزاري عن اللغريين (... وفي سنة ستة و أربعين ومائة تمرّد اللغريون...) وفي موضع آخر يقول : (إن بعض ما جاء في تاريخ الشيخ عبد الرحمن القاصي: ظهور جماعة اللغريين [كذلك!] الذين كانوا اتباع واصحاب اساسيس [الأستاذ سيس]، وكان عددهم حوالي ثلاثمائة ألف رجل توجّه إليهم داود بن كزاز الباهلي الذي كان والي هرات من قبل الخليفة المنصور، وعندما كان عددهم كثيراً حُوصِر داود لمدة أربعة أشهر (من شهر شعبان إلى شهر ذي القعدة)، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة المهدي [هكذا !] بعث رسولاً إلى معاذ بن مسلم الذي كان في نيشابور ورافقة حماد بن عمره وجعل خازم بن خزيمه أميراً للجيش ((202هـ)) و وصلا إلى الأستاذ سيس سنة إحدى وخمسين ومائة وهزموه...).

يقال إن أسماء اللغريين واللغاريّة واللغبرية والغزية والغيارية واحدة، و لا يعرف وجه التسمية الصحيحة. يوجد خلاف في كيفية مقتل سيس يقول الطبري الذي كتب لنا أوثق الأخبار وأكثرها تفصيلاً عن سيس إن خازماً كتب رسالة إلى المهدي عندما وفقه الله في قتل عدوه، وهذا يدل على أن سيس قُتل بعد استسلامه، وحسب رواية اليعقوبي أن خازماً أرسله إلى بغداد عند أبي جعفر المنصور، الذي أمر بقتله، وهذا غير صحيح لأن خازماً يستلم أوامره مباشرة من الخليفة وقد أورد ابن الأثير وابن خلدون رواية الطبري، يقول ابن الأثير ومن بعده ابن خلدون في رواية ضعيفة نسبياً إن سيس والد غالبٌ وغالب هو قاتل بن السهل ذي الرياستين، وحسب رواية الطبري فإن أربعة من جيش المأمون قتلوا الفضل

وهم غالب المسعودي الأسود و قسطنطين الرومي وفج الديلمي وموفق الصقلي، لكن تلك الرواية لم تُشر إلى علاقة النسب بين غالب المسعودي الأسود مع المأمون. يقول ابن خلكان، عندما ضاق المأمون بأمر الفضل بن سهل أجبر خاله غالب السعودي [ظ المسعودي] الأسود على قتل الفضل ودخل غالب مع مجموعة إلى حمّام الفضل غَفلة في سرخس وقتلوه.

صرح بعض المؤرخين في باب مراجل أم المأمون أنها من بادغيس ولكن التحقيق يقول أن المهدي هو الذي اختار زوجة لابنه هارون من رجل كان له شريكاً في قتله والأستاذ سيس والد غالب المسعودي (؟) الأسود (؟) الذي قُتل بجريمة مقتل الفضل بأمر من ابنة أخيه (1). وهذا أمر صعب الفهم، على كل حال كان لسيس أبناء، ولا نعرف مصيرهم.

لا توجد إشارة في رواية الطبري الأصلية إلى آراء ومذهب سيس ولكنه يقول في موضع آخر عند نقل قول الفضل بن سهل إلى المأمون (كان يدعوه للكفر).

ويقول بعض المؤرخين إنه ادعى النبوة (بدون ذكر كيفية ذلك). ذكر (اليعقوبي وابن الجوزي وابن الأثير وابن خلدون والمقدسي) ثلاث فرق للمجوسية، اللغيرية التي أورد الحديث عن علاقتها المحتملة وقربها الديني من سيس، وال به آفريديه، والخرمية، واعتبر البلعمي الأستاذ سيس وأتباعه (ظاهرياً) من الخوارج، لكن رواية الكرديزي جديرة بالاهتمام: (في أيام إمارته إمارة أبي مالك أسيد بن عبد الله الخزاعي الذي جاء إلى مرو في رمضان 149هـ أعلن الأستاذ سيس البادغيسي العصيان في خراسان وادّعى النبوة، وسلك طريق به آفريد وكان سبب ذلك أن الـ به آفريديه كتبوا رسالة للمهدي: (لقد أسلمنا على يدك، لذلك عليك احترامنا)، أمر المهدي محمد سعيد بغزو كايل وأرسل معه هؤلاء البادغيسيين، وقدّر لهم من (مال الغنيمة) وذهب محمد وحارب عدة أيام، وأعطاهم من الغنائم، ثم عادوا إلى منازلهم، ولكنهم ارتدوا، ثم أعلن سيس العصيان.

اعتبر الشهرستاني السيانية وال به آفريديه من أصناف الزرادشتية. إن ما ورد في الكتب التاريخية ومقالات الملل والنحل عن معتقدات سيس ودعوته للكفر والنبوة وعلاقته مع الآفريديين ومشاركة (المجوس) (وهو لفظ فيه إبهام وليس في مصادر القرون الهجرية الاولى) ورد في الحركة، اسم (الفثرانيين) والسيانيين في جمع فرق المزديسيين، كل ذلك يوضح أن حركته لها جانب ديني كالحركات

الاخرى. كتب بعض علماء الغرب والشرق يقولون بما أن حركة الأستاذ سيس كانت في (150هـ/766م) أي بعد ألف عام تقريباً من تأسيس سلالة البارتيين (250ق.م) وقيام حركته قرب سيستان محل ظهور الموعودين الثلاثة في معتقدات الزرادشتيين، فمن المحتمل أنه أحد أولئك الموعودين ويشك في صحة هذا الاحتمال من جوانب مختلفة.

***

الفصل الخامس

المُقنّع

المصادر: لدينا الكثير من المعلومات عن حركة المُقَنَع الدينية وخاصة عن حروبه، ومظاهر حياته، لكن باطن حياته مجهول ولاتعرف معتقداته على وجه الدقة. إن التناقض الموجود في مصادرنا يصّعب الأمر علينا، ولكن ذلك الكم من آرائه المتوفرة في المصادر تثبت تشابه مذهبه مع المعتقدات التي كانت سائدة في هذا العصر عند غلاة الشيعة، لذلك لايمكن اعتبار سبب حركة المقنع الدينية صورة لإصلاح الدين الإيراني القديم أو تطوره. نحن نورد حركته مع الحركات الدينية الإيرانية لكونه إيرانياً، لأنه أعلن معتقداته في إيران واغلب اتباعه من الإيرانيين وأهدافه تنسجم مع ميول مجموعة كبيرة من الإيرانيين وهذا لا يعني أن أفكاره تنطبق مع آراء الشيعة المغالين، لكننا سنرى فيما بعد أن قسماً من أفكاره مأخوذ من العقيدة الفكرية للإيرانيين رغم غلبة المعتقدات التي ظهرت على إثر نشر التعاليم الإسلامية بين المسلمين، والأخبار التي حفظها المؤلفون العرب والفرس في كتبهم عن هذه الحادثة، وهي ثلاثة أنواع:

النوع الأول:

1- الرواية التي ذكرها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى (255/ 869م) في كتاب البيان والتبيين، وهي أقدم رواية لدينا في هذا الباب ولكنها مختصرة للأسف.

2- رواية ابن خلكان المتوفى (681/1282م) في موضعين من كتاب وفيات الأعيان:

أحدها في ترجمة حسين بن منصور الحلاج، وهنا صَححَ المؤلف خطأ إمام الحرمين عبد الملك الجويني في كتاب الشامل في أصول الدين الذي اعتبر الحلاج والجنابي وابن المقفع من عصر واحد. ارتكب نظام الملك في شرح مختصر عن المقفع في سيّر الملوك الخطأ نفسه. الخطأ الآخر لابن خلكان في ترجمة أوردها لأبن المقفع، وقد نقل عنيف الدين عبد الله مؤلف مرآة الجنان المتوفى (768هـ/1367م) تقريباً نفس آراء ابن خلكان في تأريخه.

النوع الثاني:

1- رواية اليعقوبي في كتاب البلدان.

2- رواية الطبري في أخبار الرُسل والملوك والتي نقلها البلعمي أيضاً ويشاهد في نسخة من تأريخ البلعمي الموجودة في مكتبة فينا الوطنية فصل عن المقنّع وحركته لا يوجد في النسخ الأخرى من هذا الكتاب الموجود في مكتبة المتحف البريطاني ومكتبة باريس الوطنية، ويشبه إنشاء هذا الفصل إنشاء الفصل المتعلق بتأريخ بخاري ويعتقد أن مرجع الفصلين واحد وهو كتاب أخبار المقنّع الذي سنتطرق له.

3- المقدسي في كتاب البدء والتأريخ، أورد ابن العبري في مختصر الدول رواية المقدسي مع الاختصار.

النوع الثالث:

1- رواية الخوارزمي في مفاتيح العلوم.

2- رواية البيروني في كتاب الآثار الباقية.

3- الرواية التي وردت في تأريخ بخاري للنرشخي وهي أكثر الشروحات تفصيلاً عن هذه الحركة. يقول أبو نصر أحمد الذي ترجم ولخصّ عام (522هـ /1128م) كتاب تأريخ بخاري لمحمد بن جعفر النرشخي المتوفى (348هـ/959) نقل عن محمد بن جعفر بشكل ناقص الأخبار المتعلقة بالمقنع في كتابه الذي كان قد ألفه عام (332هـ/943م)، لكنه أكمل كتاب إبراهيم صاحب أخبار المقنع. يقول بار تولد في كتاب تركستان من المحتمل أن يكون إبراهيم أبو اسحق هو إبراهيم بن عباس الصولي الشاعر المعروف المتوفى عام (243هـ/857م) الذي ألّف كتباً في التأريخ ويرجع إليه ابن النديم في رواية الفرق الدينية، إذا كان حدس بار تولد صحيحاً فأن المقصود من كتاب الصولي هو كتاب الدولة العباسية، ولكن يمكن الإفادة من عبارة أبي نصر أحمد أن اسم هذا الكتاب كان أخبار المقنع، ولذلك فلن يكون طرح بارتولد موثوقاً، وهذا ما يؤكده البيروني، والمقصود من إبراهيم هو مؤلف هذا الكتاب، لوجود خلاف كبير بين ما ذكره البيروني عن المقنع والرواية المحفوظة في تأريخ بخارى.

إن الرواية المحفوظة في تأريخ بخاري التي نقلها المؤلف عن إبراهيم غير مترابطة،

وتوجد بيانات بين المواضيع التي نقلها إبراهيم موجودة في أصل كتاب النرشخي، لكن المترجم لم يورد المواضيع في محلها مما أدى إلى الإخلال في فهم الحوادث.

4- رواية نسخة تاريخ البلعمي لمكتبة فينا الوطنية. نقل مؤلف مجمل التواريخ رواية نسخة تاريخ البلعمي بشكل مختصر ولكنه أخذ قصة (ماه نخشب والبئر) من مصدر آخر.

5- رواية أبو منصور البغدادي في كتاب الفَرقُ بين الفُرَق التي ضبطها نصاً أبو المظفر شهفور الإسفرائيني المتوفى (471هـ) في كتاب التبصير في الدين، ومن هذا النوع رواية تبصرة العوام، ولكنه أورد مواضيع أخرى في باب دين المقنّع قبل إدعاء الألوهية الذي ذكره الشهرستاني، ومن هذا النوع أيضاً رواية حمد الله المستوفي في تاريخ كزيده (المؤلف عام 730 هـ) وفي نزهة القلوب (740هـ) ورواية تقي الدين المقريزي في المواعظ والاعتبار إلى ذكر الخطط والآثار.

لقد خلط المؤلفان أدناه روايات مختلفة:

1- ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ، رواية ب، و ج، نقلهما وجمع مواضيع أخرى مهمة من مراجع مختلفة وأضاف إليها، لكن رواياته من أفضل الشروح لحال المقنع.

2- العوفي في جوامع الحكايات (المؤلف عام 630 هـ) ذكر ثلاث حكايات عن المقنع: في إحدى الحكايات نقل رواية ج، القسم الأول من حكايته ترجمة البيروني ثم اقتبس قصة (جاه وماه) من مصدر آخر ثم نقل في النهاية رواية تاريخ بخارى، وبسَط الحديث في الحكاية الأخرى عن رواية البلعمي، موضوع الحكاية الثالثة قصة اختفاء المقنع في القدر الذي كشفه بعد ذلك معاذ بن مسلم.

ورد اسم المقنع على شكل عطا في المؤلفات التي تلت رواية النوع الأول. وضبط الناقلون للرواية الثانية اسمه حكيم، وذكر مؤلفو النوع الثالث اسمه هاشم بن حكيم، يقول ابن خلكان الذي كان يتبع رواية النوع الأول أن اسم عطا أشهر من اسم هاشم، لكن مصادرنا تثبت عكس هذه العقيدة لأن ستة مؤلفين قبل ابن خلكان (المتوفى 681هـ) ذكروا اسمه هاشم. والوحيد الذي اسماه عطا هو الجاحظ. أدناه شروحات حاله التي كُتبت من قبل المحدثين والمهمة من وجهة نظرنا:

أولاً – السيرة التي أوردها وليم موير في كتابه، وكان أساس رأيه كتاب الكامل لابن الأثير.

ثانياً- دار مستتر في كتابه (المهدي منذ بدء الإسلام إلى عصرنا هذا).

ثالثاً – ادوارد بروان في تاريخ الأدب الفارسي الذي نَقَل إلى اللغة الإنكليزية عدداً من أقوال المؤرخين.

رابعاً – بار تولد الذي ذكر حركة المقنع بشكل جامع ومهم في كتاب تركستان ومصدره الأساسي تاريخ بخارى.

خامساً- السيد سعيد نفيسي في كتاب أحوال وأشعار أبي عبد الله جعفر بن محمد الرودكي السمرقندي الذي رجع إلى عدة مصادر و مصدره الرئيسي تاريخ بخارى.

كان هاشم المشهور بالمقنع كريم العين من أهل رستاق مرو وبالتحديد من قرية كانت تسمى كازاك أو كازه، وكان يعمل في بداية حياته غسّال موتى وكان والده عسكرياً تابعاً لأمير خراسان في أيام أبي جعفر وأصله من بلخ. توجه المقنع إلى العلم، ونال نصيباً من العلوم من كل الأجناس وتعلم الطلاسم وأطلع على العديد من الكتب في علم القدماء، وانخرط في زمن أبي مسلم في صفوف عسكر خراسان، وبَعد أبي مسلم صار وزيراً (يعني كاتباً) عند عبد الجبار الأزدي أمير خراسان، كان المقنع من فرقة الرزاميّة، ويبدو أنه ادّعى النبوة في الحركة التي وقعت في خراسان في زمن عبد الجبار، خاصة بعد مقتل أبي مسلم وبقي على هذا الحال مدة من الزمن.

ُنقل من مرو إلى بغداد بأمر من أبي جعفر وسجنوه هناك، وعندما أُفرِج عنه عاد إلى مرو وجدد دعوته القديمة، ووصف نفسه بالربّ عند بعض المقربين له، ولكن بالتناسخ وقال إن الله خلق آدم ودخل في صورته، ثم تَجَسّد في صورة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) إلى أن دخل جسم أبي مسلم، والآن تجسد في صورته، وكان يقول إن أبا مسلم أفضل من نبي العرب، ويقال إنه كان يريد الثأر له، وكان يدّعي إحياء الموتى والغيب وكان يستنكر قتل يحيى بن زيد الذي قُتل في جرجان في زمن نصر بن سبار عام (125هـ)، وعزم على الانتقام له و جدد كل تعاليم مزدك، وكان أصحابه يسجدون له في كل مكان ويقولون في الحرب (أعنا يا هاشم). كتب الرسائل إلى الولايات وأرسل الدعاة.

إنضم إليه في مرو رجل عربي يدعى عبد الله بن عمرو، وزوّجهُ ابنته وعبر

نهر جيحون وجاء إلى نخشب وبه كش، وكان يدعو الناس في كل مكان إلى دين المُقنّع، وجمع حوله الناس وخاصة في القرى. كانت قرية سوبخ أول قرية آمنت به وكان رئيسهم عمرو السونجي وعندما أعلنوا العصيان قتلوا رئيسها العربي ودخلت أغلب القرى في سغد وبخارى في دين المُقنع.

إنضم إليهم بُنيات بن طفاشته ملك بخاري الذي أسلم لمدة قصيرة عندما ظهرت فتنة أصحاب الرداء الأبيض في رستاق بخاري، وقد أمدهم بالعون إلى أن انتصروا (تاريخ بخاري ص9)، مما صَعَّب الأمر على المسلمين، وكانوا يهاجمون القوافل ويغيرون على القرى وانتشر خبر المقنع في خراسان، وعلى أثر ذلك أمر حُميد بن قحيطبة الذي كان والياً على خراسان بالقبض عليه، لكنه هرب من قريته واختفى، وعندما عَرف أن مجموعة كبيرة من أهل ما وراء النهر قد انضموا إليه واعتنقوا دينه قرّر عبور نهر جيحون، ولذلك أمر أمير خراسان أن يضع المراصد على ساحل نهر جيحون لرصد تحركاته، ووقف مائة فارس على النهر ليقبضوا عليه، جاءَ إلى نهر جيحون مع ستة وثلاثين من أتباعه وعبر النهر وذهب إلى ولاية كش التي استقبله أهلها. كان على جبل سُنام سور بغاية الاستحكام وتحته ماء جارٍ واشجار ومزارعون، وأمر بإعمار المدينة وجمع هناك المال والنعم. واحتل قرية سنجرده التابعة لكش وكذلك قلعة نواكث، وازداد عدد أصحاب الرداء الأبيض لذلك حاربهم أبو النعمان وجُنيد وليث بن نصر مولى المهدي، وقُتل في المعارك حسان بن تميم بن نصر بن سيار ومحمد بن نصر وآخرين، وعجز المسلمون عن مواجهتهم، وخشوا على الإسلام منهم. في هذه الأثناء دعا المقنع التركان له وأباح لهم مال ودم المسلمين، وقال: إن كل من لا ينضم إلينا مباح دمه وماله وأولاده وجاء جيش كبير من تركستان و أغار على الولايات وأسر نساء وأبناء المسلمين وقتلهم، ثم توجه الجند إلى بخارى التي كان واليها حسين بن معاذ وكانت تسمى بمجكث (Bamidkath) ودخلوا مسجدها ليلاً وقتلوا مؤذنه مع خمسمائة من المصلين وكذلك قتلوا أهل القرية.

كان من كبار طائفة المقنع رجل من أهل بخارى اسمه الحكيم أحمد وكان معه ثلاثة من القادة اسم أولهم خَشوي والثاني باغي والثالث كُردَك، اشتهروا بالشجاعة. وعندما قتلوا أهل القرية و وصل الخبر إلى بخارى، تجمّع أهل المدينة وتوجهوا إلى الأمير وقالوا له يجب أن نحارب أصحاب الرداء الأبيض، عندها خرج حسين بن معاذ

مع جيشه وقاضي بخارى عامر بن عمران مع أهل بخارى (رجب 159هـ) وعسكروا في قرية نرسخ التي كانت مركزهم، قال قاضي بخارى، ندعوهم إلى دين الحق ويجب أن لا يجرونا للحرب ولكنه تشاور مع أهل الصلاح الذين قالوا له نحن لا نعرف ما تقول، بعد ذلك حاربوا أول شخص كرّ عليهم وكان رجلاً من العرب اسمه نعيم بن سهل وقتل العديد، لكنه قُتل وهُزم على أثر ذلك أصحاب الرداء الأبيض، و قُتل من قتل منهم وهرب الآخرون. وعندما حل الصباح بعثوا رسولاً وطلبوا الأمان وقالوا لقد أسلمنا، وتم الصلح معهم وكتبوه وشرطوا عليهم أن لا يتعرضوا للعراق وأن لا يقتلوا المسلمين ولن يعودوا لقراهم. أيّد أعيان المدينة وثيقة الصلح ولكن عندما عاد المسلمون أدراجهم نكثوا عهدهم وعادوا إلى قطع الطرق وقتل المسلمين.

ولى المهدي، جبرائيل بن يحيى عام (159هـ) على سمرقند وأرسله لحرب المقنّع، بنى جبرائيل سمرقند وحفر خندقها وعسكر في بوابة سمرقند وجاء إليه حسين بن معاذ والي بخارى، وقال طلبتَ عوننا لحرب أصحاب الرداء الأبيض وعندما تفرغ من هذا الأمر نذهب معك لحرب المقنع. استجاب جبرائيل وسحب الجيش وذهب مع شقيقه يزيد حتى أدرك قرية نرسخ، وأمر بحفر خندقاً وتموضع فيه وأمر جنده أن يقفوا حائلاً أمام خروجهم وأن يهاجموا ليلاً وحدث ما قالهُ.

هاجموهم في الليلة الأولى وقتلوا الكثير منهم وعندما شاهد حسين بن معاذ ذلك أقنع جبرائيل كي يكون في بخارى وأن لا يذهب إلى كش حتى ينتهي الأمر. استمر جبرائيل بالحرب أربعة أشهر ليلاً ونهاراً وفي كل يوم كان النصر لأصحاب الرداء الأبيض، وكان المسلمون في حيرة من أمرهم يتدبرون الأمر.

قال مالك بن خزام أريد أن أتدبر الأمر وأمر بحفر ساقية من المعسكر إلى جدار السور وأرسل المسلمين إلى هناك، وأمرهم أن يتخفوا بالقصب إلى أن يصلوا إلى السور وأن يحفروا حفرة ويملؤها بالحطب ويحرقوها، عندها هجم المسلمون وقتلوا سبعمائة منهم وطلب ما تبقى الأمان، وأرسل المسلمون قادتهم إلى الخليفة وتوجه جبرائيل إلى سر برده، ثم بعث أصحاب الرداء الأبيض إلى خشوي الذي كان صديقاً لحكيم وقالوا لجبرائيل لن نذهب بدون الحكيم إلى أن جاء ابن جبرائيل وقال أنني قتلت الحكيم، وأمر جبرائيل أن يُنزلوا الحكيم من الجواد، وقتلوه في الحال، فصرخ أصحاب الرداء الأبيض واستلوا السيوف وبدأت الحرب إلى أن حلّت الهزيمة بهم مرة ثانية وقُتل الكثير منهم وهرب البقية وقُتل كذلك باغي الذي كان

في معيتهم، وتوجه كُردك إلى المقنّع، وحمل جبرائيل رؤوسهم إلى السغد لكي يكسر معنويات أصحاب الرداء الأبيض فيها، وانتخب أحد نقباء المقنع واسمه سغديان أميراً عليهم لكن أهل السغد اتفقوا معه و وقعت حروب بين جبرائيل وأهل السُغد وبعد أن قضى عليهم عاد جبرائيل إلى سمرقند.

في هذه الأثناء (159هـ) توفي حُميد بن قحطبة والي خراسان، فأرسل المهدي أبا عون عبد الملك بن يزيد إلى ولاية خراسان لمحاربة المقنع، وفي بداية حكومته كانت الأوضاع مضطربة في خراسان بسبب عصيان يوسف بن إبراهيم المعروف بيوسف البرم بخارى، (160هـ/777م)، كان هذا الرجل حرورياً يأمر بالمعروف و ينهي عن المنكر ويقول آخرون إنه كان يدّعي النبوة ويقول الكفر، تمرّد على العباسيين وجمع حوله الكثيرين. توجه يوسف إلى مرو وانتصر في طالقان وجوزجان، فأمر المهدي يزيد بن مزيد الشيباني بالتصدي له وبعد معركة تمكن من أسر يوسف وبعثه إلى المهدي الذي قتله بدوره.

أدت هذه الثورة والفوضى التي ظهرت في خراسان إلى تعزيز عمل المقنّع أكثر في ما وراء النهر، وعلى أثر ذلك عزل المهدي أبا عوناً الذي لم يتمكن من عمل أي شيء، ونصّب مُعاذ بن مُسلم الرازي عاملاً على خراسان والذي دخلها عام (161هـ).

يقول رأي آخر إن المقنّع أمر بإشعال تنور لمدة ثلاثة أيام، ثم توجه إليه وألقى نفسه فيه واحترق، وفي رأي آخر أنه شرب السّم مع زوجاته وأصحابه، ومات الجميع، ثم دخل المسلمون القلعة وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى المهدي الذي كان في حلب. جمع البيروني الروايات عن مقتله وقال إنه ألقى نفسه في التنور ولكن لم يمت وأنه أُخرج من التنور وقُطع رأسه وأرسل إلى المهدي في حلب.

ورد في تاريخ بخارى أن فتنة المقنع استمرت أربعة عشر عاماً، و قُتل عام (167هـ). ويقول البيروني وأبو منصور إن حركته استمرت أربعة عشر عاماً وهذا يعني أن بدايتها كانت في عام (154هـ)، إضافه إلى ذلك فالوقائع التي نُقلت عن ظهوره في تاريخ بخارى تعود إلى زمن حُميد بن قحطبة الذي كان عاملاً أواخر عام (158هـ)، وإذا كان ابن المقنع قد ظهر عام (154هـ) فإن القضية التي تطرح نفسها هي ماذا كان المقنّع يفعل قبل أربعة سنوات من هذه الحادثة.

إذن فمن الأرجح أن يكون ظهوره أوائل عام (159هـ) قبل وفاة حُميد مثلما ذكر ابن الأثير صاحب تاريخ بخارى أن سنة وفاته كانت عام (167هـ)، ولكن في مكان آخر يقول

(عندما فرغ المهدي من المقنع وأصحاب الرداء الأبيض، أمر الفرسان بقتل تابُنيات ابن طغشاوه ملك بخارى بتهمة مساعدته لأصحاب الرداء الأبيض وكان ذلك عام 161هـ). ويُفهم من تاريخ بخارى أنه تم صدّ المقنّع في زمن المسَيّب بن زُهير الضبّي الذي تم عزله عام (166هـ) بسبب عصيان أهل خُراسان ضده، وخلفه أبو العباس فضل بن سليمان الطوسي واستناداً لهذا يكون موت المقنع عام (216هـ) ويؤيد ذلك صراحة حمد الله المستوفي، وبذلك تكون حركته قد استمرت حوالي ثمان سنوات.

لا توجد في مصادرنا آراء المقنع بشكل مدون، ومعتقداته عبارة عن: تجسّم الله بشكل الأنبياء أو بعبارة أخرى حلول الله فيهم مع أفضلية كل واحد منهم على من سبقه حتى أبي مسلم، وفي النتيجة تجسّم الله في صورته واستباح دماء وأموال وابناء كل من لا يؤمن بدينه وحرّم معاشرة المرأة إلا في الزواج، أباح المحرمات وأجاز ترك الفرائض الدينية مثل الصلاة والصوم.

كانت عقيدة الحلول موجودة بين عدد من فرق غلات الشيعة التي ظهرت قبل المقنّع، وكانت السبائية أول فرقة عملت بعقيدة تجلي الله بشكل الإمام. ومن ثم أتباع حمزة بن عُمارة البربري وكان من أهل المدينة وادعى النبوة وكذلك محمد بن حنيفة الله. ويقال إنه تزوج ابنته وحلل جميع المحرمات. بعد ذلك فرقة الحارثية أصحاب عبد الله الذي كان والده الحارث الزنديقي من أهل المدائن وكان أتباعه يقولون عنه، قبل أن يقتله أبو مسلم في السجن، إن عبد الله نورٌ يدخل في مختلف الأجسام إلى أن استقر في جسم عبد الله بن معاوية. وفرقة الراوندية كانت تعتبر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، هو الله. وكانت فرقة الخطابية والمنصورية تؤمن بعقيدة الحلول، وهذا الكلام ينسحب على فرقة الأبو مسلميّة أيضاً. فهل يُستغرب ظهور المقنّع بأفكاره العجيبة المذكورة في ولاية كان يشيع بين سكانها مثل هذا التفكير؟، ويمكن القول بكل ثقة أن النفوذ الاجتماعي كان كبيراً في تكوين عقائده وآرائه، ومن هذا فتعاليم المقنّع لم يكن فيها الشيء الجديد بل كررَ أقوال وأعمال الآخرين.

كانت فكرة استباحة قتل المعارضين منتشرة بين بعض فرقة غُلاة الشيعة، وكان أبو منصور العجلي يأمر أصحابه بقتل وخنق المعارضين ومصادرة أموالهم ونسائهم، وكان يقول إن كل من يعارضكم كافر ومشرك وعليكم قتله وهذا هو الجهاد السريّ.

أما فيما يخص تعليماته حول الزواج فلا يمكن إعطاء راي فيها لأن كتابات المؤلفين فيها بعض التحريض، علماً أن لبعض فرق الشيعة المغالين مثل هذه

الآداب في الزواج. كانت فرقة الخطابية من بين فرق الغلات التي ظهرت قبل حركة المقنع والتي اتُهمَت بمثل هذه الرسوم، تتبع لأبي الخطاب محمد ابن أبي زينب الأجدع الأسدي والتي يقول عنها بعض المؤلفين إنهم حللوا جميع النساء. إن إجازة المحرمات وترك الفرائض قد نُسبت أيضاً إلى الفرق الدينية الإيرانية من أصحاب المذهب الخرمي وكذلك بعض فرق غُلات الشيعة ومنها اتباع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. تمرّد عبد الله بن معاوية في الكوفة عام (127هـ) ثم جاء إلى إيران وانتصر في مدن وندود ينور وهمدان وأصفهان وقم وكاشان، ثم توجه إلى خراسان عن طريق كرمان، مما اضطر مروان بن محمد لإرسال جيش لصده، اعتقله أبو مسلم وسجنه وثم دسّ له السمّ، عاش عبد الله بن معاوية في أصفهان لمدة من الزمن وعندما قُتل في خراسان بقي اتباعه في أصفهان، ويبدو أن اتباع عبد الله كانت لهم معتقدات تشبه إلى حد ما معتقدات الخرميين ومنها التناسخ وحلول روح الله وترك الفرائض والعيش الرغيد. والمرجح أن الخرميين الذين كانوا في نواحي أصفهان قد انضموا إليه، ويقول الشهرستاني إن الخرميّة والمزدكّية في العراق نشأت منه، ويقيناً أن هذه الفرق كانت موجودة قبل عبد الله بن معاوية وتؤيد أقوال الشهرستاني في مواضع أخرى ما ذهبنا إليه.

وردت إشارة في أغلب مصادرنا إلى معرفة المقنّع بالهندسة والرياضيات وكتب القدماء وقد وردت رواية (خروج السمكة من البئر) (ماهي ازجاهي) في مدينة نخشب في كتب النثر والشعر الفارسي بأسماء (ماه نخشب)، أو (ماه كش)، أو (ماه جان كش)، أو(ماه سنام)، أو (ماه كاشغر)، أو (ماه مقنع). وتوجد في الكتب أشكال أخرى لهذه القصة ولا نعرف كيفية كل واحدة منها. وقد ترجم (سيلوستردوساسي) الفقرة التي نقلها المقريزي عن الشكل الثاني للقصص. يقول البغدادي إن المقنّع كان يقول إنه دخل بهيئة البشر، لأن العباد ليست لهم قدرة زيارته، وإن الشخص الذي يشاهده يحترق بنوره.

لم يؤد موت المقنّع إلى انتهاء معتقداته وبقي قوم على أفكاره. يقول النرشخي إن سبب احتراقه كان قوله دائماً إذا يعصني عبادي، أذهب إلى السماء وأجلب من هناك الملائكة وأقهرهم، لذلك أحرق نفسه حتى يقول الناس إنه رحل إلى السماء ليجلب الملائكة لنصرتنا ويبقى دينه في الأرض، ولكن المقدسي الذي يقول إنه قتل نفسه بالسم ونقلوا جثمانه إلى الخليفة، ذكر أن المقنع كان قد وعد أتباعه بحلوله في جسم

شخص لون شعره رمادي ويمتطي صهوة جواد رمادي اللون، وسيُسلم مُلك الأرض لهم، يقول مؤلف حدود العالم المؤلف عام (372هـ) (إن ايلاق ناحية كبيرة شيدت وسط الصحراء، وفيها عدد كبير من الناس يعملون بالزراعة والبناء، وفيها قرى كثيرة وأغلب سكنتها على دين أصحاب الرداء الأبيض وهم محاربون ووجوههم بشوشة).

يقول المقدسي أيضاً، يوجد في رساتيق هيطل أقوام يسمونهم بيض الثياب وإن مذهبهم قريب من الزندقة ويضيف، فيهم مذهب يسمى الأبيضيّة (المبيضّة)، يقول البيروني في الآثار الباقية إن للمقنّع أتباع في ما وراء النهر على دينه ويخفون أنفسهم ويتظاهرون بالإسلام، يقول البغدادي (إن المقنّع ألقى نفسه في تنور كان يُذيب فيه النحاس والسكر-عند الاسفرايني القطران والسكر-، واختفى خُدِع أصحابه لأنهم لم يجدوه وتصوروا أنه رحل إلى السماء). ولازال أتباعه حتى ذلك الوقت في جبال ايلاق ويعملون بالزراعة ولهم في كل قرية مسجداً لا يصلون فيه، لكنهم يستأجرون مؤذناً ليؤذن فيه، وكانوا يحللون أكل الميتة والخنزير، ويعاشرون النساء وإذا وجدوا مسلماً أو مؤذناً يقتلوه ويختفون. ولحسن الحظ اندحروا من قبل المسلمين. يقول نفس المؤلف في مكان آخر في ذكر مذاهب المُشبّهة إن المقنعيّة أو المبيّضة يقولون في ما وراء النهر وجيحون إن المقنع كان الله وله شكله الخاص في كل زمن. اعتبر الشهرستاني بيض الثياب فرقة من المزدكية. يقول، مترجم تأريخ بخارى، بقي من أولئك القوم، إلى عام 522هـ، مجموعة في كيش ونخشب وبعض قرى بخارى مثل كوشك عمر وكوشك خشتوان وقرية زر ماز، علماً أنهم لا يعلمون شيئاً عن المقنّع، لكنهم على دينه ومذهبهم أن لا يصلوا ولا يصوموا ولا يغتسلوا الجنابة، ويخفون كل ذلك عن المسلمين ويتظاهرون بالإسلام، ويبيحون نسائهم فيما بينهم، ويقولون إن المرأة كالوردة لا يقل عطرها كلما شمّت). يقول العوفي (حدود630هـ) ومن بقايا أتباعه جماعة في رساتيق ولاية بخارى وسمرقند يسمونهم بيض الثياب ويعتبرون أنفسهم مسلمين ويعلمون أولادهم الإسلام، لكن أحداً لا يعرف حقيقة معتقداتهم وحيثيات مذهبهم.

نقل العوفي قائلاً: (في عهد ملكشاه أعلن شخص العصيان يقال له العلوي الإيلاقي، وكان اسمه محموداً ويتحدث عن كل جنس، ويربطون كلامه بكلام أصحاب الرداء الأبيض ويقارن شيئاً من مقالات الخرميين مع مقالات المسلمين، وعندما أطلع الناس على مقالاته أحضروه إلى قاضي مرو، و شهدوا على كلامه الذي يدينه بالقتل، وحكم القاضي بقتله ومن ثم شنقوه).

الفصل السادس

أصحاب المذهب الخرميّ

المصادر: لقد أخطأ أغلب المؤلفين المسلمين بحق أصحاب المذهب الخرمي ولم يكتفوا بعدم البحث عن آرائهم فقط، وإنما اعتبروهم أحياناً فرقة من المزدائيين وأحياناً فرقة من الرافضية وكانوا ينسبونهم تارة أخرى إلى الفرق التي ظهرت بعدهم. وبعد البحث أصبحنا على ثقة تقريباً أن هذه الفرقة أصلاً لها علاقة بمزدكيي العصر الساساني، وقد شمل التطور آراء هذه الفرق الدينية مثلما نلاحظ ذلك في تاريخ سائر الأديان وخضعت لمقتضيات الزمان والمكان. ننقل هنا وبالترتيب التاريخي آراء المؤلفين الذين اعتمدنا عليهم:

- أبو محمد حسن بن موسى النوبختي المتوفى ما بين (300 – 310 هـ) في كتاب فرق الشيعة، يقول بعد ذكر أهل الغُلُو إن هذه الفرقة أسست من قبل أشخصاص ربطوا أنفسهم مع الشيعة خطأً ومرجعها فرق الخرمدينية والمزدكية والزنادقة (يعني المانوية) والدهرية. وبما أن المؤلف ذكر الخرمدينية مع المزدكية والزنادقة فهذا دليل على كونهم يربطون بين هذه الفرق الثلاثة.

- يقول المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف المؤلّف عام (345هـ): (تطرقنا في كتاب المقالات في أصول الديانات وفي كتاب سرّ الحياة لمذاهب الخرمية حتى لو أسموهم الكودكية أو الكودشاهية وسواها، وذكرنا كل أتباع هذه الفرقة في نواحي أصفهان وبرج وكرج أبي دلُف، وزَزّ معقل، وزز أبى دُلف وروستاق ورسنجان، وقسم وكوذشت من توابع صيمرة، ومهرجان كده، وبلاد سيروان، واريدجان ماسندان، وهمدان وسائر أراضي الإيرانيين، وذكرنا خلاف ونزاع الفرقتين المذكورتين مع المحمرة والمزدكية والماهانية وغيرها وذكرنا الأشخاص الذين تمردوا منهم على الدولة الإسلامية منذ عهد هرمزان الذي قتله عبد الله بن عمر بن الخطاب عند وفاة والده). إن هذه الفرقة تؤكد تقارب فرق الخرم دينية مع المحمرة والمزدكية والماهانبة وأصحاب الاثنين وكل من يخالف التوحيد وسنرى فرقة المحمرة لاحقاً التي تشبه الخرم دينية إلى حد ما.

- يقول مطهّر بن طاهر المقدسي في كتاب البدء والتأريخ المؤلف عام

(355هـ): (المزدائيون لهم عدة فرق عندهم الهوس وترهات لا حد لها، البعض يؤمن بقول الثنوية والبعض الآخر يتبع مذهب الحّرانين، والخزمية فرقة منهم، عملوا تحت ستار الإسلام...)، ويقول المؤلف في فصل عن مذاهب المزدائيين: (بما أنهم فرق منهم اللفيرية والبه آفريدية والخرمية)، وفي مكان آخر يشرح مذهب الخرميين ويؤيد نسبهم إلى المزدكيين وسنبحث ذلك لاحقاً.

- يؤكد ابن النديم في كتاب الفهرست صراحة العقيدة المذكورة ويقول: (يقول محمد بن اسحق - ابن النديم - إن الخرمية صنفان، الخرمية القدامى الذين يسمّون المحمرة وينتشرون بين النواحي الجبلية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الديلم وهمدان، وبين أصفهان وبلاد الأهواز وكانوا أصلاً من المجوس، أما الخرميون البابكية فرئيسهم بابك الخرمي...). وأورد في موضع آخر (ص 344) عند نقله لقول امرأة جاويدان: (... ويصبح بابك ملكاً على وجه البسيطة ويقتل كل ظالم ويحيي دين مزدك).

- يقول أبو منصور البغدادي المتوفى عام (429هـ) في كتاب الفرق بين الفرق: (الخرمية مجموعتان، مجموعة كانت موجودة قبل الإسلام مثل المزدكية الذين أحلو المحرمات واعتقدوا أن الناس شركاء في الأموال والنساء، واستمرت فتنة هؤلاء القوم إلى أن قتلهم أنو شيروان في عهده، المجموعة الثانية الخرم دينية الذين ظهروا في دولة الإسلام وثم فرقتان البابكيّة والمازياريّة وكلتاهما يعرفان بالمحمرة...) ويقول في موقع آخر من هذا الكتاب (لقد ذكروا، يعني أهل السنة، المزدائيين أربع فرق؛ الزروانيّة والمسخية والخرمدينية والبه آفريدية، وذبائحهم محرمة وكذلك نكاح نسائهم). اتفق الشافعي ومالك وأبو حنيفة والأوزاعي والثوري على إجازة أخذ الجزية من الزروانية والمسخية ولكنهم اختلفوا في مقدارها، يقول الشافعي إن دية المجوسي خُمس ديّة اليهودي والنصراني، ودية اليهودي والنصراني ثلث ديّة المسلم، إذن ديّة المجوسي خمس دية المسلم.

- يقول أبو حنيفة إن دية اليهودي والمجوسي والنصراني كدية المسلم. ولا يجوز أخذ الدية من المزدكية لأنهم ليسوا من المزدائيين الأصليين الذين يبيحون المحرمات وكذلك هم البه آفريدية...). هذه الفقرة تثبت كيفية تعامل الإسلام في العلاقات الاجتماعية مع الخرمية الذين جاءوا في أعقاب المزدكية، ولكن يجب القول هنا أن لمزدك أتباع في العصر الإسلامي وحدد لهم الأساليب، لكن الغريب

في هذه العبارة أن المؤلف كان يذكر في أول الفقرة والخرمدينية وفي التفاصيل يورد اسم المزدكية بدلاً من الخرمدينية ويبدو ظاهرياً أن الاسمين مترادفان دائماً.

- يقول الأسفرايني المتوفى (471هـ) في كتاب التبصير في الدين: (المزدائيون أربع فرق، الزروانيّة والمسخية والخرم دينية والـ به آفريديه، وجميعها على مذهب المزدائيّة وتؤمن بالله والشيطان).

- يقول ابن حزم في كتاب الفصل: (المزدكية أتباع مزدك من الموبدين، يؤمنون بالاشتراك في الأموال والنساء، أما الخرميّة اتباع بابك فهي إحدى فرق المزدكية).

- يذكر أبو المعالي في كتاب بيان الأديان الخرميين ضمن القسم المتعلق بالمذاهب قبل الإسلام، ويذكر الشهرستاني صراحة أن الخرمدينية جزء من الفرق الدينية الإيرانية.

- يقول نظام الملك في كتاب سياستنامه بعد التطرق لمقالات الخرمية: (من هنا يُعرف كيف كان أصل مذهب مزدك)، وأشار هذا المؤلف مراراً إلى الخرميين ورئيسهم في شرح حركة سنباد، وأشرنا إلى ذلك، يقول مؤلف مجمل التواريخ: (يعود أصلهم – الخرم دينيه- إلى أيام قباد وهم من مزدك بن بامدادان رئيس موابدة قباد).

- يقول السمعاني (المتوفى عام 562هـ) في كتاب الأنساب: (الخرمي هو ما ينسب إلى طائفة من الباطنيين يدعونهم الخرمدينية يعني أنهم يفعلون ما يشاءون، لذلك أباحوا المحرمات مثل الشراب ونكاح القربى وكل عمل فيه لذّة، وفي هذا الباب يشترك المزدكيون مع المزدائيين لذلك يسمونهم الخرمدينية).

- يقول أبو الفرج بن الجوزي (المتوفى عام 597هـ) في كتاب تلبيس إبليس: (... كان اسم – الخرمية- لقب للمزدكيين، وكان المزدائيون أهل إباحة ولهم أتباع أيام قباد، أباحوا النساء والمحرمات والمحظورات، وهكذا أطلق عليهم الخرمدينية لأن هذا المذهب في الأصل يشبه مذهب المزدكيين حتى لو كان هناك اختلاف بسيط).

- يقول ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ: (في هذا العام 201هـ ظهر بابك الخرمي مع الجاويدانيّة أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البُنّد وادعى أن روح جاويدان قد تلبسته وشرع بالدجل والعناد. ومعنى جاويدان هو الباقي والخالد،

ومعنى خرّم الفرح والعيش الرغيد، وهذا الرأي موجود في مقالات المزدائيين ويابك منهم).

- يقول أيضاً سبط بن الجوزي (المتوفى عام 654هـ- 1357م) في مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: (قال علماء السّير إن بابك كان من الثنويّة وعلى مذهب ماني ومزدك ورؤساء الباطنية...). ويقول في موضع آخر من الكتاب (أما الخرمية، فخرّم اسم فارسي ومعناه كل شيء ممتع وهم من المزدائيين أهل الإباحة وكانوا منذ أيام قباد ...).

- يقول فخر الدين محمد بن شاكر في عيون التواريخ (المؤلف حدود عام 760هـ): (يطلقون عليه بابك الخرمي لأنه دعا الناس إلى مذهب الخرميّة، وخرّم لفظ فارسي والقصد منُه كل ما هو ممتع ولذيذ لأنهم يؤمنون بإباحة الأشياء، وكان هذا لقب المزدكية أيضاً، أتباع مزدك وأهل الإباحة، وكانت لهم أتباع أيام قباد والد خسرو انو شيروان، ودعا مزدك قباداً إلى مذهبه وقبله، ولكن سرعان ما عرف حقيقة مزدك فقتله، كان مزدك يقول إن النور والظلمة قديمان وأزليان، والنور سميع وبصير وحسّاس، ويعمل الجبر والاختيار، والظلمة جاهلة وعمياء واعمالها محفوفة بالتخبط، وكان بابك الخرمي على هذا المذهب). إن أحد الدلائل التي تثبت صحة رأينا كون هذه الفرقة إيرانية الأصل هو اسمها وهو كلمة فارسية، والأسماء التي تسمت بها كلها فارسية، ويمكن القول بثقة إن العرب لم يطلقوا هذا الاسم عليها، ولكن هناك اختلاف على هذا الاسم، وقد أشرنا إلى ذلك ولمواصلة الموضوع ننقل العبارات التالية، ونعطي رأينا بها :

- يقول نظام الملك في كتاب سياستنامه: (وبعد أن تمرد مزدك ومن ثم مقتله بأمر من أنو شيروان، لم يتمرد أحد منهم حتى عهد هارون الرشيد، وعندما هربت زوجة مزدك خُرمه بنت فاده من المدائن مع شخصين، نزلت في الري، وبدأت بدعوة الناس إلى مذهبها والتفت حولها المجوس، ولقبوا بالخرّم دينيه).

- يقول أبو المعالي في كتاب بيان الأديان (المؤلف عام 485 هـ): (الخرم دينيه مجموعة اختاروا الراحة والمتعة، واختاروا من كل مذهب مبدأ ليكونوا الأحسن).

- يقول مؤلف مجمل التواريخ: (عندما قتلهم انوشيروان، كانت لمزدك زوجة اسمها خرّمة بنت فادة، جاءت إلى قرية الريّ ودعت الناس إلى دين مزدك لذلك تركوا المزدكية وتسمّوا بالخَرميّة.

- يقول العوفي في جوامع الحكايات بعد شرح قصة مزدك: (بقي جماعة من اتباع مزدك إلى اليوم يقال لهم المزدكيين وكان لمزدك زوجة اسمها خرّمك واتباعها يسمّون الخرّم دينية نسبة لتلك المرأة).

- يقول ياقوت في معجم البلدان: (خرّم قرية في اردبيل ومعناها بالفارسية السرور).

- يقول نصر إنني أعتقد أن الخرمية ومنهم بابك يُنسبون إلى هذه القرية، ويقول آخر الخرمية كلمة فارسية ومعناها الأشخاص الذين يتبعون الشهوات ويبيحونها.

من جميع هذه البيانات هناك ثلاثة وجوه في باب تسمية الخرمدينية: أحدها هو أن خرّم إشارة إلى اتباع الشهوات وأهواء النفس من قبل اتباع هذا الدين، الثاني هو أن خرّم مأخوذ من اسم زوجة مزدك خرمه التي دعت لهذا الدين، والثالث هو اسم قرية قرب أردبيل، لكننا لا نؤمن بالرأي الأخير الذي يقبله بعض المستشرقين، لأن المصادر القديمة لم تتطرق لهذا الموضوع حتى إن اسم خرم في أردبيل لم يرد في مؤلفات الجغرافيين القدماء، فإذا كان هذا الموضع منشأ الخرمية فلماذا لم يتم التطرق لهذا الموضوع في شرح عسكرة الجيوش والمعارك التي وقعت بين عمال الخليفة والبابكيين، رغم وجود عدد من المدن الإيرانية باسم خرّمه وخرّم آباد وخرّمك، لذلك من المرجح أن هذا المكان سمي خرّم لسكن الخرمية فيه بعد بابك، فإذا نعتبر خرّم في الخرمدينية اسم موضع فيصبح معناه (الأشخاص الذين كانوا على دين قرية خُرّم)، إذن فالشكل الصحيح والكامل لهذه الفرقة هو الخرّمدينية وليس الخرميّة وهو مخففها. إن التبرير المذكور رغم بعده عن التصديق في حاجة ماسة لاثبات أن هذا الدين ظهر في هذه القرية لكن هناك دلائل كثيرة تثبت خلاف ذلك.

أما التعليل الثاني الذي يقول إن الخرمدينية مشتق من خرمه زوجة بابك، فأولاً أن هذا الموضوع غير موجود في المصادر القديمة إلا في سياسة نامه لنظام الملك، ومن المرجح أن صاحب المجمل وعوفي قد اقتبسا هذا الموضوع منه.

نعتقد أن الخرم دين تركيب فارسي أطلقه أتباع هذا الدين على أنفسهم مثلما كان الإيرانيون كالزرادشتيين قبل عصر العرب وبعده يطلقون على أنفسهم (البه دينان) (المفرد به دين وفي البهلوية وه دين)، والأشخاص الذين كانت لهم قبل

مزدك عقائد شبيهة بمعتقداته كانوا يطلقون على أنفسهم (درست دينان) «يعني أصحاب المذهب الصحيح، المترجم»، وهذا المصطلح الأخير ترجمه ابن البلخي بالمذهب العدل، لذلك فالمؤلفات القديمة التي كانت تعتبر اسم الخرم دينان مأخوذ من صفة الخرّم بمعنى الفرح والسرور أقرب إلى الصواب ولكن البعض أضاف نظريات وتفسيرات شخصية. إذن الشكل الصحيح لأسم هذه الفرقة هو الخرم دينان وشكله العربي الخرمدينية. الخرمية الشكل الناقص والمخفف والمتأخر لها.

بعد أن أدت النتائج المضرة لانتشار دين مزدك إلى خوف قباد، قام بقتل أتباعه بمساعدة نفوذ رجال الدين ومعارضة أنو شيروان، وانتهي على اثر ذلك خطر المزدكيين الذي كان يهدد الشاهنشاهية الإيرانية، لكن آراء مزدك لم تنته خاصة أن هذه الآراء تجددت لدى العامة من الناس التي كانت تعارض دائماً الطبقة العليا واستبدادها. كان لمزدك أتباع حافظوا على معتقداته سراً، وهذا الحال ينسحب على بقية الفرق المخالفة للسنّة مثل المانويّة، لكن بعد سيطرة العرب على الولايات الإيرانية وُجِهَت ضربة إلى الوحدة السياسية لإيران، وتناقصت بسببها صلاحيات (الموبدين) وهم رجال الدين الزرادشتيين، لذلك استغلت الفُرَق الفرصة لنشر معتقداتهم خاصة أن الدولة لم تُفرّق بين الفرق الدينية المزدائية إلى حد ما.

بعد أقل من قرن من فتح العرب تعزّز نفوذ أتباع الفرق الذين كانوا يعيشون سراً خوفاً من أن يؤدي تطور معتقداتهم وزيادة أتباعهم إلى إثارة الاضطراب لدى الموبدين وكذلك الخلفاء والعمال العرب، لقد تحدثنا في المقدمة عن المانويين وهدفنا هنا الحديث بشكل إجمالي عن أحوال الفرقة الثانية.

الخرم دينان ومثلما هو معروف من الشواهد المذكورة أعلاه والشواهد الأخرى التي لاداعي لضبطها جميعاً، هم أعقاب المزدكيين ولكن يجب الأخذ بنظر الاعتبار أنهم كانوا مجبرين على إخفاء معتقداتهم، لذلك أصبحوا على شكل مجاميع صغيرة بسبب انتشار الدين الإسلامي وعجزهم عن إنشاء المعابد، أو اختيار رؤساء مذهبيين، وأخيراً انتشارهم في الولايات الإيرانية وعدم وجود علاقات تربطهم، واتخذت كل مجموعة اسماً لها، واختلفت في بعض الجزئيات مع المجموعة الأخرى ولكن بمرور الزمن خضعت لنفوذ وتعاليم الإسلام. تزايد الشبه بين دينهم ودين الطبقة العالية والحاكمة بعد أن تعززت ورسخت أصول الدين

الإسلامي واختلاطهم بالمسلمين، وشوهد ويشاهد هذا الوضع بين الأقليات الدينية وخاصة أن بحثنا هذا يتركز على الطبقات العامة التي تركت العادات والمعتقدات القديمة من جهة، وقلدت آداب الأطراف بدون تفكير من جهة أخرى.

بعد أن اتضحت العلاقة التاريخية والنسبة الفكرية لهذه الفرقة مع الفرقة المزدكية في العصر الساساني، نبدأ أولاً بذكر أصول تعاليم المزدكية ونعود إلى كتاب المستشرق والعالم المشهور آرثر كريستن سن الذي تحمّل مشاق كثيرة لتوضيح أحوال وأفكار هذه الفرقة:

يقول ابن النديم في كتاب الفهرست (صد 342): (... وهم أصلاً كانوا مجوساً إلى أن أوجدوا هذا المذهب، رئيسهم مزدك القديم الذي أمر اتباعه بسلوك طريق الملذات والشهوات من الأكل والشرب والتصدُق يقسم من المال والاختلاط مع بعض والمشاركة في النساء والأبناء، لذلك امتنعوا عن قتل الحيوانات، ولهم رسوم خاصة في الضيافة لا نشاهدها في المذاهب الأخرى، فمثلاً عندما يضيفون شخصاً يلبون له كل ما يريد. كان مزدك الأخير الذي ظهر في زمن قباد بن فيروز على هذا المذهب لكن أنو شيروان قتله مع أتباعه. استقصى البلخي أخبار وأفعال وعبادات الخرميين في كتاب عيون المسائل والجوابات، ولسنا بحاجة لإعادة ما ذكره الآخرون قبلنا. أما الخرميون البابكية فرئيسهم بابك الخرمي، وعندما كان يخدع شخصاً ما كان يقول له إنه الله وإنه أباح القتل والغصب والحرب والتمثيل في مذهب الخرميين، وكان الخرميون قبله لا يعرفون هذه الرسوم).

لا نعرف شيئاً عن آراء الخرم دينيين بالنسبة للعالم وترتيب شكله وأهدافه وغاياته، لذلك سنقارن معتقداتهم الأخلاقية والاجتماعية التي نعرفها جيداً مع نظائرها في تعاليم مزدك: (كان مزدك لا يجيز الحقد والحرب وكان يقول يجب القضاء على عدم المساواة لأنها السبب الأساس وراء الحقد والحرب. كان يجب أن يعيش كبار رجال الدين والأبدال عزاب ومتبتلين في مجتمع المانوية، ولايملكون قوت يوم ولباس بسيط، لذلك نجد أن لديهم ميولات للزهد ومن المحتمل أن هذه الميولات كانت موجودة لدى الطبقات العليا في الدين المزدكي ولكن رؤساء الدين المزدكي كانوا يعرفون أن عامة الناس لايمكن أن يبتعدوا عن المتع المادية يعني الثروة والمال والنساء إلا في الوقت الذي يستطيعون فيه تأمين هذه الحاجات بحرية، ونتيجة لهذا النوع من الأفكار ظهرت النظرية الاجتماعية للدين المزدكي،

التي تجيز المشاركة في الأموال والنساء كالماء والنار والمراتع، وكان هذا العمل عبادياً وكان الله يأمر به ويجزي عليه الجزاء الكثير، وإذا لم تكن مثل هذه الأوامر لما كانت المساعدة بين الناس عمل لائق ومطلوب من الله).

أما فيما يخص المشاركة في النساء يقول المؤلف المذكور (لا يوجد في المصادر ذكر عن كون أن قباد قد نسخ الزواج، إضافة إلى كون هذا العمل غير ممكن عملياً، وبما أن قباد قد تعامل بحرية أكثر مع قانون النكاح الجديد يعني القوانين الجديدة التي كانت موجودة في الحقوق الساسانية، وكان للرجل الحق أن يعطي زوجته أو أزواجه إلى الشخص المحتاج والفقير ولم يكن من الضروري أخذ موافقة الزوجة، والأولاد الذين ينجبون من هذا الزوج المؤقت يعودون للزوج الأول، وإذا قال الزوج لزوجته أنت الآن حرة بالعلاقة الجنسية فهذا لا يفرض عليها الابتعاد عنه ولكنه يسمح لها بالارتباط مع زوج آخر).

أما فيما يخص الارتباط بالأموال يقول نفس المؤلف: (إن الأمر الجدير بالملاحظة هو عدم وجود أي مصدر لعصر قباد تحدّث عن القوانين التي وضعها بشأن المشاركة في الأموال، ذكر كتاب خداي نامك فقط مثل هذه القوانين ومن الممكن أن يكون لهذا الأمر صحة إلى حد ما).

يقول مطهر بن طاهر المقدسي عن الخرم دينيه: (هم عدة فرق ومجموعات ولكنهم يتفقون على الرجعة ويؤمنون بتغيير الاسم والجسم ويظنون أن جميع الأنبياء يشتركون بروح واحدة رغم الاختلاف في الشرائع والأديان ولا ينقطع الوحي إطلاقاً، يمتنعون عن سفك الدم إلا في الحروب ويعتبرون أبا مسلم أعظم الرجال ويلعنون أبا جعفر لقتله إياه ويقيمون الصلاة للمهدي ابن فيروز لأنه ابن فاطمة ابنة أبو مسلم، ويعودون لها في الأحكام ولهم أنبياء يسمونهم الملائكة ويتبركون بالشراب. يستند دينهم على الإيمان بالظلمة والنور، وعند البحث فيهم وجدناهم في غاية النظافة والطهارة وقريبين من الناس وقلوبهم مليئة بالعطف ووجدنا بينهم أناساً لهم رأي في إباحة النساء بشرط رضاهن، وكانوا يبيحون كل ما يؤتي باللذة للنفس ويميل له الطبع ولا يتسبب بالضرر لأحد. إن الاعتقاد بمبدأ الظلمة والنور والامتناع عن سفك الدم وملاطفة الناس والرغبة بالمشروبات وإباحة الناس بشروط معينة والحرية في تأمين الحاجات المادية وإرضاء الطبع بشروط معلومة والتحرر من القيود التي لا أساس لها من الأمور التي نشاهدها في

البحث في معتقدات المزدكية أيضاً . من جملة ما يقوله المقدسي عن مبدأي الظلمة والنور عندهم: (يظهر الخرمدينية إسلامهم ظاهريا ولكنهم مجموعة من المزدائيين ويقولون إن مبدأ العالم هو النور وبعض منهم نسخ هذا المبدأ إلى الظلمة).

نقل المقدسي فقرة من كتاب الخرمدينية يُعدُ بالنسبة لنا في غاية الأهمية وهو النموذج الوحيد الذي وصلنا عن مواضيع ومقالات وكتب الخرمدينية: (قرأت في كتاب الخرم دينية أن الكواكب كرات، والثقوب تأخذ أرواح الناس وتعطيها للقمر الذي يكبر على أثر ذلك وعندما يصل إلى الكمال والتمام يعطي هذه الأرواح إلى شخص أعلى منه، ثم يفرغ ثم يبدأ مرة ثانية باستلام الأرواح التي ترسلها النجوم له إلى أن يتكامل مرة أخرى). ولتوضيح هذا المبدأ ننقل أدناه فقرة نقلها ابن النديم في كتابه النفيس عن كتب المانويين: (يقول ماني خُلقت الشمس والقمر لتطهير كل ما هو نور في العالم، تُطهِّر الشمس النور الذي امتزج بشياطين الحرارة ويحرِّر القمر النور من شياطين البرودة، ويصعد إلى الأعلى بعمود الحمد والشكر رغم التسبيح والتقديسات والأقوال والأفعال الحسنة ويعطي هذا النور إلى الشمس التي تعطيه بدورها إلى النور الموجود فوقها في عالم التسبيح، وتفعل الشمس هذا دائماً إلى أن تقضي على النور في الأشياء بحيث لا تستطيع الشمس والقمر من تطهيره بعد ذلك، عندها يرتفع ملك كان يحمل الأرض ويحرِّر الملك فوق السماوات عندها يتحول إلى متعرجات ومنحنيات وتخرج النار وتحرِّك الأشياء بشكل تفصل النور المتبقي في الأشياء ويستمر هذا الحريق ألف وأربعمائة وثمانية أعوام.

عندما نقابل هاتين الفقرتين يبدو لنا قربها ووحدة أصلها، لأن المقدسي أراد أن ينقل رأي الخرمدينية عن الصور السماوية لكنه اقتنع فقط بمختصر بشأن قصده، ولكن يمكن الاستنباط من هذا المختصر من أين جاء أصل الخرمدينية. وكان السيد آرثر كريستن سن قد اثبت تشابه ووحدة بعض من أصول الدين المانوي مع دين مزدك. أما فيما يخص الاشتراك في الأموال فلا يمكن الاعتماد على صحة كتابات المؤلفين، ومثلما شاهدنا فقد قيل ذلك عن المزدكيين، فالقوانين اتُخذَت لإصلاح حال المساكين والفقراء.

تعتبر عقيدة التناسخ إحدى المعتقدات التي كان لها الأثر الكبير خاصة في

ممالك الشرق وتم بحث ذلك بشكل مستفيض، وكان يعرفها حكماء اليونان أتباع أورفسه وفرسيد وفيثاغورس وامبدوكلس والهنود، وكان العلماء يتصورون لمدة طويلة أن هذه العقيدة جاءت من مصر إلى اليونان، وكان منشأ هذا القول هيرودوت، ولكن عرفنا أن المصريين لم يكونوا يؤمنوا بالتناسخ. كان بعض المؤرخين يعتقدون أن فكرة التناسخ جاءت من الهند إلى إيران ثم تحولت إلى اليونان، ولكن لا يعرف مدى صحة هذا الرأي، (إن هذه العقيدة ظهرت بحد ذاتها في عدد من الدول بعيداً عن كونها انتقلت من مكان إلى مكان آخر، ويجب على كل روح أن تسكن تباعاً في عدة أجسام بدون أن ترتبط بأحد ويُعدُ التفكير المذكور من الأمور النفسية لدى العامة من جميع الشعوب على وجه البسيطة). يقول مؤلف آخر: الطريقة البسيطة لبيان نظرية التناسخ هي أن نعدُها امتداداً لعقيدتنا الأصلية وانتساب الناس للحيوانات وهم جميعاً أبناء الأرض.

لا نعرف على وجه الدقة العصر الذي بدأت فيه هذه العقيدة في إيران، ولكن الذي نعرفه أن المانويين يؤمنون بهذه العقيدة وجعلوها منسجمة مع تعاليمهم. ويبدو أن المزدكيين قد أخذوا هذا المبدأ منهم لأنهم أقرب إليهم من حيث المعتقدات، وورث الخرم دينية هذه العقيدة من أسلافهم المزدكيين. إن الاختلاف الذي يلاحظ بين تناسخ فيثاغورس والهنود والمانويين وبين تناسخ الخرمدينية هو أن التناسخ لدى المجموعة الأولى له هدف أخلاقي وتطهيري و آخر دنيوي، ولكن الخرمدينية منحوه جانباً إلهياً وبشرياً، يعني أن الإيمان بالتناسخ هو من جانب حلول الروح الإلهية في الأشخاص، ومن جانب آخر تعبير عن حركة الروح الواحدة في أجسام مختلفة، يقول المقدسي: كانوا يؤمنون بالعودة وليس القصد من وراء ذلك عودة الأشخاص مرة ثانية بنفس الأجسام الأولى بل القصد من العودة هو التناسخ، حتى لو اختلفت العقيدتان مع بعضهما وما يؤيد ذلك إنه اعترافهم بتغيير الاسم وتبديل الجسم يعني حركة الروح الواحدة في أبدان مختلفة أو ما يسمى التناسخ، لذلك نشاهد في قصة بابك أن زوجة جاويدان كانت تقول أن روح جاويدان حلت في جسد بابك. من جانب آخر نقرأ في فهرست ابن النديم أن بابك كان يقول إنه الله. يقول الشهرستاني أيضاً إن الخرمدينية كانوا يؤمنون بالتناسخ والحلول وإن عقيدة وحدة أرواح الأنبياء مرتبطة بنظرية التناسخ، ورأيهم بعدم انقطاع الوحي وتعاقب الأنبياء مرتبط أيضاً بعقيدة التناسخ، وأسماء الملائكة التي

كان الخرمدينية يطلقونها على أنبيائهم تعادل كلمة رسول عند الإيرانيين، واهتمام الخرمدينية الخاص بالنظافة والطهارة هي من رسوم المانويين التي يبدو أنها انتقلت إلى المزدكيين.

لا يُعرف بالضبط حجم العلاقة بين الخرمدينية وأبو مسلم ومدى اعتماده عليهم في الإطاحة بالأمويين وحجم المساعدة التي قدموها له، ولا تُعرف معتقداته الدينية، يقول الشهرستاني؛ إن أبا مسلم كان في بداية الأمر من الكيسانية يعني الأشخاص الذين يؤمنون أن الإمام جعفر بن محمد(ع) اقترح عليه أن يدعوا له بالخلافة إذا يريد، وعندما رفض توجه إلى أبي العباس ودعا له بالخلافة، ويضيف المؤلف أن الرزامية أتباع رزام الذين يقولون إن الإمامة من علي (ع) إلى ابنه إبراهيم الذي دعا له أبو مسلم، وظهروا خلال فترة في خراسان، ويقال كان أبو مسلم على مذهبهم فأعطوه الإمامة وادعوا أن روح الله قد حلت فيه لذلك ساعده الله في القضاء على بني أمية وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح.

الموضوع الأخير؛ يعني موضوع الإيمان بالتناسخ الذي نسبه بعض المؤلفين إلى أبي مسلم لكنهم في النتيجة لم يذكروا شيئاً عن افكاره واعماله، وبما أن أبا مسلم خدم مدة مع الإمام إبراهيم لذلك يمكن اعتبار الإمامة من حق إبراهيم وشقيقه أبي العباس، ولكن لا يعرف بالضبط مدى ارتباطه بأية فُرقة من الفرق التي كانت تعطي هذا الحق لإبراهيم وشقيقه، كانت الفرق التي تعتبر الإمامة من حق آل عباس تعرف بالراوندية وهي طائفتان: الطائفة الأولى كانت تقول (عندما كان أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية يحتضر أوصى أن يكون من بعده محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إماماً)، إذن محمد بن علي إمام. يبدو أن هذه الطائفة هي أول مجموعة قد سُميت بالراوندية، وظهرت نتيجة للدعوة العباسية في خراسان بعد وفاة أبو هاشم. كانت هذه الطائفة خلال وفاة أبو العباس ثلاث مجاميع:

قبلت المجموعة الأولى إمامة أبي جعفر وبعد ذلك إمامة ابنه المهدي، لقد منعهم المهدي من إثبات الإمامة لمحمد بن الحنفية وقال إن الإمامة بعد محمد (ص) من حق العباس عمه و وريثه، و قبلوا رأيه.

المجموعة الثانية الذين كانوا أصحاب عبد الله الراوندي اعترفوا بإمامة أبو

جعفر وقالوا، إن الله إمام العالم والقادر على كل شيء، وأبا مسلم نبيّ مرسل، وأبا جعفر هو الذي أرسله الله، كانوا يؤمنون بالتناسخ وأعلنوا دعوتهم هذه، وهي نفس المجموعة التي تجمعت في الهاشمية حول قصر المنصور عام (137هـ أو 141هـ)، وحاربهم المنصور، وينَقل مؤلف مجمل التواريخ هذه الفقرة العجيبة عنهم والتي لا يعرف مصدرها: (كانت هناك جماعة يسمونها الراوندية يعترفون بربوبية المنصور، نعوذ بالله، وقبل ذلك اعترفوا بربوبية أبو مسلم في خراسان، وأصلهم يعود إلى عبد الله الراوندي ويؤمنون بالتناسخ، قَتَل أبو مسلم عدداً كبيراً منهم في خراسان وقد دسوا السم إلى أبي مسلم، واعترفوا بابنه المهدي بعد المنصور).

المجموعة الثالثة قالوا إن الإمامة بعد العباس لأبي مسلم، ولكنهم انقسموا إلى فرقتين بعد مقتله: أحدهما الأبو مسلمية التي يُسمها البعض الخرمدينية وذلك لأن بعض الخرمدينية قبلوا ولاية أبو مسلم، وكانوا يقولون إن أبا مسلم حيّ وحلت فيه روح الله، الأخرى الرزامية وكانوا من أصحاب رزّام وقد مر ذكرهم. كان هؤلاء القوم يدعون أن أبا مسلم كان من أصحاب المعجزات. الطائفة الثانية من الراوندية أصحاب أبو هريرة الراوند وأبو القاسم بن راوند (هكذا)، أو أبو هريرة الدمشقي (هكذا !)، وكانوا يقولون إن الرسول صرّح بإمامة عباس بن عبد المطلب وجعله إماماً وتنتقل الإمامة من بعده إلى أبنائه، ويقال إن هذه الطائفة أحدث من الطائفة الأولى، ويسمونهم العباسية وقد توسعت بوجود أبو مسلم وقد غالوا بحقه.

إن الذي يُعقد الموضوع هو أن أبا مسلم كانت له جوانب عجيبة و جامعاً للأضداد. فَتن المعاصرين له بأعماله وأسلوبه وجعل جميع الفُرق تعظمه وتُقدسه، و أوصلته إلى منزلة الله أو الرسول، واعتبرته خالداً، من الجدير بالذكر هنا أنه كان في البداية من مؤيدي إمامة أولاد العباس لكن بعد استقرار الخلافة العباسية أدت القوة الخارقة التي حصل عليها في الولايات الإيرانية وخاصة في خراسان وحتى في بلاط الخليفة إلى أن تصور نفسه خليفة وأراد أن يعطي لنفسه الحق في الرئاسة، في الحقيقة أن الموضوع الذي يثير العجب هو أن أبا مسلم حظي بمحبة الكثير من الإيرانيين رغم الصعاب والمذابح وكان جيشه يعتبره إلهاً، ودليل ذلك الفتن التي وقعت بعد مقتله، أيد بعض الخرم دينيه ولاية أبو مسلم واعتبروه إماماً.

كان لأبي مسلم ابنتان: واحدة تدعى فاطمة والأخرى أسماء. يقول نظام الملك، كان له ولد اسمه أبو الغّراء، حصل بحقه خلاف بين الخرمدينية بعد وفاة

أبو مسلم، قال البعض إنه لم يمت ولن يمت إلى أن يظهر ويملئ الدنيا العدل، وقالت فرقة إنه مات وابنته فاطمة هي الإمام لذلك عرفوا بالفاطمية، ولكن بعد وفاة فاطمة بحثت هذه الفرقة عن الإمامة و انتظروا أن يخرج شخص من نسلها.

إن العقيدة المهدوية المذكورة لا يوجد لها أثر في التعاليم المزدكية ومثلما نعرف كانت رائجة بين الشيعة، لذلك لا يمكن القول إن ظهور هذا الرأي عن المستقبل ليس من نتائج نشر أصول المذهب الشيعي بشكل قطعي، لان هذا التفكير كان موجوداً منذ زمن في الدين الزرادشتي، ويعتقد بعض العلماء أن ذلك من آثار الدين الزرادشتي في الأديان الأخرى وبما أن الخرمدينية هم أعقاب المزدكية فيُعتقد أنهم اعتنقوا هذا المذهب لقربه من أفكارهم.

نعرف القليل عن عادات ورسوم الخرمدينية، ويُستنتج من المصادر أنهم كانوا يدعون لابن فاطمة، وكلما اجتمعوا أو جلسوا مجلساً كانوا يصلون على أبي مسلم وكذلك على ابن فاطمة ابنة أبو مسلم الذي يصفونه بالطفل العالِم وكانوا يتبركون بالشراب. يقول ابن النديم نقلاً عن واقد بن عمرو التميمي؛ اعترف أتباع جاويدان ببابك خليفة ثم نقل فقرة من حديث زوجة جاويدان عن البقرة.

يتواجد الكثير من أتباع الخرمدينية في الولايات الإيرانية ولكن عددهم كان أكثر في عراق العجم أو الجبال ومناطقهم مميزة نسبياً في مصادرنا وفي ما يأتي أسماء مناطق الخرمدينية وفرقهم: ماسبذان، مهر كان كده، نواحي أصفهان وبرج، كرج أبي دلف، ورذّ الرذّ أبي دلف، رساتيق ورسنجان، قسم، كوذشت من أعمال صيمرة من مهر كان كده، بلاد سيروان، آريوجان من بلاد ماسبذان وهمدان، ماه كوه، ماه بصره، وبين أصفهان والأهواز في رستاق قام دان التي يسكن فيها الأكراد وفي رساتيق فهان الكردية، أذربيجان وأرمينية، قم وكاشان والري، بلاد الديلم وبلاد خراسان وبقية بلاد إيران وخارجها، وأغلبهم يعيش في القرى والمناطق المكشوفة، يجب التأكيد هنا على أن هذا الانتشار كان السبب في ظهور الخلاف بين الخرمدينية ومجموعات اتخذت لنفسها أسماء مختلفة وأكبر مجموعتين منهم تعرف بالكودكية والكردشاهية.

إن اسم الكودكيه أطلق على الأشخاص الذين كانوا يتبعون ابن فاطمة ابنة أبو مسلم، والذين كانوا يسمونه بالطفل العالم حسب ما ذكره نظام الملك ويسمونهم

في خراسان بهذا الاسم أو الخرميّة [كودك في اللغة الفارسية تعني الطفل... المترجم]، أما المجموعة الأخرى التي نجدها بأشكال مختلفة مثل الكودشاهية واللودشاهية ولا يعرف شكلها الصحيح، هي ربما الكردشاهيّة ومثلما نشاهد في أحد نسخ كتاب التنبية والإشراف كانوا كثرة في بلاد جبال الكرد، وحسب ما يقول اليعقوبي فإن مجموعة منهم كانوا من الخرمدينية.

كان يُطلق على المجاميع الصغيرة الأبو مسلمية أتباع أبو مسلم الخرمدينية حسب ما ذكره أبو القاسم البلخي في كتاب عيون المسائل والجوابات، كانت مجموعة منهم في زمن البلخي تسكن في بلخ في قرية تسمى خرم آباد، وكانت تُخفي آرائها. كان هؤلاء القوم يغالون بحق أبي مسلم و يؤمنون بحلول روح الله فيه وكانوا يقولون إن أبا مسلم أفضل من جبرائيل وميكائيل وبقية الملائكة، وهم ينتظرون خروجه، والذي قتله المنصور كان شيطاناً. ويؤمنون أن زرادشت أرسل أبا مسلم وهو الذي يبقيه حياً. كانت مجموعة من أولئك تقيم في مرو أيام البغدادي، وكذلك مجموعة في هرات ويعرفون بالبراكوكية. يُعدُ الشهرستاني الأبو مسلمية فرقة من المزدكية، ويبدو أنهم من الخرمدينية وكان منهم اسحق الذي سبق ذكره.

أما أصحاب الرداء الأبيض الذين يعتبرهم الشهرستاني صراحة مجموعة من المزدكية، كانوا يسكنون نواحي سغد وسمرقند وجاج وإيلاق، وعند ظهور المقنع التفوا حوله ويبدوا أنهم لقبوا بهذا الاسم بعد مقتل أبو مسلم وطلبوا الثأر له واختاروا اللون الأبيض لملابسهم وشعارهم وكانت مجموعة منهم تقول إن الدين هو الإمام وإن الدين شيئان: معرفة الإمام وأداء الأمانة، والشخص الذي يتم له ذلك فقد وصل إلى الكمال وتسقط عنه التكاليف وقد مّر شرح ذلك في باب المقنع.

السُنباديّة: عندما ثار سنباد للانتقام لأبي مسلم كانت مجموعة من أتباعه من الخرمدينية، ثم أُطلق اسم السنبادية على الخرمدينية في بعض النواحي مثل الري وقزوين.

البابكية: عُرف أتباع بابك بهذا الاسم وكان يُطلق عليهم الجاويدانية قبل أن يظهر بابك الذي كان أيضاً من فرقة الكودكية. كان رئيس الجاويدانية جاويدان بن شهرك وكان يسكن أذربيجان في جبال البذّ، وسنشرح حياة بابك في موضعه.

المازارية: ينسبون إلى مازيار بن كارن (قارن) كرشاه (ملك الجبال) أصبهبد طبرستان ولكن لا نملك وثيقة مؤكدة تثبت أنه كان على المذهب الخرمي. كانت في طبرستان طائفة تسمى المحمرة سكنت هذه الولاية مدة طويلة قبل ظهور مازيار، والمرجح أنهم كانوا من الخرمدينية ولكن الذي لا نعرفه بالضبط هل لمازيار هذا علاقة بهم أم العكس؟ لكن هناك شواهد تؤكد أنه كان على الدين الزرادشتي ومنها ما يقول البغدادي: إن المازياريّة أتباع مازيار الذين أوجدوا دين المحمرة في جرجان وطبرستان ويسكنون جبالها ويتظاهرون بالإسلام وفي الباطن يعارضونه وهناك وثائق تثبت ذلك، لكن كل ما يتعلق بمازيار من وثائق مشكوك في صحتها، والأمر الذي جعل المؤلفين يعتبرونه من الخرمدينية هو قصة المراسلات بينه وبين بابك وقرب زمن حركته من حركة بابك.

يقول ابن النديم إن الخرمدينية صنفان، الخرمدينية القديمة والجديدة، القدماء منهم يسمونهم المحمرة، لكن هذا القول خاطئ وارتكب المؤلف خطأ في تسمية الخرمدينية القديمة، لأن المحمرة اسم عربي سميّ به الخرمدينية في العهد الإسلامي، يقول البغدادي في هذا الخصوص: (الخرمية صنفان، صنف منهم كان قبل دولة الإسلام مثل المزدكية، والصنف الثاني الخرمدينية الذين ظهروا في العهد الإسلامي وهم فرقتان أيضاً البابكية والمازيارية وكلتاهما اشتهر بالمحمرة). إن هذه الفقرة صحيحة بغض النظر عن كونها تعود إلى مازيار. يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان في مادة البذّ: (رفع هنا المحمرة المعروفون بالخرمية راية العصيان)، أما سبب تسمية المحمرة فيقول السمعاني: (المحمريّ نسبة إلى طائفة من البابكية الخرمدينية لأنهم كانوا يرتدون الرداء الأحمر أيام بابك ومعتقداتهم هي نفس معتقدات البابكية، وهناك راي آخر يقول إنهم سمّوا كذلك لأنهم كانوا يقولون إن المسلمين يطلقون على المعارضين اسم الحمير، والتأويل الأول هو الأصح، وهناك من يقول أيضاً إنهم في المعتقدات يبيحون نكاح المحارم كالحمير). إن القسم الأول غير صحيح، لأن المؤلف اعتبر المحمرة أتباع بابك ولأننا سنشاهد بعد ذلك أنهم كانوا موجودين قبل ظهور بابك بأعوام، وأما وجه التسمية لكونهم يرتدون اللباس الأحمر فقد أطلق عليهم العرب اسم المحمرة فهذا صحيح ولكن لا نعرف بالضبط لماذا يرتدون هذا اللون. بعد أن اصبح اختيار اللون في القرن الثاني الهجري رمزاً، فقد اختار العباسيون اللون الأسود، ونتيجة لتحقيقات (فان فلوتن) سنعرف الآن لماذا اختاروا هذا اللون.

اختار المعارضون للدولة العباسية منذ تأسيسها اللون الأبيض رمزاً للمعارضة لها. يقول المقدسي: (في السنة الثانية من ولاية أبي العباس يعني عام 133هـ تمرّد زياد بن عبد الله الأموي في حلب وادعى الخلافة وجعل أتباعه من اللون الأبيض شعاراً لملابسهم وراياتهم...). وضمن أخبار خلافة المنصور نرى أسماء معارضين كانت ملابسهم وراياتهم بيضاء غالباً كعنوان للمعارضة، وهذا الأمر معمول به لدى العرب والإيرانيين على حد سواء لذلك جعل الإيرانيون اللون الأسود شعاراً للدين الإسلامي والعباسيين، وأطلقوا على دينهم الزرادشتي الدين الأبيض، أما فيما يخص المحمرة أو أصحاب الرايات الحمراء أو الرداء الأحمر فلا نعرف بدقة لماذا اختاروا هذا اللون، فقد كان العرب يسمّون الإيرانيين الحمر وأحياناً يسمونهم المحمرة، ولكن ليس هناك ربط بين هذه التسمية واختيار اللون الأحمر. إن أول مرة ورد فيها اسم المحمرة كان عام (162هـ) في خلافة المهدي وسيأتي شرح ذلك لاحقاً. كان تسمية المحمرة ومثلما شاهدنا تُطلق عموماً على مجامع من الخرمدينية، لكن هذا المُسمى أُطلق عليهم في أذربيجان وطبرستان وجرجان ونهاوند ودينور خاصة. أما الذقولية فهي فرقة من فرق الخرمدينية ولدينا معلومات قليلة عنها وقد ورد هذا الاسم في كتاب تبصرة العوام بشكل قوليّة وثم أطلق على الخرمدينية في أذربيجان حسب ما ذكره الشهرستاني ومؤلف تبصرة العوام.

يقول الثعالبي في ذكر أخبار وآراء به آفريد وأتباعه: (بقيت منهم إلى الآن مجموعة تسمى البه آفريدية، وقد قرأت في كتاب أنهم بين الخسروية والخرمية. الخسروية في أغلب الظنّ أتباع خسرو الآرزو مفان، وقد وردت معتقداتهم في كتاب الفهرست لابن النديم (ص 340)، ويقول المؤلف المذكور إن مذهبهم شبيه بالمذهب الخرمي في بعض الأمور. إن هذا الرأي يؤكد وجهة نظرنا من كون أن فرقة الخرمدينية فرقة إيرانية ونحن نعرف جيداً أن إحدى القبائل الكردية في فارس كانت تسمى الخسروية وحقيقة أن فروع فرقة الخرمدينية تختلف بعضها عن بعض بسبب الاختلاف في بعض الآراء ولكن الوثائق التي بين أيدينا تؤكد أنه لا يمكن القيام بأي تحقيق في هذا الباب لذلك ظل سبب تطور آراء هذه الفرقة غامضاً في أوقات مختلفة وكذلك اختلاف الفروع مع بعضها ولم تصلنا أية وثيقة من هذه الفرقة، ومن المؤكد أن لديهم مؤلفات تناولها الباحثون إلى أواخر القرن الرابع الهجري.

نقل مطهر بن طاهر المقدسي الذي ألف كتابه عام (355هـ) نقل فقرة من كتبهم ذكرناها سابقاً، وهذا الأمر يثبت أنهم ما كانوا يخفون آرائهم حتى عصر المؤلف وكانت لهم مجادلة وبحث مع أصحاب الأديان الأخرى، وقد التقي المسعودي والمقدسي بهم وتحدثا معهم. يقول بشاري المقدّسي الذي ألف كتاب أحسن التقاسيم بعد عام (377هـ) وفي باب إقليم الجبال التي يعتبرها من الجبال الوعرة للخرمديين: (في الحقيقة أنهم قوم من المرجّئة، لا يغتسلون الجنابة ولم أشاهد مسجداً في قراهم. وقد جرى حوار بيني وبينهم وقلت لهم مع دينكم هذا ألا تتوقعون أن يغزوكم المسلمون قالوا: ألسنا موحدين، قلت، وكيف تكونون موحدين وتنكرون فرائض ربكم و لا تعملون بالشريعة، قالوا نحن ندفع إلى الدولة أموالاً طائلة كل عام...).

كان هناك جدل بين فرقة الخرمدينية مثل الجدل بين الكودكية والكردشاهية، وكان أتباع جاويدان بن شهرك في صراع مستمر مع أتباع عمران، وذكر المسعودي كل تلك الاختلافات في مؤلفاته ولكن تلك الوثائق فقدت الآن.

كان الخرمدينية يبنون قلاعاً حصينة في البلاد التي يسكنوها، لكي يلجئوا إليها وقت الخطر، يقول مسكويه: (عندما وصل علي بن بويه إلى أصحابها، وجاء أحدهم إليه وقدم له ذخائر مهمة كانت مخبأة هناك، استولي علي عليها وصرفها على الجند لاستمالتهم). يقول المؤلف نفسه في أعمال عابد بن علي وهو من قادة عضد الدولة المكلف في كرمان بالقضاء على الطوائف المتمردة في كونج (الجبال) والبلوج عام (360 هـ): (بعد ذلك شرع عابد بن علي في هذه النواحي بصد الطوائف الأخرى التي تُسمى الخرمية والجاشكية التي كانت تهدد الطرق البرية والمائية، ودمرهم وقتل العديد منهم، وقتل رئيسهم أبا علي بن كلاب بعد أن أسره وأسر العديد منهم وبعثهم إلى شيراز، وفي أعقاب ذلك ساد الهدوء هذه المناطق مدة من الزمن).

ظهرت حركات وفرق عديدة منذ عهد هرمزان الذي قتله عبيد الله بن عمر بن الخطاب وبالتحديد منذ الفتح العربي لإيران، ولكن حركة الخرمدينية كانت أهمها لطول مدتها وكثرة عدد ثوارها ومضايقتهم للخلفاء وعمالهم. إن أول مرة نشاهد فيها اسم هذه الفرقة في المؤلفات الإسلامية وحسب الترتيب التاريخي في عام (118 هـ)، في هذا العام أرسل بُكير بن ماهان داعي الكوفة الكبير، عمار بن

يزيد للدعوة في خراسان، وكان عمار في بدايته نصرانياً ثم أسلم وعمل في الحيرة عاملاً للخزف وانضم إلى مجموعة العباسيين، جاء بعدها عمار إلى مرو وأطلق على نفسه اسم خداش، وشرع بالدعوة لمحمد بن علي، وقَبِل دعوته جمع من الناس، بعد ذلك اعتنق الدين الخرمي وأشرك النساء في الدعوة وقال ليس من الواجب الصلاة والصوم والحج، وتأويل الصوم عنده الامتناع عن ذكر الإمام وتأويل الصلاة الدعاء له، وهكذا يفسر الآية (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) (سورة 5 آية 93)، انضم إليه عدد من المشاهير وكبار القوم، عَلِم أسد بن عبد الله عامل خراسان بأمره فأرسل رجاله واعتقلوه وأحضروه إليه وعندما سأله عن أحواله وآرائه رد عليه بخشونة، عندها أمر أسد بقتله شر قتلة.

إن الآراء التي تنسب إلى خداش تشبه إلى حد ما نُقل عن الخرمدينية، لكن لا يعتقد أنه كان على مذهب الخرمدينية لكونه كان نصرانياً ثم أسلم وأقام في الكوفة مركز الفُرق التي كانت متأثرة بأفكار مختلف المذاهب الزرادشتية والمانوية والصابئية والحرانية. إن معلوماتنا البسيطة من المصادر المتواضعة التي بين أيدينا لا تسمح لنا أن نعطي رأياً قاطعاً في هذا المجال. ثار الخرميون عام (135هـ)، وهو العام الذي قتل فيه أبو مسلم وكانت خراسان مركز ثورتهم. ومثلما قرأنا في تأريخ سنباد فأغلب أتباعه كانوا من الخرمدينية، من جانب آخر ليس لدينا أخبار عن جزئيات حكومة عمال أبي جعفر المنصور في إيران، لكن توجد شواهد وقرائن تثبت أن ولايتهم لم تكن على خير وجه، لذلك وقعت ثورات ونشأت حركات كثيرة في إيران وخاصة في خلافة المهدي ومن تلك الحركات، حركة المقنع ويوسف البرم في خراسان وثورة عبد القهار رئيس المحمرة في جرجان، وكانت لأصحاب الرداء الأبيض صولات وجولات في فتنة المقنع التي وقعت أواخر حكومة حُميد بن قحطبة. في عام (162هـ) ثار أصحاب الراية الحمراء في زمن حكومة المهلهل بن صفوان في جرجان وكان رئيسهم يدعى عبد القهار فاتحدوا مع الخرمية في الأطراف وقالوا: (أبو مسلم حي وسيسترد الملك وجعلوا ابنه أبا الفراء مقدماً لهم)، سيطروا على ولاية جرجان وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها وعندما وصلوا إلى الري. كتب المهدي إلى الأطراف ليتحدوا مع عمرو بن العلاء والي طبرستان ويتوجهوا للحرب وتمكنوا من تفريق ذلك الجمع.

في العام نفسه (162هـ) تمرّد الخرمدينية في أصفهان ثم خرج المحمرة عام (180هـ) مرة أخرى في جرجان حسب قول الطبري وتمكنوا منها، عندها كتب علي بن عيسى عامل خراسان إلى الرشيد وقال: إن الشخص المتسبب في هذه الحركة هو عمرو بن محمد العمري الزنديق، أمر الرشيد بقتله في مرو، لكن قول الطبري هذا فيه الكثير من الإبهام لأن علي بن عيسى بن ماهان كان عامل خراسان وليس جرجان وإذا نفترض أنه كان عامل خراسان أيضاً فالغموض يكتنف عملية اعتقال عمرو بن محمد، وتدل عبارة الطبري ظاهرياً على وجود عمرو في خراسان، فربما أعُتقل وتم جلبه إلى خراسان ثم كتب علي بن عيسى تلك الرسالة إلى الخليفة. يقول ابن الأثير: (ثار أصحاب الراية الحمراء في خراسان، ويرجح أن يكون الطبري قد خلط الأوراق بين الحادثتين لأن عمرو بن محمد العمري كان رئيس ثوار خراسان واعتقله علي بن عيسى وكتب إلى هارون الذي أمر بقتله).

في عام (192 هـ) وعندما كان هارون الرشيد متوجهاً من بغداد إلى خراسان لمحاربة رافع بن الليث ثار الخرمدينية في ناحية أذربيجان لذلك أرسل الرشيد عبد الله بن مالك إليه مع عشرة آلاف فارس، فَتَل عبد الله ثلاثين الفاً منهم وأسر مجموعة من النساء والرجال ومن ثم رجع إلى هارون في كرمنشاه. أمر هارون بقتل الأسرى من الرجال وبيع النساء، يقول الدينوري في الأخبار الطوال في باب هذه الواقعة: (في عام 193 هـ ثار الخرمية في الجبل دفعة واحدة، أرسل محمد الأمين إليهم عبد الله بن مالك الخزاعي الذي قتل عدداً كبيراً منهم وفرّق البقية في المدن). يبدو أن قول الطبري أكثر صحة لأن هارون كان في العراق خلال ثورتهم وانضم إليه عبد الله بعد أن دحرهم وتوجه بمعيته إلى خراسان. كتب نظام الملك في باب حركة الخرمدينية في أصفهان مواضيع تختلف عن البقية (في الوقت الذي كان فيه هارون الرشيد في خراسان ثار الخرمدينيون مرة أخرى في أصفهان ومدن ترمدين وكابله وفابك وبقية الرساتيق وثار العديد من الناس على شكل مجاميع وانضموا إليهم وبلغ عددهم أكثر من مائة الف، أُرسل عبد الله بن مبارك من خراسان لقتالهم مع عشرين ألف فارس، لذلك خافوا منه وعادت كل مجموعة إلى ديارها . كتب عبد الله بن مبارك رسالة يقول فيها لا ندع أبا دُلف يهرب، وجاء الرد أنه عين الصواب، وضع كل منهما يده بيد الآخر واجتمع العديد من الخرمدينية والباطنية وقاموا مرة أخرى بأعمال الفساد والنهب، وقام أبو دلف

العجلي وعبد الله المبارك بهجوم مباغت وقتلوا عدداً كبيراً منهم وجلبوا أولادهم إلى بغداد أسرى وباعوهم هناك).

إن الملاحظات التي لدينا عن هذه الرواية التي تقول إن عبد الله بن مبارك الذي لم يرد اسمه في أي مصدر سوى مع قادة هارون هو نفسه عبد الله بن مالك الذي مّر ذكره سابقاً والذي أرسله هارون في شهر صفر عام (193هـ) مع عدد من القادة الآخرين إلى جرجان بمعية ابنه المأمون، وتوجه هو شخصياً إلى طوس لكنه مات هناك وبقي عبد الله بن مالك مع المأمون. إذن يقول نظام الملك: (إن هارون أرسل عبد الله من خراسان إلى الجبال وهذا القول لاصحة له ومن المستبعد أيضاً إرسال عشرين ألف فارس من خراسان إلى أصفهان في الوقت الذي كان فيه الخليفة في خراسان مشغولاً بحرب رافع بن الليث لكن من الممكن أن يكون الخرمدينية قد ثاروا في أطراف أصفهان وهمدان في الوقت الذي ذهب فيه هارون إلى خراسان، وقد صدهم أبو دلف العجلي الذي كان مقيماً مع عائلته في كرج.

***

الفصل السابع

بابك الخرمديني

المصادر: وهي من الحركات والثورات التي نسعى إلى دراستها والمصادر التي ذكرت أنها حركة بابك كما ورد شرحها، فهي أكثر من حيث العدد وأهم من حيث التفصيل وضبط الجزئيات، ولهذا الأمر أسباب، ومن تلك الأسباب قدَم تلك الحركة والثورة بالنسبة لبقية الحركات والثورات، وتزامنت مع أكثر العصور الإسلامية ازدهاراً، ودوّنها علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين الذين كانوا أقرب إلى الحادثة وفق ميولاتهم وأهوائهم ومساعيهم، وأن قربهم لنا مكننا من الحصول على كتبهم ووثائقهم، ومن عظمة وأهمية هذه الثورة استمرارها لفترة طويلة، أما من الناحية المكانية فقد غطت قسماً كبيراً من الأراضي الإيرانية، ولكن للأسف الشديد(آلاف الأسف) لم تصل إلينا جميع المؤلفات التاريخية للعلماء المسلمين في القرون الهجرية الأولى، وما وصلنا لا يمكن مقارنته مع الذي فُقد، لذلك بقيت معلوماتنا ناقصة عن هذه الحركة، ومؤلفو هذه الوثائق ليسوا على درجة عالية من الحياد، أو أحرار في الفكر ولم تكن لهم مراجع عديدة في بعض المواضيع لذلك نحن مضطرون للاقتناع بالحدس والفرض في هذه المواضيع.

كان لمعارضي الخرمدينية، أو الخرمدينية أنفسهم مؤلفات في هذا الباب كانت موجودة حتى القرن الرابع الهجري وإن أغلب مابقي ينحصر بكتابات أعداء بابك ومعتقداته، وهنا يجب التأكيد على أن الحركة التي كان قد دخل فيها آلاف الناس، والدين الذي كان له أتباع في جميع الولايات الإيرانية نراه ميتاً الآن في المؤلفات الحديثة، وتركت المعتقدات الصادقة والحيّة لهؤلاء الناس البسطاء مكانها إلى النظرية المفرضة وآراء مؤيدي الدين الآخر، لذلك من الصعب علينا من خلال الوثائق الموجودة أن نفهم بشكل صحيح أسلوب أولئك الناس الذين صمدوا أعواماً أمام دولة العرب ولم يتنازلوا عن معتقداتهم الدينية وضحوا بأنفسهم في سبيل دينهم مثلما شاهدنا ذلك في الحركات المشابهة.

مصادرنا فيها الكثير من النواقص، والروايات التي توضح هذه الحركة في المراجع لا تختلف مع بعضها إلى حد ما، وما نعلمه في هذا الخصوص هو ما جُمع

في الكتب التي كانت قد كتبت حتى أواخر القرن الخامس الهجري. نذكر أدناه أقدم المؤرخين الذين ذكروا هذه الحركة باختصار:

1- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله المولود عام (213 هـ/ 828م) والمتوفى عام (276هـ/889م) نقل في كتاب المعارف سبب ثورة بابك ومثلما كان معروفاً بين الناس، وتطرق إلى المعارك الأولى التي خاضها بابك مع قادة المأمون.

2- البلاذري في فتوح البلدان في الفصل المتعلق بفتح أذربيجان، وتطرق إلى المناطق التي كانت مركزاً للمعارضين أيام الحرب بين بابك والأفشين.

3- الدينوري: أبو حنيفة أحمد المتوفى عام (282 هـ/898م) ضبط شرح هذه الحركة في كتاب الأخبار الطوال، ويقدم معلومات لا نجدها في بقية المصادر.

4- اليعقوبي: المتوفى عام (284هـ/897م) ذكر هذه الواقعة في تأريخه ويحوي ما ذكره جزئيات غير موجودة في مصادر أخرى.

5- إن أكثر الشروح تفصيلاً عن هذه الحركة ما جاء في التاريخ العظيم لمحمد بن جرير الطبري، ولكن جميع ما ورد في هذا الكتاب يرجع للحروب وعسكرة الجيوش وترتيب وتدبير الفتوح.

6- المسعودي: في مروج الذهب، كتب مختصراً عن حركة بابك ثم بين بالتفصيل اعتقاله وأشار إلى هذه الحادثة في كتاب التنبيه والإشراف وبحث تقسيمات الخرمدينية ونقاشاتهم فيما بينهم ومع الأجانب وكذلك مساكنهم وأصلهم.

7- المقدسي: في كتاب البدء والتأريخ، ويعدُ أفضل مصدر للاطلاع على معتقدات الخرمدينية وقد نقلنا آرائه قبل ذلك، وقد أورد المؤلف فصلاً في كتابه عن حركة بابك وكيفية التصدي لها.

8- ابن النديم: في كتاب الفهرست الذي شرح فيه تقسيمات الفرقة وآراءهم ومساكنهم وتطرق إلى أحوال بابك في طفولته وتزعمه للدين الخرمي وإبداعاته فيه.

9- ضبط الأسفرايني في كتاب التعبير عين روايات البغدادي.

10- نظام الملك: في كتابه سياست نامه شرح حركة الخرمدينيين منذ بداية القرن الثاني إلى نهاية القرن الثالث الهجري.

11- البغدادي: في كتاب الفَرقُ بين الفِرَق الذي روى لنا باختصار تقسيمات

الفرقة وآراء أتباعها وحركة بابك والحالة الدينية لهذه الفرقة في زمنه، ويُعَدُّ هذا المصدر مفيداً للإطلاع على تطور عقائد الخرمدينية.

12- تحدث مؤلف مجمل التواريخ باختصار عن أصل هذه الفرقة وحركة بابك ومقتله.

13- ابن الجوزي: المتوفى عام (597هـ) في نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس، أورد بيانات عن رئيس الفرقة ووضعيتها الدينية.

14- ابن الأثير: في كتاب الكامل في التأريخ ؛ تحدث بإسهاب عن حركة بابك وحروبه وفتوحاته وأسره وقتله.

15- العوفي: في جوامع الحكايات، أورد ثلاث حكايات عن أصل بابك وعصيانه ومقتله.

16- سبط ابن الجوزي: المتوفى عام (654هـ/1357م) في كتاب مرآة الزمان، بحث في اصل بابك وحركته ومقتله والوضع الديني لها في القرون اللاحقة.

17- أبو الفرج بن العبري: في تاريخ مختصر الدول، تحدّث عن حركة الخرمدينية وعصيان بابك ونهايته.

18- ابن شاكر فخر الدين: في عيون التواريخ، بحث في حركة بابك وأصله وبدايته ومعتقدات الخرمدينية.

19- عفيف الدين أبو محمد عبد الله مؤلف مرآة الجنان: تحدث باختصار عن أصل بابك وبداية حركته ونهايتها.

20- ابن خلدون: في كتاب العبر، أورد شرحاً مفصلاً عن حركة بابك وحروبه ونهايته. وقد وردت إشارات في كتب أخرى سنذكرها لاحقاً.

بغض النظر عن كتاب سياستنامه لنظام الملك، لا تختلف بقية المصادر في كليات هذه الحركة، فبعض المؤلفين أوردوا موضوعات لا توجد عند غيرهم، لكن بعض المؤلفين المتأخرين لم تكن لديهم مصادر مستقلة إلا ما نملك نحن ونقلوا ما ذكره السلف عيناً.

تتفق روايات الدينوري واليعقوبي والطبري والمسعودى مع بعضها ولكن اليعقوبي يمتاز عن الآخرين في ضبط الجزئيات، ويُفضَل الطبري على الآخرين لحفظ مختلف الروايات والبسط والتطويل.

تتحصر روايات البلعمي ومؤلف مجمل التواريخ وابن الأثير ومؤلف مرآة الجنان وابن خلدون وحمد الله المستوفي في ما ذكره الطبري ولكن باختصار. ارتكب البلعمي أخطاء وأغلاطاً في ترجمته الحرة للطبري، لا يشاهد في هذه المجموعة من المصادر شيء عن أصل بابك وطفولته وتربيته ونموه العقلي والأخلاقي والديني، لكن الدينوري هو الوحيد الذي أشار بشكل مختصر إلى أصل بابك.

يعدُ ابن النديم هو أفضل من ضبط أصل وبداية عمل وتربية بابك من الآخرين. لقد كان في متناول يد هذا المؤلف القدير كتاباً لواقد بن عمرو التميمي الذي كان قد جمع أخبار بابك، وقد نقل ابن النديم فقرات عنه ودونها في كتابه الفهرست. بما أننا لا نعرف شيئاً عن حياة واقد لذلك لايمكن أن نقول متى ألف كتابه، أبعد وفاة بابك؟.

الحقيقة أن المدة الزمنية بين مقتل بابك وتأليف الكتاب لم تتجاوز أكثر من(150) عاماً، وبما أن بابك قُتل عام (223هـ/ 838م) والفهرست ألف عام (377هـ/988م) فمن المحتمل أن المقدسي كان لديه كتاب الواقد، لانه اقتبس فقرات منه، دوّن كتاب البدء والتأريخ عام (355هـ/966م) وألف كتاب الواقد عام(228هـ) بعد مقتل بابك.

من بين المؤلفات التي خلطت عدداً من الروايات، كتاب المقدسي الذي يُعدُ أهمها، استفاد هذا المؤرخ في القسم الأول من منقولاته من مصدر ابن النديم، يعني كتاب الواقد، ولكن لحسن الحظ فالذي اقتبسه من هذا الكتاب لا ينطبق نصاً مع ما اقتبسه مؤلف كتاب الفهرست، وما أورده المقدسي غير موجود في الفهرست، وما نقله المقدسي تلخيص لما ورد في كتاب الواقد. استفاد المقدسي من مصدر الطبري وربما من نفس كتاب المؤلف، وما أورده عن عدد قتلى بابك ومعاملة المعتصم للأفشين تتفق مع المصدر المذكور. وردت عند المقدسي رواية مختصرة عن قوة وشهامة بابك عند مقتله، وهذا ما تجده في كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي، ولا نعرف راوية هذا الخبر.

إن ما نقله ابن الجوزي خليط من روايات الطبري ورواية البغدادي عن الحالة الدينية لهذه الفرقة في عصره.

ترجم العوفي في إحدى رواياته الموضوعات نفسها التي ذكرها المقدسي مع إضافات قليلة في أولها وآخرها، وتحدّث في الحكاية الثانية التي لا يُعرف

مصدرها الأصلي عن تدبير ومكر الأفشين في أسر بابك والدسائس والرسائل إلى المعتصم، الحكاية الثالثة وراويها ابن ساج حسب ماذكر العوفي وتشتمل على حوار ابن السياح مع بابك وما لقنه إياه فيما يقوله أمام الخليفة لربما يعفو عنه، نرجّح أن يكون ابن السياح هو تحريف لأبي الساج، وكان رئيساً لمجموعة أغلقت الطريق أمام هروب بابك وقد تعقبه بعد هروبه وأسر أمه وزوجته وقائده، إذن هو نفسه أبو الساج ديوداد مؤسس سلالة الساجيين في أذربيجان.

إن بيانات سبط بن الجوزي مركبة من روايات الطبري ولكنها مختصرة ورواية المقدسي وحكاية التنوخي عن قوة وجرأة بابك خلال قتله، إن ما نقله هذا المؤلف أحد أكثر الشروح التي لدينا إيجازاً عن أحوال بابك. اقتبس أبو الفرج بن العبري مواضيعه من تاريخ الطبري وخاصة من مؤلفات المقدسي، ونقل ابن شاكر عن الطبري، وكانت بين يديه مؤلفات تاريخ المقدسي وكتاب التنوخي ورتّب بياناته على ضوء هذه المصادر الثلاثة، هنا لا يمكن اعتماد رواية سياسة نامه لنظام الملك لأنها تختلف كثيراً عن الروايات الأخرى ولا يمكن الاعتماد على أقواله مرة واحدة والتي يقول في نهايتها (ورد حديثهم بأكمله في تجارب الأمم وتاريخ أصفهان وأخبار خلفاء آل عباس)، ولكن ما ذكره عن الخرمدينيين وبابك يختلف كلياً عما ورد في تجارب الأمم. نورد أدناه بعض العلماء المعاصرين الذين نثق بمعلوماتهم في هذا الباب:

الأستاذ إدوارد براون في تاريخ الأدب الفارسي؛ قدم شرحاً جديراً بالاهتمام عن بابك وترجم ما جاء عند ابن النديم في كتاب الفهرست أيضاً، وقام كلمان هوار بترجمة فرنسية لبابك في دائرة المعارف الإسلامية، جمع السيد سعيد نفيسي في مجلة (مهر) ما وجده عن بابك وحركته السياسية الدينية في الكتب العربية والفارسية والأرمنية.

أدى الترتيب الذي أعدّه هارون الرشيد لخلافته من بعده وتقسيم (الشاهنشاهية) بين ولديه وعداء الإيرانيين والعرب لبعضهما والذي تزايد بعد قتل واعتقال البرامكة، أدى كل ذلك إلى نشوب خلاف بين الأمين والمأمون الذي انتصر على أخيه بعد صراع طويل وبمساعدة الإيرانيين. مكث المأمون في إيران من عام 192 إلى عام202هـ عندما جاء مع والده إلى خراسان، وفي هذا الوقت انتصر عليه الفضل بن سهل وسيطر على ولايات الشرق، وكانت أغلب الولايات الغربية لإيران والعراق والحجاز تحت سيطرته منذ بداية خلافة المأمون حتى مجيئه إلى العراق. افتقر

الحسن بن سهل لكفاءة أخيه لذلك وقعت في فترة حكمه حركات عديدة ومتعاقبة في الولايات المركزية والغربية وكان الفضل يخفي أعمال أخيه عن المأمون ويعمل شخصياً على حلها. كان قادة جيش المأمون وخاصة هرثمة بن أيمن غير مرتاحين لنفوذ الفضل، وكان بعضهم يريد عودة المأمون إلى بغداد ويجعل منها مركزاً لخلافته كما هو الحال سابقاً. من جانب آخر كان هرثمة يناصب العداء لأبناء السهل وعزم على القدوم إلى خراسان لكشف الأمور أمام المأمون، لذلك تحرّك في ربيع الأول عام (200هـ) من معسكره إلى مرو وكان الفضل يعلم بأمره وبإشارة منه بعث المأمون عدة رسائل إلى هرثمة وأمره بالتوجه إلى الشام والحجاز، رفض هرثمة هذا الأمر وجاء إلى خراسان، عندها قام الفضل بتأليب المأمون عليه وعندما وصل هرثمة عامله المأمون بقسوة ولم يفسح له المجال للحديث ثم سجنه، وقُتل بعد ذلك بأمر من الفضل و ادعوا أنه مات في السجن. زاد مقتل هرثمة من حقد أهالي العراق الذين كانوا دائماً على اطلاع بازدياد نفوذ الفضل ذو العقل المدبِّر.

في عام (201هـ) اختار المأمون علي بن موسى الرضا (ع) خليفة له، وأثار هذا الأمر حفيظة وغضب أبناء العباس الذين كانوا يقولون إن الفضل نقل الخلافة من أسرة العباسيين إلى العلويين وستعود نتيجة لذلك إلى الإيرانيين، أدى ذلك الوضع إلى عزل المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي في بغداد، وبلغت الفوضى ذروتها في ممالك الخلافة، والمثال على ذلك خضوع سيستان وكرمان وفارس لسيطرة حمزة بن آذرك الخارجي (تاريخ سيستان ص 156-182).

استغلت فرقة الخرمدينية هذا الوضع بعد أن كانت تمارس العصيان لمدة طويلة، وثار الناس كذلك في أذربيجان ومما سهل الأمر عليهم في هذه الولاية قيام المأمون بتولية حاتم بن هرثمة على ولاية أرمنستان قبل ان يُقتل في خراسان. لم تمر عدة أيام على ولايته حتى وصله خبر وفاة والده، بعد ذلك تمرّد بردعة وجاء إلى مدينة كيال وتحصّن فيها وكتب رسائل إلى البطارقة وكبار إيران والأرمن يحرضهم فيها على الثورة، وكاتب بابك وحثّه على الثورة على الخليفة وظل على هذا الوضع إلى أن توفي. يُستشَف من هذه البيانات أن بابك كان رئيس الخرمدينية عام (200هـ) ولكن الطبري يقول عن أحداث هذا العام إن بابك أعلن العصيان مع جاويدان في هذا العام، وادعى أن روح جاويدان قد حلت به (الحلقة الثالثة ص 1015)، لذلك فمن المحتمل أن يكون حاتم قد كتب رسالة إلى جاويدان

وعندما ذاع صيت بابك حلّ اسمه محل اسم جاويدان. استجاب الخرمدينية لدعوت حاتم وشرعوا بالعصيان، أصاب إيران القحط في العام التالي يعني عام(201هـ) مما زاد من مشاكل الدولة، وأعلن حاتم عصيانه وكانت تلك الحادثة بداية لعصيانه في هذا العام كما ورد في كتب التواريخ.

اسم بابك كما يقول المسعودي حسن، وهذا ما لا يتفق عليه المؤرخون، يقول المؤلف في أقدم مرجع لدينا يعني كتاب الأخبار الطوال: (اختلف الناس في نسبه ومذهبه، ومما هو أكثر صحة بالنسبة لي هو أنه من أبناء مطهر ابن فاطمة ابنة أبي مسلم). يقول الطبري: (نُقل عن محمد بن عمران كاتب علي بن المّر أنه قال، حكى أبو الحسن علي بن المّر عن رجل من الصعاليك يدعى مطر إن مطراً قال لي، يا أبا الحسن والله بابك ابني، قلت كيف قال؛ لقد كنا مع ابن الرواد وكانت أمه تدعى برومند كريمة العين وكانت من خدم ابن الرواد. فحشت بها لطول السفر والغربة، بعد ذلك حدث انقطاع بيننا وعندما عدنا نزلت منزلاً، عنده قدمت المرأة وقالت إنها تحمل مني ولامتني على تركي لها لكنني هددتها بالقتل إذا تحدثت بهذا الموضوع إلى شخص ما، لذلك سكتت وعلى هذا فبابك ابني).

قال مؤلف الفهرست في هذا الباب: (قال واقد بن عمرو التميمي الذي لفّق أخبار بابك بأن والده من أهل المدائن وكان يبيع الزيت، رحل إلى حدود أذربيجان، وسكن في قرية من رساتيق ميمذ تسمى بلال آباد، وكان يحمل الزيت على ظهره ويجوب القرى به. عشق امرأة كريمة العين هي أم بابك وكان يجامعها سراً، وعندما كانا سوية بعيداً عن القرية يحتسيان الخمر خرجت نساء من القرية لملء الماء من العين، سمعن صوتاً نبطياً، توجهن صوب الصوت فقمن بمهاجمتهما، هرب عبد الله، ومسكن النسوة شعر أم بابك و جلبوها إلى القرية وكشفوا سرها، يقول واقد لقد طلبها بائع الدهن من أبيها الذي زوجه إياها، وأنجبت له بابك توجه هذا الرجل إلى جبل سيلان (قرب أردبيل) ضمن سفراته المتعددة، وطعنه أحد الأشخاص في ظهره ومات على أثرها، عملت أم بابك بعد ذلك مربية مقابل أجر زهيد إلى أن بلغ بابك من العمر عشر سنوات...).

من المؤكد حسب أغلب المراجع أن بابك كان له أخ يدعى عبد الله ولكن الرواية السابقة تقول إن بابك الابن الوحيد، إضافه إلى أن عبد الله هو والد بابك وليس أخيه، يقول السمعاني (F56a) إن بابك ابن مردس، لكن هذا الاسم لم يرد

في بقية المصادر، يُعرف من رواية الفهرست أن لبابك أصلاً وضيعاً، ولكن توجد إشارات تنفي ذلك لدى الطبري وبقية المؤرخين عن آخر حوار لعبد الله وبابك يوضح أن بابك كان من الدهاقين وأخذ على عاتقه وأفراد عائلته الدعوة للدين الخرميْ (الطبري، الحلقة الثالثة،ص 1231 و ص 1223).

لا يمكن تحديد تأريخ ولادته مما مرّ سابقاً، وكذلك لا يعرف بالضبط عُمُره ولكن محل ولادته أذربيجان حسب جميع المصادر، ومما لا شك فيه أنه كان شاباً عندما بدأ حركته، وسيوضح ذلك الموضوع الذي سننقله من الفهرست. تمتزج الروايات المدونة عن بابك بالأساطير وخاصة عن طفولته وتربيته وشبابه، وما نعرفه يعتمدُ فقط على ما نقله ابن النديم عن كتاب أخبار الملوك للواقد:

(يقول الواقد إن بابك كان مع شبل بن المنقّى الأزدي في رُستاق سراه، وكان يرعى مواشيه، وتعلم من غلمانه العزف على الطنبور، ثم توجه إلى تبريز، وعمل سنتين في خدمة محمد بن الروُاد الأزدي ثم عاد إلى والدته، وكان عمره ثمانية عشر عاماً، ويقول واقد بن عمرو أيضاً كان هناك رجلان من الخوارج في جبل البُذّ وأطرافه على مذهب الخرمدينية، وكانا في نزاع مستمر لرئاسة الخرمدينية، كان أحدهما يُدعى جاويدان بن شهرك، والآخر معروف بكنية أبو عمران، وكانا يحاربان بعضهما في الصيف، ولكن الثلج في الشتاء كان يحول بين حربهما، خرج جاويدان أستاذ بابك من مدينته مع ألفي رأس غنم إلى مدينة زنجان إحدى مدن قزوين الحدودية، وعندما دخل المدينة وباع الغنم عاد إلى جبل البذ. من البيانات أعلاه يمكن أن نقتنع بما جاء فيها عن رئاسة جاويدان وأبي عمران على الخرمدينية وقرب بابك لجاويدان وترأسه لهم بعد وفاته واختلاف آراء هذه الطائفة مع الآراء الإسلامية والضغط الذي تحملوه من العرب لمنع نشر دينهم بحرية.

كان لجاويدان ابناً بقي أسيراً لدى العرب لفترة من الزمن، لكنه نجى من الأسر بعد أن اندحر جيش المسلمين، ولا نعرف بالضبط لماذا لم تنتقل الرئاسة من جاويدان لابنه وانتقلت إلى بابك وربما يعود السبب لكون أن بابك تزوج من امرأة جاويدان وهذه القصة أكثر صحة.

يُعرف من هذه الحكاية أن بابك كان شاباً عندما تسلم الرئاسة ويبدو أنه كان شجاعاً وعاقلاً وذكياً، وعاش قبل الرئاسة بين جماعة لم يكونوا على دين الإسلام ولم يكونوا في مأمن من أذى المسلمين بسبب معتقداتهم، لذلك كان العداء للعرب

وآدابهم وآرائهم راسخ لدى المقربين له، وكان من الطبيعي أن يفكروا بصدّ العرب وإحياء دينهم، وظلوا ينتظرون من الذي ينتصر ويقتل الجبابرة ويحيي دين مزدك ويعزّ ذليلهم ويرفع شأن حقيرهم، تركت هذه الأمور بصماتها على بابك وحددت خط سيره وسلوكه وتربى وترعرع عليها. خفف بابك بدوره من المعانات لدى أعوانه ومما ساعده على ذلك حاجات مجتمعه التي أعدته لحياة مليئة بالصراعات ومعارك لاحقة.

كل ما يعرف عن حياته أنها بدأت عام (200هـ) وانتهت بمقتله عام (223هـ)، وحقق النصر في معارك السنتين الأخيرتين من عمره فقط، وكان أتباعه في تزايد مستمر وتوسّع ملكه، ودحر جيوش الخلفاء مراراً وقتل وأسر عدداً من قادة جيش العرب، كما أن نجاحاته في أذربيجان أسفرت عن انضمام آلاف الناس في الجبال إلى دينه، أما فيما يخص بداية حياته الاجتماعية يقول المقدسي: (استدعى بابك أتباعه الذين كانوا في القرى والنواحي وهم أقلية أذلاء وسلحهم بالسيف والخنجر، وأمرهم بالعودة إلى قراهم ومنازلهم وأن يخرجوا للحرب في الثلث الثالث من الليل و أوصاهم أن لا يبقوا على رجل، أو امرأة، أو طفل من بعيد أو قريب ليس على دينهم. نفذوا أوامره بدقّة، وعندما بزغ الفجر كان الكثير من الناس قد قتلوا على يد الخرمدينية ولا يعرف بالضبط السبب وراء ذلك، وعلى أثرها عم الناس الخوف والهلع الشديدين. أرسل بابك على حين غرّة أتباعه إلى مناطق أخرى وكانوا يقتلون كل من يصادفونه من دون الاكتراث للعمر أو المنزلة أو المذهب، وهكذا اعتادوا على القتل. إنضم إليه قطاع الطرق والقتلة والجبناء ومثيرو الفتن والكفرة، وازداد عدد أتباعه ووصل عدد فرسانه إلى عشرين ألف سوى المشاة، واتسع نفوذه إلى المدن والقرى البعيدة وكان يمثل بالناس ويحرق جثثهم ناشراً في الأرض الفساد).

بعد سيطرته على البذّ ونواحيها، لجأ المسلمون إلى مراغة خوفاً منه وتحصنوا فيها، دمر بابك المدن والقرى تباعاً في أطراف البذّ لكي يستطيع السيطرة عليها وحكمها ومن ثم يتعذر الوصول إليه، ومن ذلك الوقت بدأت سلسلة حروبه مع جيش الخليفة، عندما وصل الخبر إلى المأمون، ولى يحيى بن معاذ بن مسلم مولى بني ذهل على أرمنستان وأمره بحرب بابك الذي كان يزداد قوة في هذا الوقت. دخل يحيى معه في عدة معارك عام (204هـ) ولكنه لم يحرز نصراً يذكر، وعندما عرف المأمون بذلك عزله عام (205هـ) وولى محله عيسى بن محمد بن أبي خالد ومنحه ولاية أذربيجان أيضاً وأمره بحرب بابك وأن يصاحب

جيشاً معه من بغداد. عندما وصل عيسى إلى أذربيجان، مثل أمامه محمد بن الرّواد مع أعيان هذه الولاية وجمع من الجند لمحاربة بابك، ثم سلكوا عام (206هـ) طريق المضيق واشتبكوا مع بابك فيه ولكنهم اندحروا وعادوا أدراجهم إلى أرمنستان، وعلى أثر ذلك تعززت قوة بابك في أذربيجان.

في عام (209هـ) جعل المأمون زُريق بن علي بن صدقة الأزدي والياً على أرمنستان وأذربيجان وأمره بحرب بابك، لكنه لم يفعل شيئاً، وعندما قَتَل أمير الموصل بدون علم المأمون غضب عليه وعزله وعين محمد بن حميد الطوسي خلفاً له، وعندما وصل الخبر إلى زريق أعلن العصيان، عندها توجه محمد بن حُميد إلى زريق وحاربه في الزاب وقتل عدداً كبيراً من أعوانه، طلب زريق الأمان ومنحه محمد إياه وأرسله إلى الخليفة بعد أن طهَّر محمد هذه المنطقة من المعارضين وأصبحت الحرب ممكنة له مع بابك. أعد نفسه لها عام (212هـ) وجاء إلى أذربيجان، وفي هذه الأثناء وجدت مجموعة من المعارضين الفرصة مهيأة واستولت على هذه الولاية وقطعوا الطريق عليه وعلى بابك لكنه تمكن من الوصول إليهم وأسر مجموعة منهم وأرسلهم إلى المأمون وحشّد الجند والذخيرة مرة أخرى استعداداً لحرب بابك. انضم إليه العديد من المتطوعين من المدن الأخرى، وتوجه في بداية عام (214هـ) إلى المضائق التي تؤدي إلى بابك، وكان النصر حليفه في كل المعارك التي وقعت بينه وبين أتباع بابك، بعد ذلك نزل في منطقة هشتاد سر وحفر خندقاً وتشاور مع أصحابه بشأن دخول مدينة البذ وأشاروا عليه بالتنفيذ واستجاب لمشورتهم، وعلى ضوء ذلك جهّز جنده وجعل على قلب الجيش محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الطائي المعروف بأبي سعيد وعلى الميمنة المهدي بن الأصرم، وعلى الميسرة عباس بن عبد الجبار اليقطيني، وبقي هو خلفهم مع مجموعة لمراقبتهم وتلافي أي خلل قد يحدث. نزل بابك من الجبل واقترب منهم ووضع خلف كل صخرة مجموعة كمين، فعندما تقدم أعوان محمد ودخلوا الجبل لمسافة ثلاثة فراسخ خرج إليهم الكمين ونزل إليهم بابك مع أتباعه وهزموا جند محمد، عندها أمرهم أبو سعيد ومحمد بن حُميد بالصمود ولكنهم لم يصغوا وهربوا وكان مصيرهم القتل، صمد محمد بن حُميد في موضعه، ولكن هرب من كان في معيته إلا واحداً فكر بالنجاة وتوجه إلى مجموعة كانت تقاتل، شاهد الخرمدينيون مجموعة من أعوانه كانوا يقاتلون، وعندما وجدوه هادئاً توجهوا صوبه لكنه قاتلهم، عندها ضربوا فرسه بالمزراق وكبى الفرس على أثرها وانكبوا

على رأس محمد وقتلوه، وعلى أثر ذلك قُتل العديد من قادة الجيش أيضاً، وقع ذلك يوم السبت قبل خمس ليال من ربيع الأول عام (214هـ) حيث وقعت ستة معارك عظيمة بين محمد وبابك.

عندما وصل الخبر إلى المأمون اعتبره أمراً جُللاً وولى عبد الله بن طاهر على الجبال وأرمنستان وأذربيجان وأبلغ القضاة وعمال الخراج بذلك، جاء عبد الله إلى دينور وكتب إلى المهدي بن الأصرم ومحمد بن يوسف وعبد الرحمن بن حبيب الذين كانوا في معية محمد بن حُميد، وأمرهم أن يبقوا في مواضعهم، وعندما توفى طلحة بن طاهر في خراسان خلفه شقيقه علي بن طاهر بأمر من المأمون. كان عبد الله في ذلك الوقت منهمكاً في إعداد الجيش لإرساله لقتال بابك، وعندما هاجم خوارج خراسان أهل قرية الحمراء في نيشابور وقتلوهم علم المأمون بذلك وأمر عبد الله بالتوجه إليها، وولى المأمون علي بن هشام على ولاية الجبل وأذربيجان ومعابد أرمنستان وأمره كذلك بمحاربة بابك، لكن علي مارس أعمال الظلم في هذه البلاد وكان يقتل الناس ويسلب أموالهم، عندما سمع المأمون بذلك أرسل إليه عام (217هـ) عُجيف بن عتبة، لكن علي هاجمه على حين غرة وأراد قتله ومن ثم الانضمام إلى بابك، لكن عُجيف انتصر عليه وساقه إلى المأمون الذي قتله بدوره (جمادي الأولى عام 217هـ).

كان الخليفة في هذا الوقت يعاني من الحرب مع بيزنطة، كما أن الإندحارات المتلاحقة لجيش العرب وازدياد قوة بابك، أدت إلى اتساع حركة الخرمدينية إلى ولاية الجبال التي كانت تتصل بأذربيجان سابقاً، في الوقت نفسه كانت هناك مجموعة من الخرمدينية تتوجه إلى أذربيجان من أصفهان ومنذ عام (212هـ) وتلتحق مع بابك، وازدادت قوته وأثارت الرعب لدى الخليفة، ويستنتج كل ذلك من وصية الخليفة المأمون إلى أخيه المعتصم عندما كان يحتظر: (أما عن الخرمدينية فابعث لهم صاحب حزم وبأس وقوة وجهزه بالأموال والسلاح والجيش من الفرسان والمشاة، وإذا طالت الحرب فارسل إليه التعزيزات من أقرب الناس...). نفّذ المعتصم وصية أخيه بعد وفاته بشكل كامل.

يقول المؤرخون إن اهتمامه انحصر بهذا العمل عند وصوله إلى الخلافة لأن الحركة اتسع نشاطها في المدن الوسطى والغربية من إيران ودخل عدد كبير في دين الخرمية، وجهزوا جيشاً في أطراف همدان. بعث المعتصم عدة جيوش إليهم، وكان

آخرها بقيادة اسحق بن إبراهيم بن مصعب، وولاه على الجبال أيضاً. جاء اسحق في شهر ذي القعدة إلى هذه الناحية وقاتل الخرمدينية في أطراف همدان وقتل منهم 60 ألفاً، ويقول آخر 100 ألف سوى النساء والأطفال ومن بقي منهم هرب إلى الروم، جلب اسحق بن إبراهيم الأسرى عام (219هـ) إلى بغداد.

كان بارسيس رئيس الخرمدينية الذين هربوا إلى الروم، ومنحهم توفيل ملك الروم رواتب و زوجهم وأدخلهم جيشه عندما هاجم عام (223هـ) أهل زبطرة وأسرهم، ويقال إن الأمر تم بتحريض من بابك.

يقول نظام الملك عن هذه الحركة: عندما حلّ عام (218هـ) تمرّد الخرمدينية مرة أخرى في أصفهان و باذيس وأذربيجان وولايات الجبال عندما كان المأمون في الروم، وهاجموا المدن دفعة واحدة وقتلوا في باذيس العديد من المسلمين، و استعبدوا النساء والأطفال، وكان علي مزدك يقودهم في أصفهان، والذي كان قد استعرض في بوابة المدينة 20 ألف رجل، ثم توجّه مع أخيه إلى الجبال في الوقت الذي كان فيه بودلف غائباً، وكان لأخيه معقلاً في الجبل ولكنه لم يستطع المقاومة مع 500 فارس، لذلك هرب إلى بغداد عندها تمكن علي مزدك من الإغارة عليهم وقتل كل من وجده من المسلمين، واستعبد أبناء العجليين ثم عاد إلى أذربيجان لكي يلتحق مع بابك الذي انضم إليه الخرمدينية من كل مكان، وكانوا في بداية الأمر عشرة آلاف، ثم صاروا 25 ألفاً و تجمعوا في مدينة صغيرة في الجبال تسمى شهرستانك، التحق بهم بابك، عندها أرسل المعتصم اسحق لحربهم مع 40 ألف رجل، باغتهم اسحق وقتلهم جميعاً، في أعقاب ذلك توجهت مجموعة منهم إلى أصفهان، وأغار عشرة آلاف رجل منهم يرافقهم شقيق علي مزدك على المدن هناك وأسروا النساء والأطفال مستغلين غياب أمير خراسان علي بن عيسى، بعد ذلك توجه القاضي والأعيان لحربهم، وانتصروا عليهم وقتلوا العديد منهم وأسروا نسائهم وأطفالهم، وفي العام ذاته (218هـ) عندما أرسل المعتصم اسحق إلى الجبال لصدّ الخرمدينية توجه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري إلى أردبيل وعَمّر القلاع التي دمرها بابك ووضع بين زنجان و أردبيل مواضع للطلائع والمراصد للمحافظة على الطرق والقوافل. أنجز أبو سعيد مهمته على أحسن وجه، ولكن بابك أرسل مجموعة بقيادة معاوية للقيام بأعمال السلب والنهب، وعندما عرف أبو سعيد بالأمر جمع جيشه وتوجه إليه وحاربه وقتل العديد من أعوانه، وأسر مجموعة واستعاد كل ما أخذه معاوية. اعتُبرت هذه أول هزيمة لبابك، بعث أبو

سعيد الأسرى ورؤوس القتلى إلى المعتصم، الذي أرسل طاهر بن إبراهيم شقيق اسحق بن إبراهيم، وأمره أن يتوجه إلى حرب بابك، وعندما وصل كتب محمد بن البَعيث الذي كان قد انضم إلى بابك وكان صعلوكاً من صعاليك ابن الروآد رسالة إلى الخليفة أعلن فيها طاعته، ثم تحايل على عصمة الكردي صاحب مرند الذي كان من أتباع بابك وتزوج ابنته، ثم توجه إلى مرند، ودعاه إلى منزله مع أتباعه، وحثهم على الشراب وعندما ثملوا حملهم إلى قلعته التي كانت تسمى شاحي ومن ثم أرسلهم إلى المعتصم الذي كان غير مرتاح لعدم انتصار طاهر لذلك عزله، ثم بعث في عام (220هـ) الأفشين إلى أذربيجان.

نزل الأفشين في قرية برزند، وعسكر فيها بعد أن حصّنها، وأعاد ترميم الحصن بين أردبيل وبرزند، يعني حصن النهر وأرشك زخُش وجعل فيها أحد قادته مع مجموعة من الجند لكي يحرسوا القوافل على الطريق ووضع الجواسيس ليطلعوه على تحركات بابك وأعوانه، وفي المقابل كان لبابك جواسيسه الذي يطلعونه على أخبار الأفشين في أذربيجان، سمع بابك بالخبر وقرّر إغلاق الطريق عليه قبل أن يصل إلى الأفشين ويستولي على أمواله لكن الأفشين عرف بذلك وكتب رسالة إلى البُغاء، وأخبره بضرورة البقاء عند الطلائع في حصن النهر (دزرود) حتى تأتي القافلة التي معه إلى برزند، ويتوجه هو شخصياً مع الأموال إلى أردبيل، شعر بابك بهذه الحركة، فحرّك جيشه لسدّ الطريق عليه، تحرّك من معسكره في برزند إلى أردبيل ووصل إلى خُشّ، أما القافلة التي كانت قد تحركت مع البُغاء في أردبيل كانت تتحرك إلى أرشك تحت حماية أحد قادة الأفشين، لكن بابك تصوُر أن الأموال معه، وقعت معركة خلال الطريق مع فرسان بابك قُتل فيها قائد القافلة، عندها عرف بابك أن المال ليس مع القافلة بعد أن استولى على كل ما حملته، وكرّر هذه العملية مع بقية قادة الأفشين الذين كانوا يتقدمون القافلة القادمة من أردبيل، ولكنه كان يجهل أن الأفشين قد تحرك إليه بسرعة، تقرّب أحد القادة من جيش بابك وعرف انهم لا يستقرون في موضع محدد، وعندما عرف ما حدث سابقاً عاد مسرعاً و وصل إلى موضع أرشك مع قافلته، وبعث شخصين إلى الأفشين وتحصّن داخل القلعة أما بابك الذي كان يتعقبه فقد وصل إلى هناك، و وقعت معركة بين بابك وقائد الجيش ولم يمض وقت طويل حتى وصل الأفشين مع جيشه، تمكن من قتل جميع مشاة بابك الذي هرب مع عدد من فرسانه إلى داخل مُغان، ثم توجه إلى البُذّ عندها عاد الأفشين إلى برزند.

بعد هذه الحادثة هاجم بابك مرتين القافلة التي تحمل المؤن إلى الأفشين و استولى على كل ما فيها، وعانى جيش الأفشين من القحط إلى أن بعث صاحب شيروان الطعام إليهم، بعد ذلك وصل إليه البُغاء مع المال الذي يحمله وتحرك الأفشين من برزند ونزل في (ساذرأسب)، وشرع من هناك بقتال بابك، ولكنه عاد مرة أخرى إلى برزند لنزول الثلج بكثرة. في ربيع عام (221هـ) أصدر الأفشين أمراً إلى البُغاء بالتحرك إلى بابك في (هشتاد سر)، وصل البُغاء وأعاد الخندق الذي كان قد بناه محمد بن حميد، وتحرك الأفشين مع جيشه أيضاً، ووصل إلى دَرَّوَذْ وحفر خندقاً هناك وسوّره، كانت المسافة بينه وبين بابك ستة أميال. تحرك البُغاء مع جيشه من هشتاد سر بدون أمر من الأفشين ونزل في قرية البُذّ لكن مجموعة من جيش بابك هاجمت البُغاء، وقتلت من قتلت وأسرت مجموعة من جنده.

أرسل بابك اثنين من الأسرى إلى الأفشين ليخبروه ماذا حلّ بهم، عاد البُغاء إلى خندقه قرب هشتاد سر، وأخبر الأفشين بما حصل وطلب منه الدعم، أرسل الأفشين أخاه فضلاً مع عدد من قادة الجيش وأخبره باليوم الذي يحارب فيه بابك وفي الوقت نفسه تحرك البُغاء من معسكره أيضاً، ولكن البرودة الشديدة أجبرته على التراجع إلى خندقه، لكن الأفشين وصل إلى بابك واصطدم مع جيشه ودحرهم ودخل معسكر بابك، وصعد البُغاء مرة أخرى إلى هشتاد سر، ونزل من هناك إلى البُذّ، وعندما حلّ الليل نزل البُغاء عند جبل قرب جيش الأفشين، كانت الليلة باردة وهطل الثلج بغزارة، وفي النهار غطى الضباب كل مكان، في اليوم الثالث قال جند البُغاء إن كل ما لديهم قد نفذ والجو هنا بارد فأما نعود أو نهاجم بابك، وكان بابك يُغير في هذه الأيام الباردة والمثلجة ليلاً على جيش الأفشين ويقتل عدداً منهم. ولذلك كان الأفشين يضطر للعودة إلى مقره في دروز، أما البُغاء الذي لم يكن يعرف هذا الوضع نزل من الجبل ليتوجه إلى البُذّ، ويهاجم مع الأفشين بابك من جهتين.

اقترب من البُذّ وكان نصف ميل يفصل بينه وبين منازلها، وعندما عرفت طلائع جيشه أن بابك يغُير على الأفشين ليلاً وأن الأفشين عاد إلى معسكره، أخبروا البُغاء بذلك، فاضطرب مع قواده وقرروا العودة وحل الخوف في قلوب الجند، وألقى المشاة سلاحهم خلال المسير وكان يتبعهم البُغاء وقادة الجيش، وبما أن المال وأحمال السلاح والأسري ومن ضمنهم ابن جاويدان كانت في معسكر البُغاء لذلك قرر أن يمكث الليل في أحد الجبال ويعود فجراً إلى خندقه، ونزلوا في

منخفض عميق في الجبل، وكانوا يحرسون مدخله، عاد جيش بابك للإغارة عليهم، هرب البُغاء سراً على الأقدام، لكنه أخيراً عثر على جواد امتطاه وهرب، وجُرح شقيق الأفشين في المعركة واستولى الخرمدينية على المال والسلاح والأسرى، وأنقذوا ابن جاويدان، وصل البغاء مع الهاربين إلى خندقه، وبقي هناك خمسة عشر يوماً، وعندما وجد الأفشين أنه لم يفعل شيئاً كتب له رسالة أمره فيها بالتوجه إلى مراغة وأن يعيد الإمدادات التي أرسلها له.

جاء الأفشين إلى برزند، وصبر حتى ينقضي الشتاء. كان طرخان في هذا الوقت أحد قادة جيش بابك الكبار، وقد طلب من رئيسه إجازة ليذهب في الشتاء إلى قريته في ناحية هشتاد سر، عندما سمع الأفشين بذلك، كتب إلى أحد أتباعه الذي كان في مراغة، وأوصاه بقتل طرخان. في عام (222هـ) أرسل المعتصم جعفر بن دينار الخياط لمساعدة الأفشين، ثم أرسل في أعقابه إيتاخ مع ثلاثة ملايين درهم لصرف رواتب ومستحقات الجند،عندما وجد الأفشين الطقس مناسباً تحرّك ونزل في موضع يسمى (كلان) وحفر خندقاً وبقي هناك خمسة أيام، ووقعت معارك محدودة بينه وبين آذين أحد قادة بابك. ثم تقرّب بعد ذلك بحذر من مدينة البُذّ ووصل إلى دروذ الروذ على بعد ستة أميال من البُذّ وأمر كل من له خبرة بالجبال أن يبحث عن مواضع على رؤوس الجبال ليتموضع بها المشاة. اختاروا ثلاثة جبال كانت فيها قلاع مُدمَرَة وأمر الأفشين بغلق المنافذ إليها بالصخور سوى طريق واحد وحفروا خندقاً خلف هذه الموانع، وعندما أنهى العمل أرسل المشاة إليها وقسّم جنده، وعين القادة وجعل لكل واحد موضعاً، وأمر أن تسهر مجموعة من الجند ربع الليل بالتناوب إلى أن يحل الصباح. كان الأفشين يمتطي صهوة جواده يومياً ويجول في دروذ الروذ وكان يقترب من البُذ وقصده من وراء ذلك التقرّب من أحد المواضع التي كان قد حارب فيها جيش بابك العام الماضي. في هذا الوقت كان محمد بن خالد كبير بخارى يعبر من المضيق مع ألف فارس و 600 من المشاة للمحافظة على الطريق حتى لا يحتله الخرمدينية، وعندما شعر بابك بقدوم الأفشين، أرسل عدداً من أعوانه لينصبوا كميناً له في السهل، حاول الأفشين معرفة الكمين لكنه فشل.

عندها أمر ثلاث مجاميع من جيشه أن تعبر من (بستر رود) التي كانت تقع بينه وبين البُذّ، وأن يبقوا دائماً على صهوات خيولهم، وجلس هو على الجبل مقابل قصر بابك، كان بابك يرسل جيشه إلى بوابة البُذ لكي يصد جند الأفشين ووضع

قسماً آخر في الكمائن وبقي هو مع مجموعة من الجند يحتسون الخمر ويعزفون الناي والطبل، كان الأفشين يعود إلى معسكره بعد أن يُصلي الظهر، كان يكرر هذا الأمر ويرسل جيشه تباعاً إلى أن ضاق الخناق على بابك وكان الخرمدينية يقومون بأعمالهم عن بعد وبمشقة تامة. يقال إن بابك بعث رسالة في هذا الوقت إلى توفيل ابن ميخائيل ابن جورجس صاحب بيزنطة قال فيها إن خليفة العرب أرسل جيوشه نحوي وحتى الخياط (يعني جعفر بن دينار) والطباخ (يعني إيتاخ)، ولم يتبق لديه جيشاً فمن السهل عليك غزوه وليس هناك ما يُعيقك، كان بابك يقصد من وراء ذلك إجبار الخليفة على استدعاء عدد من جنده من أذربيجان وتنفرج الأمور عليه، فكر توفيل بهذا الأمر وجاء إلى (زبطرة) على رأس جيش كبير من بينهم الخرمدينية الذين لجئوا إليه من ولاية الجبال، ودمّر هذه المدينة وأسر العديد من أهلها، ثم توجه إلى ملطية وأسر آلاف من أهلها وقتل العديد ومثل بهم.

نحن بدورنا لا نؤمن بهذه الرواية لأن بابك جُلب أسيراً إلى الأفشين في العاشر من شوال عام (222هـ) وقد فُتحت مدينة البذّ قُبيل ذلك في التاسع من رمضان عام(222هـ)، وتحدّث المؤلفون الذين أشاروا إلى هذه الرسالة عن هجمات توفيل عام (223هـ)، إذن لا نُصدق أن توفيل انتصر لمدة عام كامل ثم فعل ما فعل بعد أن انتهى أمر بابك.

في نفس اليوم الذي عادت فيه مجموعتان من جيش الأفشين إلى بستر رود، وبعد أن عبرت مجموعة أخرى كان يقودها جعفر الخياط هاجمهم الخرمدينية من جانب البذ وتمكن جعفر شخصياً من إبعادهم إلى بوابتها، عاد الأفشين على صوت المحاربين الذي ارتفع عالياً وشاهد جعفر يحارب مع أتباعه، كان قائد بابك في تلك المعركة يسمى آذين، وجيش الأفشين يقوده جعفر الذي غضب الأفشين عليه لمخالفته الأوامر وعدم إذعانه لنصائح الذين كانوا في الكمائن. في هذه الأثناء عبر المتطوعون الذين كانوا مع أبي دُلف من بستر رود وانضموا لجيش جعفر وادركوا بوابة البذ وكانوا على وشك عبورها ودخول المدينة، بعث جعفر رسولاً إلى الأفشين طالباً الدعم منه، لكن الأفشين أمرهم بالانسحاب شيئاً فشيئاً ثم العودة مرة ثانية، أخرجت أصوات المقاتلين المتعالية جند بابك الذين كانوا في الكمائن، وبهذه الطريقة انكشفت كمائنهم، عندها كفّ جعفر عن الحرب وعاد المتطوعون معه، من جانب آخر اشتكى الجند من تباطؤ الأفشين وجاءت الشكوى خاصة من المتطوعين الذين كانوا يقولون إن الأفشين قد تواطأ مع بابك، عندها قرر الأفشين

بدء الحرب، نَظَّم جيشه وحرّك أبا دُلف والمتطوعين صوب سور البذ وجعفر إلى بوابتها. وبدأت المعركة، وفتح الخرمدينية الأبواب وهاجموا أعوان جعفر وتمكنوا من إبعادهم عن البوابة ثم هاجموا المتطوعين بضراوة وأبعدوهم أيضاً عن السور، أرسل الأفشين الإمدادات إلى المتطوعين وإلى جعفر، دارت معارك عديدة ولكن لم يَحرز أي من الطرفين تقدماً، وعاد جيش الأفشين أدراجه ويأس الناس من الفتح في هذا العام، وعاد أغلب المتطوعين إلى بلدانهم.

بعد أسبوعين أعدَّ الأفشين جيشه مرة ثانية وأرسل ألفاً من المشاة ورماة النبال ليلاً إلى الجبل الذي يستقر فيه آذين وصعدوا قمته، بعدها أمرهم أن يرفعوا الأعلام على الحراب عندما يشاهدون رايات الأفشين، وثم ينزل الطبّالون إلى أسفل الجبل ويرمون النبال والحجارة على الخرمدينية، في صباح يوم الخميس التاسع من رمضان عام (222هـ) امتطى الأفشين صهوة جواده ونظم جيشه وأمر بالتقرب من الهضبة التي يستقر عليها آذين ويحيطوا به، طوَّق القادة الجبل وخرج جند بابك من مكمنهم واشتبكوا مع القرغائيين، عندما سمع جند الأفشين صوت الجيش من أعلى الجبل هاجموا آذين الذي أرسل مجموعة من قواته إليهم، صعد جعفر ومن معه إلى آذين وهاجموه بشدة وهرب على أثرها إلى السهل، لكن مجموعة من أعوان أبي سعيد هاجمته وأحاطوا به، وعندما شعر بابك أن جيشه محاصر خرج من البوابة الأقرب إلى الأفشين وتوجّه صوبه وواجهه الأفشين بدوره وكان يفصل بينهما نهر، طلب بابك الأمان وتم له ذلك، قال بابك امنحني فرصة لآخر النهار، قال الأفشين تريد من وراء ذلك تحصين مدينتك فإذا تريد الأمان فاعبر النهر صوبي، لكن بابك عاد أدراجه واندلعت واقعة عصيبة كان فيها جعفر ويزيارة مقابل عبد الله شقيق بابك وهاجموه وقتلوا العديد من جنده، عندها عاد الخرمدينية إلى المدينة وعقَّبهم المسلمون واشتبكوا معهم داخلها وصبوا عليهم الزيت والنار وكانوا يدمرون القصور وأسروا آخر محارب من جند بابك. عاد الأفشين عصر نفس اليوم إلى مقره في دروذ الروذ وعندما عرف بابك بذلك توجه ليلاً مع أتباعه إلى المضيق وحمل معه الزاد والعتاد ونزل في واد يتصل بهشتاد سر، دخل الأفشين صباحاً إلى البذ وأمر بتدمير قصورها ولم يبق فيها أي عمران، وعندما عرف الأفشين بهروب بابك كتب إلى ملوك أرمنستان والبطارقة يخبرهم بهروبه وأمرهم بالمحافظة على نواحيهم والاستفسار من كل غريب يدخلها.

أخبر الجواسيسُ الأفشين أن بابك قد نزل في واد يتصل من ناحية بأذربيجان ومن ناحية أخرى بأرمنستان ويصعب على الفرسان اجتيازه، عندها وضع الأفشين المراصد والعيون للتبليغ عند خروجه، أو الإمساك به لعدم وجود مسلك للوصول إليه. في هذه الأثناء وصلت رسالة الأمان من الخليفة، أراد الأفشين إيصالها إلى بابك ولكن لم يجرؤ أحد على فعل ذلك، لكنه أجبر اثنين على حملها له. لم يقرأ بابك الرسالة وأعادها، خرج من الوادي قُبيل نفاذ ذخيرته وتوجه إلى أرمنستان عن طريق الجبال الوعرة وكان يرافقه شقيقه عبد الله وقائده معاوية وأمه وزوجته وخادم شاب. لكن المراصد شاهدوه وأخبروا مجموعة الجند القريبة منهم وكان يقودها أبو الساج ديو داد، فهاجمهم الفرسان وأسروا معاوية وأم وزوجة بابك، دخل بابك في عمق جبال أذربيجان وسار فيها إلى أن نفذ طعامه، فأرسل خادمه إلى أحد المزارعين لشراء الخبز، لكن شريك المزارع الذي كان متوجهاً إلى القرية شاهد الخادم من بعيد وأخبر المرصد بذلك، عرف سهل بن سنباط رئيس الناحية بالأمر وحضر مسرعاً وشاهد بابك ودعاه باحترام إلى قلعته، وقال له لا يعرف أحد قدرك أكثر مني، وليست لي علاقة بالعرب، وَثق بابك بكلامه بعد أن أعياه التعب والجوع ودخل منزل سهل وأرسل شقيقه عبد الله إلى عيسى بن يوسف ابن اصطفانوس، أطلع سهل الأفشين بسرعة على الأمر، عندها بعث الأفشين قائدين من جنده مع فرسان في الوقت الذي اصطحب فيه سهل بابك معه إلى الصيد وأطلع قائدي الأفشين على ذلك، واللذان حضرا في الحال مع فرسانهما وأسرا بابك ونقلوه إلى الأفشين في مدينة برزند في العاشر من شوال عام (222هـ)، كتب الأفشين إلى عيسى بن يوسف طلب منه أن يسلم عبد الله وكتب رسالة إلى المعتصم الذي أمر بدوره أن يحضروهما إليه.

وصل الأفشين إلى سامراء ليلة الخميس الثالث من صفر عام (223هـ) مع بابك وأخيه وبقية أسرى الخرمدينية، وفي يوم الاثنين ألبسوا بابك الملابس الفاخرة وأجلسوه على الفيل وجلبوه من منزل الأفشين إلى قصر الخليفة، اصطف الناس على الطريق وأنشد محمد بن عبد الملك الزيات قائلاً:

قد خضب الفيل كعادته	يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تخضب أعضائه	ألا لذي شأن من الشان

أحضر المعتصم جلاداً وأمره أن يقطع أوصال بابك ورأسه ويمزق معدته، ثم

أرسل رأسه إلى خراسان وعلق جسده في سامراء على خشبة عالية وسُمي ذلك الموضع بموضع بابك لمدة طويلة، وأنشد العديد من شعراء بلاط الخليفة عن هذه الواقعة التي أسموها الفتح الإسلامي الكبير وكان من أبرزهم الشاعر أبو تمام وحسين بن الضحاك.

نقل العوفي الرواية التالية عن مقتل بابك والتي لا يعرف مصدرها: (يقول ابن السياح [أبو الساج ديو داد] عندما أسروا بابك الخرمي وكنت أنا وبعض الأشخاص من الموكولين عليه وكنا نلقنه في الطريق ونقول له عندما تقف أمام الخليفة ويسألك من أنت قل نعم أمير المؤمنين أنا عبدك، ومذنب وأطمع بعفو أمير المؤمنين وأن يغفر لي ذنوبي. طلب الخليفة رأي الأفشين الذي قال يا أمير المؤمنين لماذا يبقى الكافر حياً بعد أن سفك دماء المسلمين. استدعى الخليفة بابك الذي جلبوه مقيداً وقال له أنت بابك، قال نعم وصمت وطلب أن يقول له ما لُقن لكنه لم ينبس ببنت شفه، ولم يحمر وجههُ ولم يُخطف لونه، وعندما قطعوا رأسه أمر المعتصم بإزالة نقابه وعندما شاهده الناس كَبّروا ودخلوا ومسحوا بدمه الأرض.

أمر المعتصم أن يحضروا شقيقه إلى بغداد حتى يُقتل مقتل بابك، جلبه ابن شيروين إلى قصر يزدان وفي الطريق سأله عبد الله من تكون قال أنا ابن شيروين ملك طبرستان، وسيقتلك من هو أكثر غضباً من بابك تسعين تسعين مرة. قُتل عبد الله في اليوم التالي أبشع قتلة لكنه لم يأن ولم يشتك، وعلقوا جسده في الجانب الشرقي بين الجسرين. يقول العوفي في آخر الحكاية: (... يقول الراوي أمروني أن أعاقب شقيقه في بغداد مقابل الجسر، فعندما نقلته إلى الموضع وقطعت يديه ورجليه قال لي وهو في هذه الحالة أوصل سلامي إلى ذلك الدهقان وأخبره أن لا ينسانا ونحن في هذه الحالة، وأن العقوبة التي ينفذها بحقنا لا تعيد له ماء وجه، قال هذا الكلام وهو يضحك وعندما عدت ورويت الحكاية للمعتصم ندم على قتله وقال قتلتم رجلاً قوياً ولكن سياسة المُلك لا تعرف الرحمة والشفقة). هكذا عرفنا أن مدينة البذّ فُتحت في التاسع من رمضان عام (222هـ) وأُقتيد بابك في العاشر من شوال من نفس العام إلى برزن عند الأفشين، وعلى هذا يكون بابك قد مكث مدة شهر تقريباً في الوادي وفي أرمنستان، وبعد أن سُجن في برزن وصل إلى سامراء ليلة الخميس الثالث من صفر عام (223هـ)، إذن كان بابك أسيراً لمدة اربع اشهر تقريباً و لا نعرف بالضبط لماذا قضى الأفشين هذه المدة في أذربيجان وكيف تعامل مع بابك هناك. لكن الذي يمكن استنباطه من

الأدلة أن بابك لم يعامل بقسوة ونستشف ذلك من الفقرة التي ننقلها أدناه وهي أن المبلغ الذي دفعة الأفشين إلى سهل ابن سنباط وابنه والبالغ مليون درهم ومائة ألف مع نطاق مرصع بالجواهر يؤكد الأهمية الكبيرة لاعتقال بابك لدى الخليفة.

إن مبادئ بابك ومعتقداته كانت أصلاً موجودة في محيط حياته، ومبدأ الحلول هو العنصر الأساس في عقيدته، نستنتج ذلك من كلام الطبري وبقية المؤرخين عن حلول روح جاويدان فيه، ولكن نجهل تماماً معتقدات جاويدان وحقيقة أتباعه ونضرتهم إليه، وماهي علاقتهم ببابك. يقول ابن النديم عن بابك: (أما الخرمية البابكية فرئيسهم بابك الخرمي، وإذا أراد أن يخدع شخصاً ما كان يقول له إنه الله وأضاف إلى مذهب الخرميين القتل والغصب والحروب والتمثيل بالجثث لم تكن موجودة لدى الخرميين قبله).

لا نعدُ إدعاء بابك الإلوهية أمراً صحيح مثلما ورد في الفقرة أعلاه، لأنها لا تتفق مع المواضيع التي نقلها الآخرون عن معتقداته وعن مبدأي الظلمة والنور عند المزدكية، ربما أن بابك كان يجد نفسه مُلهَماً من الغيب وكان يضفي على زعامته الجانب الإلهي، ولا نعرف في زعامة هذه الفرقة سوى العظمة الظاهرية والسياسية. ومما ورد أعلاه نستنتج أن هذه الزعامة كانت تنتقل من شخص إلى آخر إما عن طريق الوراثة، أو عن طريق آخر مثل الحلول. والطريقة الثانية التي سلكها بابك وردت في جميع المصادر وحتى في الفقرة المفصلة التي نقلها ابن النديم وهي أن بابك كان يدّعي أن روح جاويدان قد حلت به، لكننا لم نجد في أي مصدر أن بابك ادعى ذلك، لذلك يجب توخي الدقة في اعتماد قول ابن النديم.

يقول المقدسي: (أما الثنوية يؤمنون بنبوة ابن ديصان وابن شاكر وابن أبي العوجاء وبابك الخرمي، وحسب رأيهم فالأرض لا تخلو إطلاقا من نبي)، لكونهم يؤمنون بعقيدة الحلول وانتقال روح النبي بعد موته إلى شخص آخر. إن بيانات المقدسي عن أفعال بابك وأعماله تؤيد بعض ما ذهب إليه ابن النديم عن أفكار بابك في الدين الخرمي وخاصة ما يتعلق بالقتل والغصب والحرب والتمثيل بالجثث. ظهر الدين المزدكي من بين الطبقة المتوسطة والفقيرة وكان يعارض طبقة الخواص، وما ورد أعلاه يؤكد أن أتباع هذه العقائد كانوا مسالمين ويحبون العيش بأمان وسلام وليسوا طلاب جاه، أو مناصب وهذه بالضبط صفات الطبقة الثانية والثالثة. كانت هذه أيضاً سمات الخرمدينية في القرون اللاحقة حسب ما ذكره المؤرخون، لكن لم

تكن لديهم الإمكانيات لمراعاة هذه الأصول والمبادئ في ظل الضغوطات الدينية والإدارية التي مارستها الطبقة الحاكمة يعني الولاة والعمال العرب. لقد ظهرت حركات عديدة في إيران وخاصة في أذربيجان، لذلك لا يمكن عدُّ ظهور بابك بداية فصل جديد لمعتقدات وآراء الخرمدينية، ولكن يمكن القول إن هذه الأعمال قد وصلت إلى ذروتها في عهد بابك تلبية لحاجات ومقتضيات الزمان والمكان.

لقد نشأ بابك في محيط كان أغلب الناس يبحثون فيه عن شخص يمنحهم الحرية الدينية والاجتماعية لأن الحقد والتعصب كانا يتملكان الناس ضد العرب، لذلك وجد هذا الأمر طريقة لعقل وطبع بابك وهو الذي يمتلك معنويات قوية وحس واقعي وتجسّد ذلك في عدد الأشخاص الذين ضحوا بأنفسهم تلبية لندائه مثلما وردَ في المصادر. مما لا شك فيه أن المذبحة التي أشار لها المقدسي والآخرون وقعت للمسلمين أكثر من غيرهم لأن الخرمدينية يعتبرونهم أعدائهم وذكرت المصادر أن عدد الأشخاص الذين قتلوا من المسلمين خلال زعامة بابك بلغ مائتان وخمسة وخمسون ألف وخمسمائة شخص.

يقول المسعودي عن القتلى: (يقال إن الذين قتلهم بابك خلال مدة اثنان وعشرون عاماً من جيش المأمون والمعتصم والأمراء والقواد وسواهم من بقية طبقات المجتمع ليس أقل من خمسمائة ألف وربما أكثر. يقول نظام الملك: (تم أسر أحد جلادي بابك وسُئل عن عدد الذين قتلهم، قال هناك العديد من الجلادين غيري ولكن الذين قتلتهم كانوا ثلاثين ألف مسلم سوى من قتلهم الجلادون الآخرون).

إن قلة المعلومات واختلاط الأوراق مع الأغراض الشخصية والدينية أدت إلى عدم إمكانية إعطاء رأي محدد في ما يخص السلوكية الأخلاقية لبابك، تقول مصادرنا إن بابك كان رجلاً قوي القلب وجسور ومستبد وسفاك وكان متمسكاً بمبادئه قبل أن يُجبر على الهروب، وانطلاء خدعة سهل بن سنباط عليه وعلى أخيه. قال بابك لسهل لا نعرف ما سيكون أمرنا وليس لدينا القوم الذين يدعون لديننا إذن لا تدعنا أنا وأخي في مكان واحد، فإذا لحق الأذى بأحدنا فسيكون الآخر حياً لكي يكمل ما قمنا به. إن هذه الفقرة وارتباطه وإيمانه بمبدئه تثبت أنه كان دائم النشاط وعملياً في حياته وميال لتوسيع دائرة قدرته وترويج ونشر دينه، كما أن رغبته بالعيش واحتساء الخمر وكما يقول المقدسي إنها من عادات هذه

الفرقة كان لها جوانب دينية من وجهة نظره، وكان لديه عدة نساء جلبهن من مدن مختلفة برغبتهن أو بالإكراه لكنه كان لطيفاً معهن. عندما أسر الأفشين زوجاته أمر أن يعرضّن أمامه بصفين وجاء بابك مرتدياً درّاعة وعمامة بيضاء نظرَ إليه الأفشين وقال أحضروه إلى مقر الجند وأجلسوه على جواد وأحضروه إلى المعسكر وعندما شاهده نسائه شرعن بالبكاء ولطمن على خدودهن وعندما سمع الأفشين صراخهن قال في الأمس كنتن تقولن إننا أسرى واليوم تبكون لأجله، قلن إنه كان يحسن إلينا. يقال إن عدد النساء اللواتي تم أسرهن معه بلغَ ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسع نساء. كان بابك يحب شقيقه عبد الله. عندما أُسر ابن بابك من قبل المسلمين في فتح البُذّ وعندما وصلت رسالة الخليفة التي تمنحه الأمان كتب الابن رسالة إلى والده بتوجيه من الأفشين طلب منه أن يسلم نفسه، لكن بابك لم يقرأ الرسالة وقال للرسول إنه ليس ابني فلو كان ابني ما كان سلم نفسه حياً للعدو. هذا الكلام يوضح سموّ روحه وفكره وأصله الحرّ وطبعه المتمرِّد، كما أن رفضه لرسالة الخليفة يعكس تمسكه بعقيدته.

كان شديد التمسك بمنشئه، لأن الأفشين عندما أسره أراد أن ينقله إلى سامراء، قال له أريد أن أسافر معك فماذا تريد من بلاد أذربيجان قال لدى رجاء وهو أن أنظر إلى مدينتي، أرسله الأفشين في ليلة مقمرة مع مجموعة إلى البُذّ، تجّول بابك في المدينة حتى الصباح وكان ينظر إلى القتلى ودمار المدينة. كان بابك يناصب العرب العداء الشديد (ويعتبرهم حقراء وسفلة ويسميهم اليهود)، وكان بابك صبوراً تجاه الشدائد ويتحمل الصعاب والمشقات المعنوية والجسدية والدليل على ذلك شجاعته وهو يواجه الموت.

يقول المقدسي: (يقول بعض الناس عندما قطعوا يد بابك الملعون مسح وجهه بدمه وضحك لكي يثبت للناس أنه لا يخشى قطع عضو من أعضائه ولا يشعر بأي نوع من العذاب). نجد هذه الحكاية في كتاب سياستنامه بتفصيل أكثر: (أمر الخليفة أن تُقطّع أوصاله وعندما قطعوا إحدى يديه مسح وجهه بيده الثانية بالدم، قال المعتصم أيها الكلب ماذا تفعل ؟ قال في هذا حكمة أنت تريد قطع أوصالي وعندما ُيسفك دم الناس تنتاب وجوههم الصفرة لقد مسحت وجهي بالدم حتى لا يقول الناس قد أصفر وجهه من الخوف).

لقد تم نقل عدداً من أولاد بابك إلى سامراء وكان عددهم سبعة عشر ولداً

وثلاث وعشرين من البنات، وقد وضع المعتصم إحدى بناته في حرمه. يُعدُ مقتل بابك ضربة قوية لحياة وقوة الخرمدينية، لكن هؤلاء القوم لم ينتهوا مرة واحدة وكانوا يصولون ويجولون في مناطقهم حتى أواخر القرن الرابع الهجري، لكنهم بمرور الزمن تشبهوا بالإسلام لشدة التعصب وغلبة الإسلام.

كسب أبو جعفر احمد بن الحسين بن سعيد الأهوازي المعروف بدن دان المتوفى عام (250هـ) جماعة من الأكراد وأهل جبل البذ إلى دينه بعد أن كانوا من الخرمية، ومما لاشك فيه أن تطور تعاليم القرامطة غرب وجنوب إيران كان نتيجة الأرضية المناسبة التي هيأتها تعاليم الخرمدينية لدعاة القرامطة، لذلك عدّهم مؤلفو القرنين الرابع والخامس الهجريين من الباطنية والإسماعيلية والقرامطة، ولهذا سبب آخر وهو أن مناطقهم هي نفس مناطق الباطنية في القرون الثالث والرابع والخامس والسادس الهجرية.

يقول نظام الملك عن الخرمدينية في خلافة الواثق (227-232هـ): (لقد ثاروا مرة أخرى أيام الواثق ونشروا الفساد والشر في أصفهان، استمروا بحركتهم حتى عام ثلاثمائة ودمروا كره (كرج) وقتلوا العديد من الناس، ولكن إندحروا، ثم ثاروا على الملك ولجئوا إلى جبال أصفهان وتعرضوا للقوافل، وكانوا يقتلون الشباب والشيوخ والنساء والأطفال، واستمروا بفتنتهم 30 عاماً، وعجزت الجيوش عنهم ولكن تم القضاء عليهم وأسرهم وقتلهم وعلقوا رؤوسهم في أصفهان وفرح العالم الإسلامي لذلك)، يقول الطبري عن وقائع عام (227هـ): في هذا العام جاء وصيف الترك من أصفهان والجبال وفارس إلى العراق وتوجه لصد الأكراد الذين احتلوا هذه المناطق وأسر خمسمائة منهم ومن ضمنهم الأطفال وجلبهم إلى العراق ومن المحتمل أن حركة الأكراد تلك هي نفسها التي أشار إليها نظام الملك في مقدمة روايته وكان أولئك الأكراد من الخرمدينية. لم ينته أتباع بابك كلياً في البُذّ وكانت مجموعة منهم تعيش لقرون في نواحي أذربيجان، وكانوا على دين أجدادهم. يقول الشاعر أبو دُلف مسعر بن المهلهل أواسط القرن الرابع الهجري والذي زار المدينة: يوجد قرب البُذّ موضع مساحته ثلاثة جريبات، ويقال إنه كان مكان رجل كان كلما يدعوا الله يأتيه صوت خفي، رفع المحمرّة هنا علم الثورة، ومن هنا خرج بابك، الناس هنا تنتظر خروج المهدي، اسفل المدينة نهر يستحم فيه المرضى).

يقول البغدادي عن الخرمدينية: (إن الخرمية كانوا يحتفلون بليلة العيد في

جبلهم ويجتمعون في هذه الليلة لشرب الخمر والغناء نساءاً ورجالاً، وعندما يطفئون المشاعل يتوجه الرجال إلى النساء ويقسموهن بينهم وكل من يصل أولاً يحصل على المرأة التي يريدها، ينسبون دينهم إلى أحد الأمراء في الجاهلية وكان يدعى شروين. كان أبوه من الزنج وأمه من بنات ملك إيران).

نقل الإسفرايني هذه الحكاية باختصار، ويقول العوفي في جوامع الحكايات: (في عهد المسترشد (512- 529هـ) كان جماعة من الخرمدينية في بلاد أذربيجان يثيرون الفساد والشر والفتنة، تحرك المسترشد شخصياً للقضاء عليهم، وتوجه إلى أذربيجان بجيش جرار، وظهرت له مجموعة من الملحدين فجأة وأسروه وقتلوه طعناً بالسكين وكان ذلك يوم الخميس السابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة).

لتوضيح هذه الحكاية المليئة بالأخطاء يجب أن نقول إن بدُبيس بن صدَقة صاحب الحلّة ثار على الخليفة، وخرج الخليفة من بغداد للقضاء عليه وتحارب الطرفان بين بغداد والحلّة، اندحر بدُبيس ورمى نفسه في نهر الفرات، ثم توجه من هناك إلى البادية ولم يساعده العرب مما اضطره للمجيء إلى السلطان مسعود عام (529هـ) وعندما سمع الخليفة أن مسعوداً ينوي غزو العراق جهز جيشاً وتوجه إلى حمدان ووقعت معركة اندحر الخليفة فيها لكنه صمد ولم يهرب، أسكنه السلطان في خيمة خاصة، وعندما سمع السلطان سنجر بالخبر كتب رسالة إلى مسعود لكي يحترم الخليفة، نقل مسعود الخليفة معه إلى مراغة ونفذ ما أراده سنجر منه، وجاء بدبيس إلى الخليفة الذي عفى عنه، وفي ذي القعدة من هذا العام وصل رسول من خراسان ونزل في خيمة يرافقه سبعة عشر من الباطنية يوم الخميس من ذي القعدة و قاموا بقتل الخليفة، ودَفَن مسعود الخليفةَ في مراغة، لذلك يبدو أن المسترشد لم يكن قادماً إلى أذربيجان لقطع فساد الخرمدينية ولم يكن في معيته جيشاً، لكنه جاء كأسير وربما تزامنت ثورة الخرمدينية في أذربيجان مع ذلك الحدث، يقول ياقوت في معجم البلدان في مادة دركزين: (... يقول الوزير أنو شيروان بن خالد إن دركزين بلد صغير من إقليم أعلَم... وجميع أهل هذا الإقليم من المزدكية الملحدين...).

***

الخاتمة

منذ الفتح العربي تركت مجموعة من الشعب الإيراني دينهم القديم برغبتهم واعتنقوا الدين الإسلامي، وأسلمت مجموعة أخرى للحصول على الامتيازات والمناصب التي منحها الفاتحون لهم. ثم قاموا بعد ذلك بأعمال قهرية تجاه أتباع الديانات الأخرى في بعض مراحل الدولة الأموية وكذلك الدولة العباسيّة. أسلم بعض الإيرانيين جبراً للمحافظة على حياتهم وأموالهم. ولكن لم تتمكن أي واحدة من المجموعات الثلاث المذكورة من نسيان معتقداتهم الدينية كلياً التي سادت إيران لقرون طويلة وأثرت في أفكارهم وعواطفهم، أو الحيلولة دون محو آثارها في حياتهم الجديدة وكانت أعمالهم مرهونة إلى حدٍ بالتعليمات السابقة شاءوا أم أبوا من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

لم يكن الإيرانيون الذين أسلموا على مذهب واحد، وكان بينهم السنة والشيعة والخوارج. وانقسمت المجموعتان الأخيرتان إلى مجموعات أخرى. إضافة إلى أن هؤلاء المسلمين الجدد لا يشكلون جميع المجتمع الإيراني، ولكن القسم الأعظم من سكنة هذا البلد من المزارعين والعمال تمسكوا بالدين المزدائي الذي كان يفتقر إلى الوحدة ولكنه كان يعارض الإسلام. وإذا كان الدين الإسلامي ليس بعيداً عن المذهب في بعض الآراء والرسوم، ولكن كان هناك تفاوت بارز بين الشريعتين في أغلب الموارد. وعلى سبيل المثال يكفينا أن ندقق النظر بصفات إله الدين الإيراني وإله الدين الإسلامي، أو شرائع الزواج وآداب الأموات في هذين الدينين من الواضح أنه لم يكن من الممكن ترك مثل هذه الرسوم والمعتقدات المقدسة بسهولة، وكان يتطلب تركه وقتاً طويلاً لأنها حصيلة قرون طويلة. فإذ كان الجبر والضغط والتحقير قد أفرز نتائج من جانب فأنه زاد من الجانب الآخر من صمود وإصرار الطرف المقابل، بعبارة أخرى كان يجب عليهم أن يغيروا من طباعهم أولاً ولم يكن هذا بالأمر اليسير.

لقد حدثت الثورات التي ذكرناها من قبل طبقة العامة من الناس وهذا ما يؤكد النظرية المذكورة، لأن من الصعب على العامة تغيير معتقداتهم كالطبقة الخاصة، وإذا كانوا قد تقبلوا العقيدة الجديدة فكان ذلك بسبب قوة تقليدهم وهذا الأمر لم يتطلب منهم ولم يفرض عليهم ترك معتقدهم القديم وإنما

المحافظة على العقيدتين معاً رغم اختلافهما وتناقضهما، وشكلّ ذلك مزيجاً دينياً غير مبرر في مثل هذه الأعمال. هناك نقطة جديرة بالاهتمام وهي أن أغلب رؤساء المذاهب الذين سبق ذكرهم لم يكونوا مبتكرين أو مبدعين لأن معتقداتهم وعناصرها الفكرية ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمحيط والبيئة التي نشأوا فيها.

كانت شرائح المجتمع الإيراني تختلف عن نظيرتها لدى العرب والمجتمع الإسلامي، كانت التعاليم الإسلامية تتفق أساساً مع الأصول والمبادئ الديمقراطية رغم عدم مراعاتها من قبل المسلمين العرب، لكن النظام الاجتماعي الإيراني كان نظاماً طبقياً. رغم أن العرب في إيران لم يتمكنوا قط من القضاء على الطبقية وإنما أصبحوا هم طبقة بوجه الأمة المغلوبة و اتفقوا مع الشريحة الأولى والثانية من خلال استغلال معاناة الإيرانيين وخاصة الشريحة الثالثة. لم يتغير الوضع بعد انقراض الدولة الأموية واستقرار الأسرة العباسية، ولم تنته تجاوزات العمال والأمراء مثل ما شاهدنا. كان من الممكن أن نستغرب في بداية الأمر ظهور الحركات الدينية المذكورة وخاصة بعد تسلم العباسيين للحكم وتعاملهم المعتدل مع الإيرانيين لقد كان لكل خليفة عباسي شأن مع أحد قادة هذه الحركات ولكن مجرد التدقيق في المواضيع أدناه يسهل فهم هذه المشكلة إلى حداً ما:

1- بعد الفتح العربي و انتهاء المعارك كان الإيرانيون في حاجة إلى مدة لكي يتمكنوا من استعادة قواهم التي فقدوها.

2- كانت السياسة الدينية للأمويين تختلف عما هي لدى العباسيين.

3- تغيير الدولة، لم يأت بالنفع على الوضع الاجتماعي لأغلب الشعب الإيراني إلا بعض الإيرانيين.

4- بعد القضاء على الدولة الأموية تجرأ المعارضون على التطاول على الدولة العربية والتفكير بالقضاء عليها لإحساسهم بإمكانية ذلك وخاصة أن انقراض الدولة المذكورة تم بمساعدة الإيرانيين.

5- إن أسلوب بعض الخلفاء العباسيين مع أشخاص كانوا قد عملوا على تعزيز قوة هذه الدولة جعل من أتباعهم و مؤيديهم يغيّرون مواقفهم تجاهها ومنها قتل أبى مسلم الخراساني بأمر من أبي جعفر المنصور و قتل وسجن البرامكة بأمر من هارون الرشيد.

6- يجب عدم افتراض هذه الحركات الدينية مقدمة وإنما هي خاتمة أزمة بدأت منذ مدة طويلة وتقريباً منذ بداية الفتح العربي.

كان الدين قوة معنوية مهمة في إيران الساسانية، ويعد محور أعمال الناس ومحرك مشاعرهم وتشخيصاً للقومية الإيرانية إلى حد ما، ولم ينته هذا الأمر في العصر الذي نناقشه لذلك كان من الطبيعي أن يطغى الشكل الديني للحركات المذكورة على الشكل السياسي لها ولكون أولى الثورات الرسمية الإيرانية لها صفة دينية وبخاصة أن المعتقدات الدينية تعد أكثر العوامل فعالية من الناحية الروحية لدى المتدينين، وتعتبر المؤسسات الدينية أقوى المؤسسات من الناحية الاجتماعية. رغم رسوخ الإسلام في إيران بقيت المؤلفات الدينية منتشرة فيها، وكان الموابدة يمارسون الأمور الشرعية والمعابد معمورة ومزدهرة، وحافظ أتباع الدين الزرادشتي والفرق الأخرى على معتقداتهم وقوانينهم وكانت الرسوم الإيرانية لا زالت سائدة.

لم يحكم العرب الفاتحون جميع المناطق بالتساوي، ولم يتمكن الدين الإسلامي بعد قرن في إيران من القضاء على الخصوصيات المحلية، وكانت الأنظمة الجديدة تتقاطع مع المصالح الشخصية لكبار القوم المحليين وأتباع الأصول والمبادئ القديمة ومارس هؤلاء الرؤساء العصيان والتمرد وكانوا يمدون العون لدعاة الدولة، وكان للعوامل والدوافع الشخصية والحالة المعنوية والدينية والأخلاقية لهؤلاء الأشخاص الأثر المهم في ظهور دعاة النبوة والفرق الدينية، مثلما هو الحال عندما تبلورت لدى شخص فكرة تجديد أو إصلاح الدين التي كانت موجودة بشكل مبهم لدى مجموعة، وتحولت من حالة الإبهام إلى واقع واتحدت مع الآمال والعواطف الشخصية .

لا يمكن إنكار دور الأسباب العامة في مسير الأحداث وفي أمور هي من صلب موضوعنا وكذلك تأثير الطبيعة والرسوم والميولات الشخصية التي كان لها الدور المهم في تأسيس هذه الحركات. لقد خضع الشكل الديني والسياسي والاجتماعي لهذه الثورات إلى النفوذ الشخصي لمؤسسيها الأصليين والقاعدة العامة تقول إن لكل دين صبغة مؤسسيه ولكن من الضروري التمييز بين الأسباب الأصلية للحادثة مع عواملها ومسبباتها. إن هذه الحركات الدينية التي سبق ذكرها لم يكن لها سبباً أو دافعاً واحداً، وإنما حدثت نتيجة اجتماع عدد من الأسباب. فإذا كان

إيجاد مثل هذه الثورات مرهوناً بعدد من الأسباب، إذن يجب عدم الإذعان إلى أن لها شكلاً خاصاً وانما الأخذ بنظر الاعتبار أشكالها و وجودها، كما أن المواضيع الاجتماعية أكثر تعقيداً من أن نتمكن من وضع مصداقيات صحيحة وتأكيدات قاطعة بشأنها. إن تنوع الأسباب والعوامل التي تؤثر في مثل هذا النوع من الأمور، يجب أن تمنعنا من التعصب التاريخي الذي يتعارض مع حيثيات البحث والتحقيق. لم تبلغ أي واحدة من الحركات الدينية المذكورة النتيجة التي كان يتوخاها قادتها وأتباعها،، ولم يكن من اليسير محو الخط الذي سطره قلم الأيام على صفحة التأريخ السياسي والديني الإيراني. لقد كان الدين المزدائي ضعيفاً دائماً والإسلام قوياً، لكن هذه الحركات الدينية هيأت الأرضية لتطور الحركات السياسة لقد استلهمت الفرق التي مرّ ذكرها شيئاً أو أشياء من الدين الإسلامي وأثرت بدورها في تطور آراء الفرق الإسلامية، يمكن أن تكون هناك آراء مختلفة حول نوع ذلك التأثير ولكن لا يمكن انكار وجودها. لقد صمدت الأفكار والعادات والأخلاق والقواعد وحتى المؤسسات الإيرانية لمدة أمام العادات الجديدة أو أنها تغيرت بشكل بطيء، والتبادل لا يؤدي بالضرر دائماً على طرفٍ واحد حتى لو كان لتأويل الشرائع الإسلامية التي كانت محط اهتمام مجموعة من الناس في القرون الثانية والثالثة والرابعة الهجرية وكانت لها أسبابها المختلفة، وقيل أن الهدف الأساس منها تحريك القواعد الثابتة للأصول الدينية وجعلها منسجمة مع الحاجات والمقتضيات العقلية والاجتماعية، فليس من المستبعد أن يكون هذا الأمر نتيجة دخول مجموعة كبيرة من الناس إلى الدين الإسلامي ومجانسة المعتقدات والرسوم القديمة مع الشرائع الجديدة.

الهوامش

ـ الأفشين خيدر ابن كاووس

كان الأفشين قائد المعتصم الكبير الذي تمكن من دحر جيش بابك وأسره، وهو من أبناء ملوك أشروسنه الذي وصل بدوره إلى الملكية أيضاً، وسيطر على حكومة مسقط رأسه على مدى حياته، اسمه خيدر واسم والده كاووس. وقعت حركة ضد السيطرة العربية خلال إقامة المأمون في خراسان على الجانب الآخر من نهر جيحون، وعندما أصبح المأمون خليفة عمل على تهدئة حدة المشاكل في هذه المناطق وأرسل الجيوش إلى السُغد وأشروسنة وفرغانة وفرض الطاعة على المتمردين والثوار ودعاهم إلى الإسلام من خلال الرسائل. بعث الملك كاووس رسالة إلى الفضل بن سهل وزير وكاتب المأمون طلب فيها الصلح وتعهّد بدفع الضرائب إلى الديوان بشرط أن لا يحاربه المسلمون في دياره، قبل الوزير بدوره هذا الطلب وبقي كاووس وفياً على عهده عندما كان المأمون في خراسان، ولكن عندما عاد المأمون إلى بغداد عام (202هـ) امتنع كاووس عن دفع مال الصلح. كان لكاووس قائداً زوج ابنته إلى فضل ابن كاووس، وبعد مدة ظهر خلاف بين خيدر وذلك القائد، وعلى أثر ذلك قام خيدر بقتله وهرب، وبعد مدة أعلن إسلامه وتوجه إلى بغداد ومهّد بذلك الطريق أمام المأمون لفتح أشروسنه.

توفي طاهر بن الحسين عام (207هـ) ونصب المأمون طلحة ابن طاهر خليفة له، وأرسل أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب على رأس جيش كبير لاحتلال أشروسنه ورافقة خيدر مع عدد من الأمراء، عندما علم كاووس بذلك أرسل ابنه فضل إلى الترك (التُقوز أُغوز) لطلب مساعدتهم في الحرب، انضمت إليه مجموعة من الترك. جاء أحمد بن أبي خالد إلى مدينة أشروسنه بإرشاد من خيدر من خلال طريق مختصر لم يكن العرب يعرفونه سابقاً. كان كاووس يعتقد أن أحمد سيختار الطريق الأبعد بحكم عدم خبرته بالمنطقة، لكنه وقع أسيراً بيد القائد العربي وقدم فروض الطاعة. عندما سمع فضل بذلك هرب إلى الصحراء مع الترك ثم ترك أعوانه بعد أن مات أغلبهم في الصحراء بسبب العطش وانضم فضل إلى والده. توجه كاووس إلى بغداد وأعلن إسلامه هناك وأعاد المأمون تنصيبه ملكاً على ولايته، وبعد وفاته خلفه خيدر بن كاووس ومنح لقب الأفشين (وتعني الحاكم في اللهجة المحلية، المترجم). بقي خيدر في بغداد مع أخيه بعد وفاة والده، في عام (215هـ) سمع المأمون عندما كان في دمشق بثورة أهل بشرُد التابعة لمصر، قال لأخيه المعتصم أن يرسل خيدر إلى هناك لفرض الطاعة على الثوار،

نفذ المعتصم ذلك، وتمكن خيدر من السيطرة عليهم ثم توجه إلى برقة الواقعة بين الإسكندرية وأفريقيا لقمع ثورة أهلها، وتمكن من فتحها ثم عاد إلى مصر عام (216هـ). في هذا الوقت تمرد أهل مدن حوف و بيما وبسرود مرة أخرى وحاربهم وانتصر عليهم، جاء المأمون بنفسه عام (217هـ) وسحق الطغاة بشدة، ومنذ ذلك التاريخ لم يتمرد القبطيون على الدولة العباسية وبذلك على شأن خيدر.

بعد وفاة المأمون لجأ المعتصم عام (220هـ) إلى الأفشين للقضاء على بابك الذي جاء برزند مع أخيه الفضل وعمل على تدبير أموره الحربية بهدوء، وكان المعتصم يعطيه عشرة آلاف درهم إذا كان ممتطياً جواده وخمسة آلاف درهم إذا كان راجلاً إضافة إلى الأرزاق والإنعام والمساعدات. في التاسع من رمضان عام (222هـ) احتل البُذّ مدينة بابك، وتم نقل بابك إليه في برزن في العاشر من شوال عام (222هـ). وصل الأفشين يوم الخميس الثالث من صفر عام (223هـ) إلى سامراء مع أخيه وبابك والأسرى، توج الخليفة الأفشين وألبسه لباساً فاخراً وأعطاه عشرين مليون درهم ونصبه على ولاية السُغد، وطلب من الشعراء مدحه وأنشد أبو تمام وحسن بن الضحاك الباهلي في مدح فتوحاته وفنونه القتالية.

في عام (223هـ) هاجم توفيل ابن ميخائيل إمبراطور بيزنطة مدينة زبطرة وأسر عدداً كبيراً من أهلها. توجه المعتصم إلى عمورية لاحتلالها وكان الأفشين قائد جنده، وحارب إمبراطور بيزنطة يوم الخميس قبل خمسة أيام من شعبان عام (223هـ) وانتصر عليه ورغم قدرته على اعتقاله، قال إنه ملك وعلى الملوك أن يحترموا بعضهم البعض.

كانت قدرة ومنزلة الأفشين تزداد في البلاط. كان عبد الله بن طاهر في هذا الوقت حاكم خراسان وكان شبه مستقل في ولايته ولكن المعتصم لا يميل إليه ولكن لم يعلن ذلك جهراً، وكان الأفشين يسمع من المعتصم كلاماً بين الفينة والأخرى يدل على نيّة الخليفة على عزله عن حكومة خراسان، عندما انتصر الأفشين على بابك وتم تكريمه من قبل الخليفة طمع بولاية خراسان. يقول الطبري عندما سمع الأفشين أن مازيار حاكم طبرستان ليس على وفاق مع عبد الله، بعث سراً رسالة إلى مازيار طمّعه فيها بالرئاسة والدهقنة وحرضه على محاربة عبد الله وكان يعتقد أن الخليفة سينصبه على خراسان إذا استمر مازيار بالعصيان وسيكلفه بمهمة القضاء علية. عندما ثار مازيار، أمر المعتصم عبد الله بن طاهر للقضاء عليه لكن الأفشين كتب إلى مازيار حثه على الصمود أمام عبد الله، وفي المقابل بعث مازيار رسالة إلى الأفشين الذي كان على ثقة تامة بأن مازيار سيفعل ذلك وسيضطر المعتصم لإرساله للقضاء عليه.

في عام (224هـ) استولى منكجور شقيق زوجة الأفشين وخليفته في أذربيجان على قسمٍ من أموال بابك المخبأة في البّذ ولم يرسلها إلى الخليفة، أطلعَ عامل البريد الخليفة على ذلك عندما طلبَ الخليفة الأموال من منكجور الذي بعث رسالة إلى الخليفة أكدَ فيها أن الأمر كذب محض وبحث عن عامل البريد لكنه هرب إلى أردبيل، تبعه منكجور إلى هناك وحارب أهل المدينة الذين دافعوا عن عامل البريد. عندما عرف المعتصم بالأمر أمر الأفشين أن يرسل شخصاً لعزل منكجور، أرسل الأفشين أبا الساج المعروف بـ (ديو داد) على رأس جيش كبير إلى أذربيجان، لكن أعداء الأفشين اتهموه أمام الخليفة وقالوا أن منكجور أعلن العصيان بأمر من الأفشين وأنه أرسل ديو داد لمساعدته عندها أمر المعتصم القائد البُغاء بالقضاء على منكجور الذي استمر بعصيانه رغم سماعه بالخبر. التف حوله أتباع بابك وخرج من أردبيل وحارب البُغاء وعندما اندحر لجأ إلى قلعة حصينة كان قد دمرها بابك سابقاً وعمّرها وتحصن فيها، ولكن بعد عدة أسابيع تمرد عليه أتباعه الذين كانوا بمعيته في القلعة واعتقلوه وسلموه إلى البُغاء الذي نقله إلى سامراء عام (225هـ) وسُجن بأمر من المعتصم.

في هذه الفترة كان عدد من الأشخاص يعملون ضد الأفشين ومنهم عبد الله بن طاهر الذي كان يسعى لإظهاره على أنه المسبب في ثورة مازيار، وربما كان أهمهم أحمد بن أبي داؤد الذي أثر في الخليفة إلى حد ما. إنما أثار عداء العرب للأفشين تعلقه بإيران وكل ما هو إيراني، والحكاية التي نقلها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني عن نية الأفشين في قتل أبي دُلف قاسم بن عيسى العجلي، ربما تعكس السبب الأصلي لعداء أحمد بن أبي داؤد مع الأفشين، كان أبو دُلف من كبار العرب وذو شأناً ومنزلة في كرج الواقعة بين همدان وأصفهان وكان قائداً لمجموعة المتطوعين خلال حرب الأفشين مع بابك ولكن لا نعرف سبب عداء الأفشين له. استخلص الأفشين بصعوبة حكم قتل أبي دُلف من المعتصم الذي ندم على ذلك بسرعة وكشف ذلك لأحمد بن أبي داؤد الذي عمل على إنقاذه وجاء مسرعاً إلى منزل الأفشين لهذا السبب، لكن الأفشين كان قد نقل أبا دُلف إلى منزله وكان يريد قتله، وصل أبو داؤد وأصر على إنقاذه لكنه لم يفلح لأن الأفشين رفض طلبه وقال له: إن هذا رجلاً أراد قتلي، لكن أحمد أجابه أن أبا دُلف فارس من فرسان العرب وأحد أشرافه فاعفُ عنُه وإذا لا تجدهُ جدير بالعفو فسلمه إلى العرب وأنت تعرف جيداً أن لملوك إيران أفضال على ملوك العرب مثلما فعل خسرو للنعمان وجعله ملكاً وأنت اليوم من أحفاد أولئك الإيرانيين فاكرم شريف العرب واعف عنه. نهض أحمد وقبل رأس الأفشين وطلب منه بكل تواضع العفو عن أبي دُلف، لكن الأفشين رفض، عندما وجد أحمد أنه لن يفلح بإنقاذه قال للأفشين كاذباً إن الخليفة أمرني أن أقول لك أن لا تقتل أبي دُلف، ثم عاد إلى الخليفة وأخبره عما حدث وانقذ أبا دلف.

عزم قاضي القضاة على القضاء على الأفشين بسبب علو منزلته في بلاط الخليفة، واتفق مع كبار القوم الذين قالوا للمعتصم: إن الأفشين يريد قتله، وقال أحمد بن أبي داؤد للمعتصم: إن الأفشين تبادل الرسائل مع مازيار ضدك، عندها قال الخليفة كيف لي أن أصدق هذه الحقيقة، قال استدع كاتبه شابور وهدده، وفي إحدى الليالي استدعى المعتصم كاتب الأفشين واستفسر منه الأمر بالتهديد والوعيد، قال الكاتب لقد كتب رسالة بخطي إلى مازيار، وأعطاه المعتصم مال وأمره أن لا يطلع أحد على هذا اللقاء .

لقد أثرت في المعتصم رسالة الأفشين إلى مازيار والاتفاق مع منكجور و وساوس الأعداء، لذلك عزله عن رئاسة الحرس الخاص، وعندما شعر الأفشين بتغير الخليفة عليه أعد الكثير من القراب في قصره حتى يأتي اليوم الذي ينشغل فيه المعتصم وقادته بالسفر إلى الموصل ثم يلقي تلك القراب في نهر الزاب ويصنع منها عبّارة ليجتاز النهر ويصل إلى ولاياته أرمنستان ومنها إلى بلاد الخزر ثم يعبر بلاد الترك ويعود إلى أشروسنة أو أن يحرك الخزريين ضد المسلمين وعندما لم يتيسر له هذا الأمر، فكر في دعوة المعتصم وقادته لتناول الطعام في منزله، وأن يدّس السم له وإذا لم يأتي المعتصم إلى منزله يفعل ذلك مع قادته مثل أشناس وأيتاخ وثم يمتطي صهوة جواده ليلاً ويعبر النهر بالقراب وينفذ فكرته السابقة. وعندما كان يعد العدة لذلك وصل الخبر إلى المعتصم فأمر بسجنه، في الرابع من ذي القعدة (225هـ)، وقبل يوم من مقتل مازيار كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر أن يتحايل على حسن بن الأفشين ويسجنه، أمر عبد الله بدوره عامله نوح بن أسد الذي اعتقل حسن ونقله إلى سامراء.

أمر المعتصم بإحضار الأفشين لمحاكمته بعد مواجهته مع خصومه لذلك حضر محمد بن عبد الملك الزيّات وزير المعتصم وابن أبي داؤد واسحق بن إبراهيم وجلبوا الأفشين. كان رئيس المحكمة ابن الزيّات، وحضر مازيار والموبد ومرزبان ابن تركش أحد ملوك السُغد واثنان من أهلها، استدعى محمد بن عبد الملك الرجلين وقال لهما اكشفا لنا حالكما، كشفا عن ظهرهما الذي جرح بشدة، عندها قال محمد للأفشين هل تعرف هذين الرجلين قال نعم هذا مؤذن وذلك إمام وكلاهما شيد مسجداً في أشروسنة وقد جلدت كل واحد منهما ألف جلده لأن بيني وبين ملك السُغد شرط هو أن أعيد كل قومٍ إلى دينه، وقد تجاوز الاثنان على معبد فيه أصنام أهل أشروسنة وأخرجا الأصنام وحولوا المكان إلى مسجداً لذلك جلدتهما لتجاوزهما ومنعهما الآخرين من ممارسة عباداتهم. قال له محمد: ما هذا الكتاب الذي بين يديك والذي زينته بالذهب والجواهر والديباج وقد كتبت فيه كفراً، قال: هذا الكتاب ورثته من أبي وفيه عبارات عن أدب الإيرانيين والذي قلت عنه كفراً فإني استفيد من أدبه وأترك جانباً البقية، وزينته

وصلتني ولم أفعلها أنا وتركته على حاله مثل كتاب كليلة ودمنة وكتاب مروك الذي لديك في منزلك، و لا أجد ذلك الكتاب خروجاً على الإسلام، بعدها جاء الموبد وقال: إن هذا الرجل يأكل لحم المختنقة، وكان يجبرني على أكلها ويعتقدُ أن لحمها ألذّ وأحدث من الحيوان المذبوح، وكل يوم أربعاء كان يقتل خروفاً أسود وكان يقطعه من الوسط بسيفه ويعبر من وسطه ثم يأكل لحمه. وفي يوم قال لي لقد عملت لهؤلاء القوم كل ما لا أرغب فيه حتى إني شربت الزيت وركبت الجمل ولبست النعلين لكني لم أزيل شعر جسمي حتى هذه اللحظة ولم اختن، قال الأفشين: هل يمكن اعتماد ما يقوله هذا الرجل الذي يتحدث بمثل هذا الكلام على دينه (إن هذا الموبد كان مزدائياً وأسلم على يد المتوكل وأصبح نديمه) قالوا كلا، قال: إذن ماذا يعني قبولكم بشهادة شخص لا تثقون به ولا تعتبرونه عادلاً ؟ ثم التفت إلى الموبد وقال: هل بين بيتي وبيتك باباً أو شباك تستطيع أن تشاهدني من خلاله وتعرف ما أعمل ؟ قال كلا، قال الأفشين هل استدعيتك وكشفت لك عن أسراري وأخبرتك عن كل ما هو إيراني وأطلعتك على محبتي وميولي لإيران وشعبها ؟ قال لماذا ؟ قال الأفشين إذن أنت لست موثوقاً في الدين وليس كريماً في الصداقة واكشف السر الذي أفشيته لك.

عند ذلك حضر مرزبان بن تركش وسألوا الأفشين هل تعرف هذا الرجل، قال كلا ثم قالوا للمرزبان هل تعرف هذا الرجل قال نعم أنه الأفشين، قال له المرزبان أيها المخادع إلى متى تدافع عن نفسك وتخفي الحقيقة ؟ قال الأفشين ماذا تقول يا صاحب اللحيّة الطويلة ؟ قال كيف يكتب الناس مللك إليك ؟ قال مثلما كتبوا لجدي وأبي، قال كيف كان ذلك، قال لا أريد أن أقول ذلك، قال المرزبان ألا يكتبون هذا وذلك باللغة الأشروسنية ؟ قال لماذا، قال أليس تفسير ذلك بالعربية (إلى إله الإله من عبده فلان بن فلان) ؟ قال لماذا ؟ عند ذلك قال محمد بن عبد الملك الزيات هل يتحمل المسلمون أن يقال لهم ذلك فماذا أبقيت لفرعون عندما قال لقومه أنا ربكم الأعلى قال الأفشين كانت هذه عادة قوم جدي وأبي وهي كذلك بالنسبة لي قبل أن أدخل الإسلام ولم أرغب أن أكون أقل منهم منزلة، عندها قال اسحق بن إبراهيم بن مصعب: أسفاً عليك يا خيدر كيف تقسم لنا بالله وتريد أن نصدقك ونصدق قسمك ونتعامل معك كما نتعامل مع المسلمين وأنت الذي تدعي ما ادعى فرعون، قال يا أبا الحسن هذه سورة قرأها عُجيف ضد علي بن هشام وأنت اليوم تقرأها ضدي.

بعد ذلك استدعوا مازيار أصبهبد طبرستان وقالوا للأفشين هل تعرف هذا الرجل؟ قال كلا، ثم قالوا لمزيار هل تعرف هذا الرجل ؟ قال نعم هذا الأفشين، قال حسناً الآن عرفته، قالوا هل كاتبته ؟ قال كلا، قال لمازيار هل كتب رسالة لك، قال نعم لقد كتب

أخوه خاش إلى آخي كوهيار يقول لن يمن على هذا الدين الأبيض وينشره سواي وأنت وبابك الذي قتل نفسه بالجهل وقد عملت جهدي لإبعاد الموت عنه ولكن غباءه جلب له الموت واستحق ما فعله، فلو كنت قد فعلت خلافاً لذلك فلم يمنك أحد على هؤلاء القوم إلا أنا وكان معي الفرسان والشجعان فلو جئت إليك والتحقت بك فما كان أحد يجرؤ على محاربتنا من العرب والغربيين (يعني بهم شعوب شمال وشمال غرب إفريقيا من العرب والبربر... المترجم)، والترك. العرب بمنزلة الكلب أرم له لحمة ثم أضرب رأسه بالهراوة، وهؤلاء الذباب يعني المغاربة فهم أراحل، وهؤلاء أبناء الشياطين يعني الترك إن لم يصل نبلهم مبتغاه تستطيع أن تقضي عليهم جميعاً. هكذا يعود الدين كما كان أيام الإيرانيين، قال الأفشين إن هذا الرجل يدعي على أخيه وعليّ، إذا كنت قد كتبتُ هذه الرسالة إليه لكي استميله إلي فهذا الأمر لا يمكن إنكاره لأنه في الوقت الذي كنت أساعد الخليفة فيه كان يساعدني فمن الأولى أن أساعده بالحيلة لكي أسيطر على عدوه بغتة، وأجلبه له وأحصل على تكريمه مثلما فعل عبد الله بن طاهر.

ليس هناك اعتماد على مكاتبة الأفشين إلى مازيار مثلما يستنتج من رواية الطبري. يقول ابن أسفنديار: إن مازيار قال لعبد الله بن طاهر: (أعلم أنني والأفشين وخيدر ابن كاووس وبابك قد تبايعنا منذ القدم وقررنا استرداد الدولة من العرب ونعيد الملك إلى أسرة الكسرويين). وفي مكان آخر يقول: (سألوه [يعني مازيار] لماذا سمحت بخلع الطاعة، قال وليتموني على طبرستان وتمرد الناس، عندها كتبتُ إلى الحضرة فجاء الرد بمحاربتهم. قال الخليفة من كتب هذا الجواب، قال مازيار الأفشين).

خلاصة القول لقد شكك العديد من المؤرخين القدامى في هذا الأمر صراحة ومنهم اليعقوبي الذي يقول (قال لي محمد بن عيسى لقد جلبوا مازيار إلى سامراء وكان الأفشين في ذلك الوقت سجيناً، واجه ابن أبي داؤد الأفشين مع مازيار وقال هذا الأفشين الذي دعاك إلى العصيان كما تزعم، قال الأفشين لمازيار، والله أن الكذب عند عامة الناس أمر قبيح فكيف لدى الملوك والكذب لا يخلصك من الموت فلا تجعل منه خاتمة لعملك قال مازيار الله يعلم أنه لم يكتب لي رسالة ولم يبعث رسولاً سوى أن مأموري أبا الحارث قال لي عندما جاء إلى الأفشين فقد كرمه وعطف عليه إلى حدٍ كبير). عندما تحدث الأفشين كما شاهدنا مع المرزبان واسحق ابن إبراهيم فقد لام ابن أبي داؤد الأفشين، عندها قال الأفشين: يا أبا عبد الله أنت تضع طيلسانك على الكتف ولا تخلعه إلا أن تقتل جماعة من الناس، قال ابن أبي داؤد هل أنت مختون ؟ قال كلا، قال ماذا يمنعك من ذلك وهذا ما يفعله المسلمون، قال أليس حلال التقية في الإسلام، قال لماذا ؟ قال لقد خشيت من الموت إذا قطع هذا العضو عن جسدي، قال إن كل أعمالك بالسيف والحربة في الحروب فهل

تخاف من قطع قُلفة؟ قال الأفشين أنا غير مضطر لهذا العمل لأن فيه أذى لنفسي وكيف لي أن آمن من الموت و لا تزهق روحي بسبب ذلك ولم أكن أعرف أن عدم فعل ذلك خروجاً على الإسلام. التفت ابن أبي داؤد إلى الحاضرين وقال لقد عرفتم ما فعله ثم قال للبُغاء أقطعه، مد البُغاء يده وأمسك بخصر الأفشين، عندها صرخ الأفشين قائلاً لقد توقعت منك ذلك قبل هذا اليوم؛ رمى البُغاء طرف القباء على رأس الأفشين ونقله إلى سجنه.

طلب الأفشين من المعتصم أن يرسل إليه شخصاً محل ثقة، بعث المعتصم إليه حمدون بن إسماعيل وكان المعتصم قد أرسل قبل ذلك وعاء فاكهة بيد ابنه هارون ويبدو أن الفاكهة كانت مسمومة وعندما دخل حمدون كان الوعاء لا زال إلى جانب الأفشين ولم يأكل منه شيئاً. أنكر الأفشين أمام حمدون كل ما قيل في حقه وقال له أبلغ أمير المؤمنين لقد أحسنت إلي ورفعت شأني بين الناس ثم سمعت عني كلاماً ولم تفكر بي ملياً، كيف لي أن أفعل ما قيل لك وأن آمر منكجور حتى يثور وأن أقول للقائد الذي أرسلته للقضاء عليه أن لا يحاربه، لقد مارست أنت الحروب شخصياً فكيف يقول قائد الجيش لجنده في وقت المواجهة مع العدو افعلوا هكذا، هذا لا يمكن وإذا كان ممكن فلم يكن من اللائق أن تقبل ذلك بحقي من عدوي، أنا وأنت مثل حكاية الرجل الذي كان يربي عجلاً إلى أن يكبر ويسمن ولكن أصحابه طمعوا في أكله وطلبوا منه أن يذبحوه لكن الرجل رفض ذلك، اتفق الجميع أن يقولوا له لماذا تربي هذا الأسد لأنه سيعود إلى جنسه عندما يكبر، قال الرجل هذا عجلاً لكنهم قالوا أنه أسد واسأل من تشاء، سبقوه وذهبوا إلى الناس الذين كانوا يعرفونه وقالوا لهم: إذا جاء الرجل وسألكم عن العجل قولوا له أنه أسد، كان الرجل يسأل الناس عن جودة هذا العجل لكنهم كانوا يجيبوه هذا حيوان مفترس؛ هذا أسد، وأسفاً عليك يا هذا، عندها أمر الرجل بذبح العجل، فوضعي وضع هذا العجل فكيف لي أن أكون أسداً. عاد حمدون ونقل للمعتصم كل ما قاله الأفشين عندها أمر المعتصم أن لا يعطى سوى قرص خبز كل يوم وبهذه الحالة ينتابه العجز والوهن. بعد وفاته نقلوه من السجن إلى قصر أيتاخ ثم أخرجوه من هناك وصلبوه عارياً بين بابك ثم حرقوه وذَروا رماده في نهر دجلة، وذم كفره الشعراء الذين كانوا قد مدحوا فتوحاته بقصائد غراء وكان أبو تمام السباق لذلك.

مات الأفشين في شعبان عام (226هـ) وبما أنه ألقي في السجن في الرابع من ذي القعدة عام (255هـ) فقد سجن تقريباً تسعة أشهر. عندما أمر المعتصم بإيداع الأفشين في السجن أمر كاتباً بإحصاء كل ما يملك الأفشين في قصره وتسجيل ذلك، وجدوا في قصر الأفشين تمثالاً من الخشب لإنسان كان مزيناً بالحلي والجواهر كذلك عثروا في قصر الأفشين على صنم آخر وكتباً كثيرة من كتب المجوس ومن ضمنها كتاب اسمه

زرواره، ولا نعرف شيئاً عن الكتب التي عثروا عليها في منزل الأفشين سوى اسم أحدها، أما الأصنام التي كانت في منزله فهي دليل على كون الأفشين كان في الباطن على دين أجداده علماً أن هذا الدين ليس من أديان الإيرانيين لأنهم لم يكونوا عبدة أصنام، ويبدو أن الأفشين كان على الدين البوذي. لم يكن في ما وراء النهر دين رسمي للدولة بسبب شكل أنظمتها السياسيّة، كان الدين الزرادشتي دين الطبقة الحاكمة ولكن أتباع الفرق المزدائية الذين كانوا مطاردين من قبل الرؤساء والدين الرسمي في إيران لجأوا إلى هذه المناطق لأنهم وجدوا هذا المكان حراً وكانت هذه الحرية موجودة للبوذيين والنسطوريين، يمكن القول إن النفوذ الديني لإيران والصين والهند كان متزامناً في هذه المناطق، وكما نعرف فأن مذهب بوذا كان قد دخل إيران من هذه المناطق.

يقول ابن النديم في كتاب الفهرست (ص345) أنه قرأ كتاباً عن أخبار خراسان القديمة كان قد ألّفه رجلٌ من أهلها وذكر الرجل فيه أن النبي هو سمنية بوداسف وكان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام على هذا الدين. لم يكن للدين الإسلامي ذلك التأثير في أشروسنه مثلما عرفنا من مفاد القسم الأول من محاكمة الأفشين، وكان في أغلب مدن خراسان قوم من العرب من مضر و ربيعة وقبائل يمنية إلا في أشروسنه، التي منع أهلها مجاورة العرب لهم. في عام (178هـ/794-795م) قدم ملك أشروسنه فروض الطاعة لفضل بن يحيى البرمكي وكان أغلب أهالي أشروسنه على دين أجدادهم، وقد شاهدنا أن الأفشين و والده قد أسلما في زمن المأمون. يُستنتج من قضية العثور على الأصنام في منزل الأفشين إن إسلامه كان ظاهرياً وفي الباطن كان على دين أجداده. كتب بعض المؤرخين أنه كان على الدين الزرادشتي وبالتحديد على دين مازيار. لكن يُستبعد ما قيل عن كونه قد كتب رسالة إلى مازيار وقال فيها إن لا أحد يحمي هذا الدين الأبيض إلا أنا وأنت وبابك، أولاً: لإننا شاهدنا أنه لم يكن يؤمن بكتابة تلك الرسالة. ثانياً: يستنتج من القرائن المذكورة أن الأفشين لم يكن زرادشتياً وهذا الأمر يثير الشك في صحة كتابة تلك الرسالة.

يقول كراد فو: ((اتُهم الأفشين بالكفر وتمسكه بالدين المزدائي، ونسب مثل هذه التهمة إلى البرامكة أيضاً، أما فيما يخص الأفشين فلم تكن التهمة بلا أساس، لأن هذا القائد الذي كان له الدور الكبير في الدفاع عن المسلمين لم يكن يكترث لأغلب التعاليم الإسلامية وكان يقرأ الكتب الدينية لأبناء جلدته وتأريخه دليل على ظهور عناصر غير عربية منذ بداية القرن الثالث الهجري)). لم تنقطع سلالة ملوك أشروسنة بموت الأفشين وإنما بقي حكم أشروسنه في أسرته حتى عام (280هـ/893م). بقي حسن ابن الأفشين حتى عام (250هـ) في السجن ثم هرب منه في نفس العام.

محمود

في عام (235هـ) تمردّ رجل نيشابوري في سامراء وادعى النبوة وكل ما نعرفه عن آرائه وأحواله ما ضبطه الطبري ومن بعده مطهر بن طاهر المقدسي في كتبهما، ونذكر هنا كل ما ذكره المؤلفان المذكوران عنه:

ظهر في هذا العام (235هـ) رجل في سامراء كان يدعى محمود بن فرج النيشابوري وكان يعتقد أنه يرتبط مع الإسكندر (ذي القرنين) بسبع وعشرين نسلاً، وقد ثار اثنان من أصحابه في سامراء قرب المكان الذي صلب فيه بابك، وآخران في مسجد بغداد وكانا يؤمنان أن محموداً نبي وقد جلبه ذو القرنين وأتباعه إلى المتوكل الذي أمر بجلده، وقد جلدوه بشده ومات على أثر ذلك وسجن أتباعه.

لقد جاءوا من نيشابور وكان لديهم كتاب يقرأون به وقد رافقهم عيالهم أيضاً وكان بينهم شيخاً يشهد بنبوة محمود ويعتقد أن وحياً يأتي إلى محمود. جلدوا محموداً مائة جلدة لكنه أصرَّ على نبوته وجلدوا كذلك الشيخ الذي كان يؤمن بنبوته أربعون جلدة عندها أنكر الشيخ نبوة محمود. جلب محمود إلى باب العامة في سامراء وعندها كذّب ما ادعاه وقال له الشيخ لقد خدعتني، عندها أمر المتوكل أتباع محمود كي يلطموه، وفعلوا ذلك وأخذوا منه الكتاب الذي كان يعتبره قرآنه والذي أنزله جبرائيل عليه، مات محمود يوم الأربعاء الثالث من ذي الحجة عام (235هـ) ودفن في الجزيرة.

لقد ظهر في زمنه [يعني المتوكل] شخص في سامراء اسمه محمود بن الفرج النيشابوري وكان يدّعي أنه ذو القرنين. كان لديه كتاب كتب فيه كلاماً ما، وقد تبعه سبعة عشر شخصاً في هذا الرأي و قالوا له: كيف اخترت ذا القرنين من بين الناس، قال لأن شخصين ادعيا النبوة في بغداد وليس من المناسب لي أن أكون ثالثهم، وقد ضرب ضرباً مبرحاً بحيث ندم على ما فعله هو وأتباعه.

انتهى

صدر عن الدار

- شرفنامه: الجزء الأول: في تاريخ الدول والإمارات الكردية، تأليف: الأمير شرف خان البدليسي، ترجمة: محمد علي عوني.
- شرفنامه: الجزء الثاني: في تاريخ سلاطين آل عثمان ومعاصريهم من حكام إيران وتوران، تأليف: شرف خان البدليسي، ترجمة: محمد علي عوني
- كان يا ما كان، قراءة في حكايات كردية، تأليف: نزار آغري.
- تل حلف والمنقب الأثري فون أوبنهايم، تأليف: ناديا خوليديس – لوتس مارتين، ترجمة: د. فاروق إسماعيل.
- حينما في العُلى، قصة الخليقة البابلية، الترجمة الكاملة للنص المسماري للأسطورة، الدكتور نائل حنون.
- مشاهير الكرد وكردستان في العهد الإسلامي 2/1، تأليف: العلامة المرحوم محمد أمين زكي بك، ترجمة: سانحة خانم، راجعه وأضاف إليه محمد علي عوني.
- القبائل الكردية في الإمبراطورية العثمانية، مارك سايكس، ترجمة: أ.د. خليل علي مراد، تقديم ومراجعة وتعليق: أ.د. عبد الفتاح علي البوتاني.
- هكذا عشت في سوريا، في شاغر بازار وتل براك وتل أبيض، مذكرات، أغاثا كريستي، ترجمة: توفيق الحسيني.
- القاموس المنير (Ferhenga Ronak)، كردي – عربي، إعداد: سيف الدين عبدو.
- اللغة كائن حي، رؤية ونظرة فكرية حول اللغة الكردية انموذجاً، د. آزاد حموتو.
- أسرة بابان الكردية، شجرتها التاريخية وتسلسل أجيالها، إعداد: إياد بابان.
- حقيقة السومريين، ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية، تأليف: د. نائل حنون.
- اتجاهات الخطاب النقدي العربي وأزمة التجريب، د. عبد الواسع الحميري.
- خطاب الضدّ، مفهومه، نشأته، آلياته، مجالات عمله، د. عبد الواسع الحميري.
- تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، تأليف: انكه لهارد، ترجمة: أ.د. محمود عامر.
- بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية (دولة الجراكسة البرجية)، 1381 – 1517، تأليف: د. فيصل الشلّي.
- مم و زين، أحمد خاني، شرح وترجمة: جان دوست.
- العراق، دراسة في التطورات السياسية الداخلية، 14 تموز 1958 – 8 شباط 1963، أ.د. عبد الفتاح علي البوتاني.

- إسهام علماء كردستان العراق في الثقافة الإسلامية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، د. محمد زكي البرواري.
- سعيد النورسي، حركته ومشروعه الإصلاحي في تركيا 1876-1960 م، د. آزاد سعيد سمو.
- الإيزيديون، نشأتهم، عقائدهم، كتابهم المقدس، توفيق الحسيني.
- عيد نوروز، الأصل التاريخي والأسطورة، إعداد: عبد الكريم شاهين.
- انطولوجيا شعراء النمسا، ترجمة وإعداد: بدل رفو مزوري.
- البخار الذهبي، شيركو بيكه س، المنتخبات الشعرية، ترجمة: مجموعة من الأدباء الكرد.
- تاريخ الأشوريين القديم، إيفا كانجيك — كيرشباوم، ترجمة: د. فاروق إسماعيل.
- تاريخ الإمارة البابانية 1784 – 1851 م، عبد ربه إبراهيم الوائلي.
- مشكلة الاتحاد والتعالي في عقيدة الشيخ محي الدين بن عربي، الأخضر قويدري.
- الكورد والأحداث الوطنية في العراق خلال العهد الملكي 1921-1958 م.
- التعددية الحزبية في الفكر الإسلامي الحديث، ديندار شفيق الدوسكي.
- الكورد والدولة العثمانية، موقف علماء كوردستان من الخلافة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني 1876 – 1909، د. محمد زكي البرواري.
- التصوف في العراق ودوره في البناء الفكري للحضارة الإسلامية، د. ياسين حسن الويسي.
- درامية النص الشعري الحديث، دراسة في شعر صلاح عبد الصبور وعبد العزيز المقالح، علي قاسم.
- جمهورية مهاباد، 22 كانون الثاني 1946 – 17 كانون الأول 1946، دراسة تاريخية سياسية، هوزان سليمان ميرخان الدوسكي.
- مدن قديمة ومواقع أثرية، دراسة في الجغرافية التاريخية للعراق الشمالي، د. نائل حنون.
- الكرد وكردستان، أرشاك سافراستيان، ترجمة: د. أحمد محمود الخليل.
- دراسات في تاريخ الفكر السياسي الاسلامي، د. نزار قادر - د. نهلة شهاب أحمد
- الفلسفة الإسلامية، دراسات في المجتمع الفاضل والتربية والعقلانية، أ. د. علي حسين الجابري
- في آفاق الكلام وتكلم النص، د. عبد الواسع الحميري.
- تركيا وكوردستان العراق، الجاران الحائرن، تأليف: بيار مصطفى.

- مختارات من الشعر العربي، محمد الماغوط – محمود درويش – نزار قباني، ترجمه إلى الكوردية: ابرام شاهين.
- الضباب بحذافيره، إبراهيم حسو.
- التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، د. احمد السليماني.
- علم الترجمة، دراسات في فلسفته وتطبيقاته، تأليف مجموعة باحثين، ترجمة: د. حميد العواضي.
- قصة أعظم 100 اكتشاف علمي على مر الزمن، كيندال هيفن، ترجمة: د. جكر عبدالله الريكاني.
- قاموس الأصوات في اللغة الكردية، إعداد: عباس اسماعيل.
- ضلالات إلى سليم بركات، نص طويل، لـ حسين حبش.
- أمّ لوهم البياض، قصص، وجيهة عبد الرحمن سعيد.
- تعلم اللغة الكردية، القراءة بطلاقة، اعتماداً على خصائصها اللغوية، إعداد: درويش غالب.
- جماليات التلقي في السرد القرآني، د. يادكار لطيف الشهرزوري.

تحت الطبع

- التعجيل في قروض النثر، سليم بركات
- العقل العربي المعاصر، قضايا وإشكاليات، أ. د. علي حسين الجابري.
- علم المنطق، الأصول والمبادئ، أ. د. علي حسين الجابري.